الإلمام

بقواعد تقرير التوحيد أصل الإسلام

تأليف

محمد بن سعيد بن عبد الله الكثيري

غفر الله له ولوالديه ومشايخه وجميع المسلمين

دار الأنصار

الرياض ت : ٠٠٩٦٦٥٦٧٩٩٨٢٥

دار المحدث للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن أصل الإسلام وأساسه التوحيد، وبدونه لا يصح للإنسان إسلام ولو كان من كبار العباد، ولذا كان من المهم أن تُضبط (قواعد التوحيد الكبرى)[1] وتُجمع لتكون نبراساً للمسلم في فهم دينه، ومعرفة الفرق بين دين المسلمين ودين المشركين، وبها يعرف طريقة الرد والمحاجة للمخالفين.

وهذه القواعد، هي القواعد التي ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب في رسالته «القواعد الأربع»، وأضفت إليها خامسة موجودة في كلامه وكلام غيره من أهل العلم والفضل، وهي القواعد التالية:

① - أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق المدبر.

② - أن المشركين كانوا يعبدون الله مع ما يعبدون من الآلهة.

③ - أن المشركين عندما جعلوا مع الله آلهة إنما أرادوا منها الشفاعة

(١) أما قواعد التوحيد التفصيلية فلها موضع آخر إن شاء الله تعالى.

والقربة عند الله.

④- أن المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ كانوا متفرقين في معبوداتهم وجميعهم عاملهم معاملة واحدة ودعاهم إلى الإسلام ولم يفرق بينهم.

⑤- أن المشركين الأولين كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة.

وقد عرضت كل قاعدة من خلال العناصر الآتية:

الأول: شرح القاعدة.

الثاني: أدلة القاعدة.

وقد ذكرت فيه ما دل على القاعدة من نصوص الكتاب والسنة، وربما أضفت إلى ذلك شواهد من أشعار العرب.

وهي - بحمد الله - أدلة واضحة لا تحتاج إلى تكلف استنباط، فها هو رأس القبورية الرافضية، وشيخ الدولة الصفوية المجلسي (ت ١١١١هـ) مع تكلفه في رد دلالة هذه النصوص يعترف بمعاني هذه القواعد، فقد قال - في شرح ما رواه الكليني عن زرارة عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود على الفطرة»، يعني: المعرفة بأن الله عز وجل خالقه، كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ -: «(كذلك قوله) أي هذه الآية - أيضاً - محمولة على هذا المعنى .﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ **أي: كفار مكة**، كما ذكره المفسرون أو الأعم، كما هو أظهر من الخبر .﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **لفطرتهم على المعرفة**، وقال البيضاوي: لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذعانه. انتهى.

والمشهور أنه مبني على أن كفار قريش لم يكونوا ينكرون أن الصانع هو الله، بل كانوا يعبدون الأصنام لزعمهم أنها شفعاء عند الله»[١].

وقال - شارحاً لما رواه الكليني عن أبي هاشم الجعفري، قال: سألت أبا جعفر الثاني (ع) ما معنى الواحد؟ فقال: إجماع الألسن عليه بالوحدانية؛ لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ -: «لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: جميع الخلق إذا رجعوا إلى أنفسهم، وجانبوا الأغراض الفاسدة التي صرفتهم عن مقتضى عقولهم **أو المراد به مشركو مكة، فإن شركهم كان في المعبودية لا الخالقية»**[٢].

فقد أورد هذا الرافضي المجوسي ثلاث قواعد من أهم القواعد التي ذكرناها في شرح بعض النصوص التي نسبوها لأهل البيت - رحمهم الله -، فالحمد لله الذي أظهر الحق في كتابات غلاة القبورية الوثنية.

الثالث: العلماء الذين نصوا على القاعدة.

والمراد: العلماء الذين نصوا على معنى القاعدة ومضمونها، وليس على أنها قاعدة، وسوف ترى عدداً كبيراً من العلماء من أتباع المذاهب الأربعة. فمنهم من هو سلفي، ومنهم من هو متكلم أشعري أو ماتريدي، ومنهم المحدث، ومنهم الفقيه، ومنهم المفسر، وكثير منهم من سلف الأمة، وجلهم قبل القرن السابع، ومنهم من تأخر.

ليعلم القارئ أن ما يروجه عباد القبور من أن هذه القواعد من اختراع ابن تيمية، أو ناشر عقيدته ابن عبد الوهاب ما هو إلا محض افتراء.

---

(١) مرآة العقول (٧/ ٥٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٩ - ٥٠).

وإن الإنسان ليقف حائراً إذا وجد عظماء من المتأخرين يُقرُّ بهذه القواعد وينص على مضمونها في مؤلفات التفسير، ثم يهملها ويهمل ما دلت عليه من قواعد عظيمة في باب الاعتقاد.

وأعجب من هذا، أن ترى العالم ينص عليها في حال تعامله مع نصوص الوحيين، ثم إذا كان في مقام الرد على أتباع العقيدة السلفية أنكر ما وافق عليه وقرره.

الرابع: فوائد القاعدة.

الخامس: الشبه والاعتراضات على القاعدة.

وقد ذكرت فيه الشبه والاعتراضات على القاعدة نفسها، وأما الشبه والاعتراضات على الفوائد المستنبطة من القاعدة فلها موضع آخر إن شاء الله تعالى.

والله أسأل أن ينفع به ويجعله من العمل الخالص لوجهه، إنه سميع مجيب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتب

محمد بن سعيد بن عبد الله الكثيري

القــاعــدة الأولى

القاعدة الأولى

أنَّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بأن الله تعالى هو الخالق المدبِّر، وأنَّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام

أولاً: شرح القاعدة:

أرسل الله ﷻ رسوله ﷺ إلى قوم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق، وأنه يملك السمع والأبصار، وأنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر كله، له الأرض وما فيها، رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وأنه خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له، وأنه ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض، خلق السموات والأرض وهو العزيز العليم.

شهد لهم بهذا وبأكثر منه(١): القرآن نفسه، وكرره في عدة آيات وبأساليب متنوعة، مما يؤكد أن هذا اعتقادهم، ومع ذلك لم يقبلوا دعوته ﷺ مما يدل على أمرين:

الأول: أن هذا الاعتقاد غير كافٍ لدخول الإسلام.

الثاني: أن النبي ﷺ أتى بأمر زائدٍ على ما يعتقدون، وهو إفراد الله بالعبادة، وترك ما يعبدون من الآلهة سواه.

ولذا لما قال لهم ﷺ: «**قولوا كلمة تدين لكم بها العرب وتملكون**

---

(١) انظر: رسالة «عقيدة العرب في وثنيتهم» للعلامة المعلمي، ضمن مجموع رسائل له (ص ١٥٨).

العجم» فقالوا: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ قال ﷺ: «**لا إله إلا الله**» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

❖ ❖ ❖

ثانياً: أدلة القاعدة:

١ـ الأدلة من القرآن:

دلَّ القرآن الكريم على إقرار المشركين بربوبية الله، وقد نوّع الله ﷻ في كتابه الكريم الدلائل على ذلك بما إذا قرأه المسلم زاد تبصراً في حالهم، وفقهاً في عقيدتهم.

النوع الأول من الدلائل: ما أخبر الله عنهم أنهم إذا سئلوا عن خالقهم ورازقهم ومالكهم وغيرها من صفات الربوبية، كان جوابهم: الله. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس: ٣١].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الأوثان والأصنام ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الغيث والقطر، ويطلع لكم شمسها، ويغطش ليلها، ويخرج ضحاها؟ ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أقواتكم وغذائكم الذي ينبته لكم، وثمار أشجارها؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يقول: أم من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم التي تسمعون بها أن يزيد في قواها أو يسلبكموها فيجعلكم صماً، وأبصاركم التي تبصرون بها أن يضيئها لكم وينيرها، أو يذهب بنورها فيجعلكم عمياً لا

تبصرون؟ ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ يقول: ومن يخرج الشيء الحي من الميت، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ يقول: ويخرج الشيء الميت من الحي؟...

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وقل لهم: من يدبر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخلق؟

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ يقول جل ثناؤه: **فسوف يجيبونك بأن يقولوا: الذي يفعل ذلك كله الله**. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يقول: أفلا تخافون عقاب الله على شرككم، وادعائكم رباً غير من هذه الصفة صفته، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئاً ولا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟! ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره لخلقه: أيها الناس، فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لا شك فيه، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قصد السبيل، يقول: فإذا كان الحق هو ذا، فادعاؤكم غيره إلهاً ورباً هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يقول: فأي وجه عن الهدى والحق تصرفون، وسواهما تسلكون، **وأنتم مقرون بأن الذي تصرفون عنه هو الحق**»(١).

وقال البغوي: «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ **هو الذي يفعل هذه الأشياء**، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون عقابه في شرككم، وقيل: أفلا تتقون الشرك **مع هذا الإقرار**، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم ﴿ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: **فأين تصرفون عن عبادته وأنتم**

---

(١) جامع البيان (٧/ ١١/ ١١٣).

مقرون به»[١].

وقال النسفي: «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فسيجيبونك عند سؤالك **بأن القادر على هذه هو الله**، ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **الشرك بالعبودية إذ اعترفتم بالربوبية**»[٢].

وقال السمعاني: «وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ معناه: أفلا تتقون الشرك **مع هذا الإقرار**»[٣].

وقال الفخر الرازي: «. . . . ثم بيّن تعالى أن الرسول عليه السلام إذا سألهم عن مدبّر هذه الأحوال، فسيقولون إنه الله سبحانه وتعالى، **وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به**، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام: إنها تقربنا إلى الله زلفى، وإنهم شفعاؤنا عند الله، **وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر**، فعند ذلك قال لرسوله عليه السلام: ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني: أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية، **مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر البتة**»[٤].

وقال البقاعي: «. . . ولما قدم سبحانه أن شركاءهم مربوبون مقهورون، لا قدرة لهم إلا على ما يقدرهم الله عليه، وأنه وحده المولى الحق، وبانت فضائحهم، أتبعه ذكر الدلائل على فساد مذهبهم، **فوبخهم بأن وجه السؤال**

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٣٥٢).

(٢) تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٢/ ٢٧٩).

(٣) تفسير القرآن (٢/ ٣٨١ - دار الوطن).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٩١).

إليهم عما هم معترفون بأنه مختص به، ويدل قطعاً على تفرده بجميع الأمر الموجب من غير وقفه لاعتقاده تفرده بالإلهية.

فقال ﴿قُلْ﴾ أي: يا أكرم خلقنا وأرفقهم بالعباد ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ أي: يجلب لكم الخيرات، أيها المنكرون للبعث المدعون للشركة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالمطر وغيره من المنافع ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات وغيره لتعيشوا ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: الذي تسمعون به الآيات...

﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ التي تبصرون بها ما أنعم عليكم به في خلقها ثم حفظها في المدد الطوال على كثرة الأفات....

فلما سألهم عن أوضح ما هم فيه وأقربه، نبههم على ما قبله من بدء الخلق، فقال ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ من الحيوان والنبات ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: من النطفة ونحوها ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ أي: من النطفة ونحوها مما لا ينمو ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: فينقل من النقص إلى الكمال، ثم عم، فقال ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: **كله التدبير العام.**

ولما كانوا مقرين بالرزق وما معه من الخلق والتدبير أخبر عن جوابهم إذا سئلوا عنه بقوله ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: مسمى هذا الاسم الذي له الكمال كله بالحياة والقيومة بخلاف ما سيأتي من الإعادة والهداية.

﴿فَقُلْ﴾ أي: فتسبب عن ذلك أنا نقول لك: قل لهم مسبباً عن جوابهم هذا الإنكار عليهم في عدم التقوى ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: تجعلون وقاية بينكم وبين عقابه **على اعترافكم بتوحده في ربوبيته وإشراككم غيره في إلهيته**»[1].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ٤٣٩).

وقال النيسابوري: «قوله ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ وفيه دليل على أنهم كانوا يعبدون الأصنام بناء **على أنها شفاؤهم، وأنها تقربهم إلى الله زلفى**، ولكنهم كانوا مخطئين في هذا الاعتقاد، فلهذا ختم الآية بقوله ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **الله الذي اعترفتم بأنه سبب فيضان جميع الخيرات، فكيف أشركتم بعبادته الجمادات التي لا تقدر على نفع أو ضر**»(١).

وقال بدر الدين الزركشي: «فإن الآيات التي في يونس سيقت **للاحتجاج عليهم بما أقروا به من كونه تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم؛ بأن يُخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؛ فلما كانوا مقرين بهذا كله حَسن الاحتجاج به عليهم**؛ إذ فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، **فكيف تعبدون معه غيره!** ولهذا قال بعده: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: **هم يقرون به** ولا يجحدونه...»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦١-٦٣].

وقال أبو السعود: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: أهل مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا إلى التردد فيه ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه، أي: فكيف يصرفون عن **الإقرار بتفرده تعالى في الإلهية مع إقرارهم**

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١١/ ٧٨ - بهامس تفسير الطبري).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٩).

بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير»[١].

قال ابن جزي: «قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ في الموضعين إقامة حجة عليهم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. أي: كيف يصرفون عن الحق ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمداً لله على ظهور الحجة، ويكون المعنى إلزامهم أن يحمدوا الله **لما اعترفوا أنه خلق السموات والأرض** ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. إضراب عن كلام محذوف، تقدير: **يجب عليهم أن يعبدوا الله لما اعترفوا به**، ولكنهم لا يعقلون»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

قال ابن جرير: «. . .**فإنهم سيقولون: إن ملكوت كل شيء، والقدرة على الأشياء كلها لله**. فقل لهم يا محمد: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾. يقول: فمن أي وجه تصرفون عن التصديق بآيات الله والإقرار بأخباره وأخبار رسوله، والإيمان بأن الله القادر على كل ما يشاء، وعلى بعثكم أحياءً بعد مماتكم، **مع علمكم بما تقولون من عظيم سلطانه وقدرته**»[٣].

وقال ابن أبي زمنين: «فأمر الله نبيه أن يقول لهم ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وقال: سيقولون لله، أي: فإذا

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٧/ ٤٦).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٠٨).

(٣) جامع البيان (١٧/ ١٠٠).

قالوا ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنوا، **وأنتم تقرون أن الأرض ومن فيها لله** ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإذا قالوا ذلك فـ ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **وأنتم تقرون أن الله خالق هذه الأشياء وربها، وقد كان مشركو العرب يقرون بهذا**»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾ [لقمان: ٢٥ـ ٢٦].

قال الزمخشري: «قوله ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلزام لهم على **إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده**، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر **وأن لا يعبد معه غيره**»[٢].

– وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر: ٣٨].

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ يعني: المشركين، **كانوا يعترفون بأن الله ﷻ هو الخالق للأشياء كلهم، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً**»[٣].

– وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ٢٠٨).

(٢) الكشاف (٣/ ٤٨٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٩).

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ⁅٩⁆﴾ [الزخرف: ٩].

- وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ⁅٨٧⁆﴾ [الزخرف: ٨٧].

قال ابن كثير: «قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: هم **يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره** ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل، ولهذا قال تعالى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾»(١).

النوع الثاني من الدلائل: وصفهم بالإيمان والشرك معاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ⁅١٠٦⁆﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال الصنعاني: «أي ما يقر أكثرهم في إقراره بالله، وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادة الأوثان»(٢).

وقال أبو زكريا الفراء: «وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يقول: إذا سألتهم من خلقكم؟ قالوا: الله. أو من رزقكم؟ قالوا: الله. وهم يشركون به فيعبدون الأصنام، فذلك قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ⁅١٠٦⁆﴾»(٣).

وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: **وما يُقرُّ أكثر هؤلاء** - الذين وصف ﷻ صفتهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٤٧).

(٢) تطهير الاعتقاد (ص ٣٧).

(٣) معاني القرآن (٢/ ٥٥).

مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥] ـ **بالله، أنه خالقه ورازقه، وخالق كل شيء، إلا وهم به مشركون في عبادتهم الأوثان والأصنام**، واتخاذهم من دونه أرباباً، وزعمهم أن له ولداً، تعالى الله عما يقولون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: . . .»(١).

ثم أسند هذا القول إلى جماعة، منهم:

ابن عباس رضي الله عنهما قال: «﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال: من إيمانهم إذا قيل لهم: من خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون»(٢).

ومنهم: مجاهد، قال: «قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا. فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه»(٣).

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٣/ ٧٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ١٣/ ٧٧) قال: حدثنا ابن وكيع، ثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.. فذكره.

(٣) أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٧) قال: حدثنا الحسن بن محمد، قال: ثنا شبابة، قال: ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾: إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا. وهذا إسناد حسن؛ لأن ورقاء صدوق، لكن تابعه اثنان:

الأول: شبل بن عباد، أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٧-٧٨) قال: حدثني المثنى، قال: أخبرنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل به.

الثاني: عيسى بن ميمون الجرشي، أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٧) قال: حدثني محمد ابن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، ولفظه كلفظ ورقاء. وهذا إسناد صحيح.

ومنهم: عكرمة، قال: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال: تسألهم من خلقهم، ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله. فذلك إيمانهم، وهم يعبدون غيره»(١).

ومنهم: عامر بن شراحيل الشعبي، قوله هو وعكرمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ قالا: «يعلمون أنه ربهم، وأنه خلقهم، وهم مشركون به»(٢).

ومنهم: قتادة، قال: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في إيمانهم هذا، إنك لست تلقى أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته». وفي لفظ، قال: «لا تسأل أحداً من المشركين: من ربك؟ إلا قال: ربي الله. وهو يشرك في ذلك»(٣).

ومنهم: عطاء، في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ قال: «يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يشركون به»، وفي لفظ: «كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم، وكانوا مع ذلك يشركون»(٤).

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٧) قال: حدثنا هناد، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن عكرمة، فذكره.

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٧) قال: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عامر وعكرمة، فذكره.

(٣) أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٨) قال: ثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة باللفظ الأول. وإسناده صحيح.

وتابع سعيدا معمر، أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٨) قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة باللفظ الثاني. وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٨) قال: حدثني المثنى، قال: ثنا عمرو بن عون.

وأخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٤١١- رقم ١١٤٦) كلاهما - ابن عون وسعيد =

ومنهم: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وسيأتي قوله [١].

قلت: وبه قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ قال: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]» [٢].

وقال يحي بن سلّام: «الإيمان: تفسير الإيمان على أربعة وجوه: . . . . والوجه الرابع: الإيمان، يعني إيماناً في شرك، فذكر قوله في يوسف: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] **يعني: مشركي العرب، وإيمانهم** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، **فهذا منهم إيمان، وهم في ذلك مشركون بالله**» [٣].

وقال الزمخشري: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ في إقراره بالله، وبأنه خلقه وخلق السماوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادته الوثن. . . . .» [٤].

وقال الفخر الرازي ـ عند تفسيره للآية المذكورة ـ «فالمعنى: **أنهم كانوا مقرين بوجود الإله** بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] **إلا أنهم كانوا يثبتون لله شريكاً في المعبودية**» [٥].

= ابن منصور - قال: أخبرنا هشيم، قال: نا عبدالملك، عن عطاء، فذكره. وهذا إسناد رجاله ثقات.

(١) انظر: (ص ١٣١ - ١٣٢) من هذا الكتاب.

(٢) «تفسيره» (ص ١٤٧ - ١٤٨ - رقم: ٤٢٩).

(٣) التصاريف (١/ ١٠٩)

(٤) الكشاف (٢/ ٤٨٨).

(٥) التفسير الكبير (٩/ ١٨).

وقال أبو السعود: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ **في إقرارهم بوجوده وخالقيته،** ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره...»[١].

وقال الخازن: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، يعني: أن من إيمانهم، أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض، قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزل المطر؟ قالوا: الله، **وهم مع ذلك يعبدون الأصنام.**

وفي رواية عن ابن عباس: **إنهم يقرون أن الله خالقهم فذلك إيمانهم، وهم يعبدون غيره فذلك شركهم.** وفي رواية أخرى عنه ـ أيضاً ـ: **أنها نزلت في تلبية مشركي العرب،** وذلك أنهم كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

وقال عطاء: هذا في الدعاء، وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء»[٢].

وقال أبو يحي زكريا الأنصاري: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] إن قلت: كيف قال ذلك، مع أن الإيمان والشرك لا يجتمعان؟

قلت: معناه، **وما يؤمن أكثرهم بأن الله خالقه ورازقه وخالق كل شيء قولاً، إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً.**

أو المراد به: المنافقون، يؤمنون بألسنتهم قولاً، ويشركون بقلوبهم اعتقاداً»[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٩).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ٣٢٠).

(٣) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٣٥٤).

وقال الشربيني: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ **حيث يقرون بأنه الخالق الرازق** ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادته الأصنام، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] **لكنهم كانوا يثبتون شريكاً في العبودية**، وعن ابن عباس أن هذه الآية **نزلت في تلبية مشركي العرب**، كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، يعنون الأصنام. وعنه ـ أيضاً ـ: أن أهل مكة، قالوا: الله ربنا وحده لا شريك له، والملائكة بناته. فلم يوحدوا الله بل أشركوا.

وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شفعاؤنا عنده.

وقالت اليهود: ربنا الله وحده، وعزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده، وهؤلاء أربابنا.

وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك له»(١).

قال النسفي: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] أي: **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض**، إلا وهو مشرك في بعبادة الوثن.

والجمهور على أنها نزلت في المشركين؛ لأنهم مقرون بالله خالقهم ورازقهم، وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله، ومع ذلك يشركون به غيره»(٢).

وقال ابن جزي: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ **نزلت في كفار العرب الذين يقرون بالله ويعبدون معه غيره**، وقيل: في أهل

---

(١) السراج المنير (٢/ ١٤١).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٣٩٥).

الكتاب لقولهم: عزير ابن الله والمسيح ابن الله»[١].

وقال النيسابوري: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ **وذلك أنهم كانوا مقرين بالإله** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **لكنهم كانوا يثبتون له شريكاً في المعبودية هو الأصنام، ويقولون: هم الشفعاء.** وكان أهل مكة يقولون: الملائكة بنات الله...»[٢].

النوع الثالث من الدلائل: أنه جعل الله شهيداً بينه وبينهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال الواحدي: «أي: **الله الذي اعترفتم به خالق السماوات والأرض والظلمات والنور** يشهد لي بالنبوة.....»[٣].

قال الزجاج: «أمر الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نبوته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به يشهد له أنه رسول الله.....»[٤].

وقال الماتريدي: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ كأن في الآية إضماراً، والله أعلم، أن قل يا محمد ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، فيقولون ﴿ٱللَّهِ﴾؛ **لأنهم كانوا يقرون أنه خالق السماوات والأرض، وأنه أعظم من كل شيء، لكنهم يشركون غيره في عبادته**، ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] **وإلا كانوا يقرون بالعظمة والجلال.** فإذا سألوا ﴿قُلْ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٣٥).

(٢) غرائب القران ورغائب الفرقان (١٣/ ٥٧.بهامش تفسير الطبري ط. بولاق).

(٣) الوجيز (١/ ٣٤٧).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (٣/ ١٣).

﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ .فإنك إذا قلت لهم ذلك يقولون هم أيضاً»[١].

النوع الرابع من الدلائل: الاحتجاج عليهم بإقرارهم بالربوبية لله.

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن عباس: «قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ **للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين**، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، **وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره**، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه»[٢].

وبنحو هذا قال عكرمة وقتادة.

قال ابن جرير رحمه الله ـ بعد رواية قول مجاهد في الآية: إنه إله واحد في التوراة والإنجيل ـ: «وأحسب أن الذي دعا مجاهداً إلى هذا التأويل،

---

(١) تأويلات أهل السنة (٢/ ١٠٢).

(٢) أخرجه ابن إسحاق - كما في تفسير ابن كثير (١/ ٥٤)، ومن طريقه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٨٢، رقم ٢٣٢) - قال: حدثني محمد بن أبي مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال السيوطي - عن هذه الطريق -: «وهي طريق جيدة، وإسنادها حسن، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وفي «معجم الطبراني الكبير» منها أشياء». الاتقان (٢/ ٤١٦).

وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم: الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها وإشراكها معه في العبادة غيره[1]، وإن ذلك لقول، **ولكن الله جل ثناؤه، قد أخبر في كتابه عنها: أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها**، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]. فالذي هو أولى بتأويل قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين**، ولم يكن في الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه، عنى بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أحد الحزبين، بل مخرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم؛ لأنه تحدى الناس كلهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة، من أنه يعني بذلك: كل مكلف عالم بوحدانية الله، وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره، كائناً من كان من الناس، عربياً كان أو أعجمياً، كاتباً أو أمياً، وإن كان الخطاب لكفار أهل الكتاب الذين كانوا حوالي دار هجرة رسول الله ﷺ، وأهل النفاق منهم وممن بين

---

(١) ما ذكره ابن جرير عن مجاهد فيه نظر؛ وذلك أنه قد ثبت عنه - في غير هذا الموضع - ما يدل على أنه يرى إقرار العرب لله بالربوبية، وعليه فيكون قوله هنا من باب التمثيل وليس الحصر، أو أنه يرى أن الخطاب في الآية خاصة لأهل الكتابين، وعلى كل الأمرين فلا يلزم منه أن مجاهداً ينفي عن العرب الإقرار بربوبيته تعالى، والله أعلم.

ظهرانيهم ممن كان مشركاً، فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ»[١].

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: «**هذا احتجاج عليهم لإقرارهم بأن الله خالقهم**، فقيل لهم: لا تجعلوا لله أمثالاً **وأنتم تعلمون أنهم لا يَخْلُقون والله الخالق**، وفي اللغة فلان ندُّ فلانٍ، ونَدِيدُ فلانٍ.

قال جرير:

أتيماً تجعلون إليَّ نِدًّا وما تيمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيد

فهذه الآية والتي قبلها احتجاج عليهم في تثبيت توحيد الله ﷻ»[٢].

وقال أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي الغرناطي المالكي عند الآية المذكورة ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: «معناه: وحدوه وخصوه بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته، **إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم**»[٣].

وقال النسفي: «احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم؛ **لأنهم كانوا مقرين بذلك**، فقيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا الأصنام»[٤].

وقال السمعاني: «قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: وحِّدوا الله

---

(١) جامع البيان (١/ ١/ ١٦٤).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (١/ ٩٩).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ١٤١).

(٤) تفسير النسفي (١/ ٢٧).

الذي خلقكم، وإنما خاطبهم به؛ **لأن الكفار مقرون أن الله خالقهم..**»[(١)].

وقال الشربيني: «﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ... والجملة أخرجت مخرج المقرر عندهم، **إما لاعترافهم به** كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: ٣٨] أو لتمكنهم من العلم به بأدنى نظر...».

إلى أن قال: «فإن قيل: لم سمي ما يعبده المشركون من دون الله أنداداً، **مع أنهم ما زعموا أنها تساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله؟**

أجيب: بأنهم لمّا تركوا عبادته إلى عبادتها وسموها آلهة، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات، قادرة على أنها تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير، فتهكم الله تعالى بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً لمن يمتنع أن يكون له ند»[(٢)].

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «فإن قال قائل: وكيف احتج على أهل الكفر بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، في توحيد الله، وقد علمت أن أصنافاً من أصناف الكفرة تدفع أن تكون السموات والأرض وسائر ما ذكر في هذه الآية مخلوقة؟

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦).

(٢) السراج المنير (١/ ٣٢ - ٣٣).

قيل: إن إنكار من أنكر ذلك غير دافع أن يكون جميع ما ذكر - تعالى ذكره - في هذه الآية دليلاً على خالقه وصانعه، وأن له مدبراً لا يُشبِهُه، وبارئاً لا مِثْلَ له، وذلك وإن كان كذلك، **فإن الله إنما حاجَّ بذلك قوماً كانوا مقرين بأن الله خالقهم، غير أنهم يشركون في عبادته عبادة الأصنام والأوثان فحاجهم** - تعالى ذكره -...»[1] إلى آخر كلامه.

النوع الخامس من الدلائل: الآيات التي جاء فيها مخاطبة الكفار في شأن خالق الخلق ونحوه تأتي باستفهام التقرير.

كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال الماتريدي: «وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: في ألوهية الله شك؟ أفي عبادة الله شك؟

أي ليس في ألوهيته ولا في عبادته شك .**تقرون أنتم أنه إله، وأنه معبود، وكذلك أقر آباؤكم أنه إله، وأنه معبود**، فليس في ألوهيته ولا في عبادته شك، إنما كان الشك في عبادة من تعبدون دونه من الأوثان والأصنام وألوهيتها، **لأن آباءكم أقروا بألوهية الله، وأنه معبود حين قالوا**: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] **وأقروا أنه خالق السماوات والأرض، فاطر جميع ما فيها** بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] **وأن الأصنام التي عبدوها لم تخلق شيئاً**، فليس في الله شك عندكم، إنما الشك في ما تعبدون دونه لا في وحدانية الله.

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢/ ٦٥).

أو يقول: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ إنه لم يزل معبوداً، أي: ليس في الله شك أنه لم يزل معبوداً، إنما الشك في الأصنام التي قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فأما في الله فلا شك أنه لم يزل معبوداً»[١].

وقال ابن أبي زمنين: «﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ أي: قالت لهم رسلهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما، أي: أنه ليس فيه شك، **وأنتم تقرون أنه خلق السماوات والأرض، فكيف تعبدون غيره**»[٢].

- وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

قال ابن عطية: «ثم كرر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم، فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك له فيها، وهي الخلق والرزق والإماتة والإحياء، **ولا يمكن أن ينكر ذلك عاقل، ووقف الكفار على جهة التقرير والتوبيخ**. (هل من شركائهم) أي: الذين جعلوهم شركاء من يفعل شيئاً من ذلك»[٣].

- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣].

قال ابن أبي زمنين: «يقوله للمشركين **يحتج به عليهم**، وهو استفهام؛ أي: لا خالق ولا رازق غيره، **وأنتم تقرون بذلك** وتعبدون من دونه الآلهة!»[٤].

---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ١١).

(٢) تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٣٦٣).

(٣) المحرر الوجيز (١٢/ ٢٦٤).

(٤) تفسير ابن أبي زمنين (٤/ ٢٤).

قال جلال الدين المحلي: «والاستفهام للتقرير، أي: لا خالق رازق غيره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من أين تصرفون عن توحيده **مع إقراركم بأنه الخالق الرازق**»(١).

وقال الزجاج: «أي: من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث، **وأنتم مقرون بأن الله خلقكم ورزقكم**»(٢).

وقال السمرقندي: «ولفظ الآية لفظ الاستفهام، والمراد به النفي، **يعني: أنتم تعلمون أنه لا يخلق سواه ولا يرزقكم سواه.**

ثم وحّد نفسه، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفعل بكم ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين تكذبون **وأنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه** ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما كذبك قومك، وهذا تعزية يعزي بها نبيه ليصبر على أذاهم»(٣).

ـ وقوله ﷻ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١].

قال الماتريدي: «وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ يقول: ما ذكر من خلق السماوات والأرض وما بث من الدواب وما أنبت ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يذكر سَفَهَهم، يقول: **إنكم تعلمون أن ما ذكر من السماوات والأرض وجميع ما فيهما، هو كله**

---

(١) الجلالين (ص ٨٨٥).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٣٨).

(٣) بحر العلوم (٣/ ٩٣).

خلق الله، وأنه هو خالق ذلك كله، وأن الأصنام التي تعبدونها من دونه لم تخلق شيئاً من ذلك ولا تملك خلق شيء، فكيف تعبدونها من دونه؟ وسميتوها آلهة؟

وصرفتم العبادة والألوهية عن الذي هو خالقكم وخالق السماوات والأرض وما فيهما؟ وإنما استحق الألوهية والربوبية لِخَلْقه ما ذكر لا الأصنام. فإذا لم يكن منها خلق، فكيف سميتموها آلهة، وعبدتموها دون الله؟

هذا، والله أعلم، تأويل قوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: لم يخلق. يُخبر عن سفههم في القول والفعل، والله أعلم»(١).

قال العلامة حسين بن مهدي النُّعمي التهامي ثم الصنعاني: «والاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] - **يؤتى بمثله للتقرير على المخاطب بما يعلمه وهو أمر ثابت عنده**»(٢).

وقال السويدي البغدادي: «**وكانوا - أيضاً - يفردون الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق، وملك السموات والأرض، وبملك السمع والأبصار، وأنه يجير** - أي: يغيث - من يشاء، **ولا يجار عليه** - أي: لا يمنع منه - **إلى غير ذلك مما أخبر سبحانه عنهم** بقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧] وقوله

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٦٥).

(٢) معارج الألباب في منهاج الحق والصواب (ص ٢٢٧)، وانظر: الدر النضيد (ص ٣١).

عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١] وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦١] أي: أءله مع الله فعل ذلك؟!

وهذا استفهام إنكار، **وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله سبحانه.**

ومن قال من المفسرين: هل مع الله إله آخر؟ فقد وهم؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما دلت على ذلك آيات كثيرة، منها: قوله تعالى ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: بما تشهدون.

وقوله عز من قائل ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى عنهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] **ولما كان المشركون معترفين بأن الله تعالى هو الرب الواحد، خالق كل شيء، فاعل هذه الأمور الجسام، المعد للرغبات والرهبات العظام،** وذلك بنقل الله تعالى عنهم معتقدهم في آيات كثيرة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾»(١).

النوع السادس من الدلائل: الآيات التي فيها دعوة الرسل لأممهم

---

(١) العقد الثمين (ص ٢٧٣ - ٢٧٦ ط. دار ابن حزم).

جاءت بالدعوة إلى العبادة، لا للتعريف بالخالق للعالَم.

كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني: «أي قائلين لأممهم: أن اعبدوا الله. فأفاد بقوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم، وأنه رب السموات والأرض، **فإنهم مقرون بهذا**»(١).

ومن تأمل القرآن وجد ذلك ظاهراً

- قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

- وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

- وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

قال الماتريدي: «ذكرنا أن الرسل بأجمعهم - صلوات الله عليهم -، إنما بعثوا ليدعوا الخلق إلى وحدانية الله والعبادة له، إذ لا معبود سواه، يستحق العبادة من الخلق»(٢).

---

(١) تطهير الاعتقاد (ص ٧).

(٢) تأويلات أهل السنة (٢/ ٢٥٣).

ـ وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير آية الأنبياء: «يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم، إلا نوحي إليه: أنه لا معبود في السموات والأرض تصلح العبادة له سواي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، يقول: فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهية»(١).

ويكفينا لإقامة الحجة على المنكِر، قول إمام المتكلمين أبي الفتح الشهرستاني في كتابه «نهاية الإقدام»، قال: «**وأما تعطيل العالم عن الصانع القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد، ولا أعرف عليه صاحب مقالة،** إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية...، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع، **بل هو معترف بالصانع.**

فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها، وبديهية فكرتها على صانع حكيم عالم قدير.

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء، فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد

---

(١) جامع البيان (١٠/ ١٧/ ١٥).

ونفي الشريك «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله».

ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في: التوحيد.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾ الآية [غافر: ١٢]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ﴾ [الزمر: ٤٥]، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]»[١].

وسيأتي هذا المعنى في كلام الغزالي.

النوع السابع من الدلائل: آيات تدل على أنهم يعتقدون أنهم مُصَرَّفون بيد الله، ليست لهم مشيئة ولا اختيار.

كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [النحل: ٣٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠].

النوع الثامن من الدلائل: ما جاء من الآيات الدالة على إسنادهم التحليل والتحريم إلى الله تعالى.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

- وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ

---

(١) نهاية الإقدام (ص ١٢٣- ١٢٦).

عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩-١٤٠].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

النوع التاسع من الدلائل: ما ذكر الله من إسلام من في السموات والأرض طوعا وكرها.

- قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

«اختلف أهل التأويل في معنى إسلام الكاره الإسلام وصفته، فقال بعضهم: **إسلامه إقراره بأن الله خالقه وربه، وإن أشرك معه في العبادة غيره**»(١).

قال مجاهد: «﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ »(٢).

وقال أبو العالية ـ في تفسير الآية المذكورة ـ: «كل آدمي قد أقرَّ على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده، فمن أشرك في عبادته، فهذا الذي أسلم كرها،

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٣/ ٣/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ٣/ ٣٣٦) قال: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد.. فذكره.

وأخرجه أيضا قال: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان به. وإسناده صحيح.

ومن أخلص له العبودية، فهذا الذي أسلم طوعا»(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

قال ابن جرير: «ولله من في السموات من ملَكٍ وجنٍ وإنس، عَبيدٍ ومُلْكٍ. ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: كل له مطيعون، فيقول قائل: وكيف قيل: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ وقد علم أن أكثر الإنس والجن له عاصون؟

فنقول: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك...» فذكر اختلافهم إلى أن قال: «وقال آخرون: **بل معنى ذلك: كل له قانتون بإقرارهم بأنه ربهم وخالقهم.**

ذكر من قال ذلك:

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ٣/ ٣٣٦) قال: حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، عن أبي العالية.. فذكره.
وقد تابع ابن أبي جعفر: محمد بن سعيد بن سابق، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٧٧ - رقم ٨٩٩) قال: حدثنا كثير بن شهاب، ثنا محمد - يعني ابن سعيد بن سابق - .. به.
قلت: كثير بن شهاب المذحجي، قال أبو حاتم: صدوق. (الجرح والتعديل ٧/ ١٥٣).
ومحمد بن سعيد ثقة. وأبو جعفر هو عيسى بن أبي عيسى ماهان، وثقه ابن معين وابن المديني وابن عمار وأبو حاتم وابن سعد والحاكم وابن عبد البر. وتكلم فيه آخرون، والخلاصة أن حديثه على قسمين: الأول: الأصل فيه أنه صدوق سيء الحفظ.
والثاني: ما رواه عن المغيرة يخلط فيه ويغلط. نص على ذلك ابن المديني وابن معين.
وكذا تكلم في روايته عن الربيع بن أنس، قال ابن حبان في «الثقات» في ترجمة الربيع: الناس يتقون من حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن في أحاديثه عنه اضطرابا كثيرا. قلت: لعله لا يقصد النسخة المشهورة، والله أعلم.
والربيع بن أنس، قال أبو حاتم وأبو زرعة: ثقة صدوق.

حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: مطيع مُقرٌّ بأن الله ربه وخالقه»[١].

وقال العمراني ـ في بيان معنى الإسلام في الشرع ـ: «الوجه الثاني: المراد به الإقرار، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] يعني: أقر بالعبودية، وقوله تعالى ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: من الملائكة، وقوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: المؤمنين ﴿طَوْعًا﴾ ثم قال ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني: **أهل الأديان، يعلمون أن الله خلقهم**؛ لأن الله قال ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]»[٢].

❖ ❖ ❖

٢ ـ الأدلة من السنة.

الحديث الأول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر، الله أكبر. فقال رسول الله ﷺ: «**على الفطرة**». ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «**خرجت من النار**». فنظروا فإذا هو راعي معزى[٣].

«فقول رسول الله ﷺ لمن قال: الله أكبر: «على الفطرة» أفاد فائدة،

---

(١) جامع البيان (١١/ ٢١/ ٣٥).

(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٣/ ٧٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٢٨٨ رقم ٣٨٢).

وهي أن هذا القول وما يدل عليه من توحيد الربوبية، هو في الفطر مستقر، ولذا لم يحكم بنجاته من النار وإسلامه إلا بقوله أشهد أن لا إله إلا الله، شهادة متضمنة نفي كل معبود سوى الله، وهو توحيد الألوهية، و دلالة هذا ظاهرة»[١].

الحديث الثاني:

رواه مسلم من طريق إبراهيم بن ميسرة، عن عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «**هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلت شَيْءٌ؟**». قلت: نَعَمْ. قال: «**هِيهْ**» فأنْشَدتُهُ بَيْتاً، فقال: «**هِيْه**» ثم أنْشَدْتُهُ بَيْتاً، فقال: «**هِيْه**». حتى أنشدْتُهُ مِائَةَ بيتٍ[٢].

وأخرجه ـ أيضاً ـ من طريقين عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عمرو بن الشريد عن أبيه مثله، وزاد: «**إنْ كَادَ لَيُسْلِمُ**». وفي لفظ، قال: «**فَلَقَدْ كَادَ يُسْلِمُ في شِعرِهِ**».

قال النووي: «ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسن شعر أمية واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث»[٣].

ومن ذلك: ما ألقته أخته الفارعة على رسول الله ﷺ، قوله من قصيدة:

يوقف الناس للحساب جميعاً … فشقي معذب وسعيد

ومنه من قصيدة:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا … ولا شيء أعلى منك جداً وأمجد

مليك على عرش السماء مهيمن … لعزته تعنو الوجوه وتسجد

---

(١) هذه مفاهيمنا (ص ١١٣).

(٢) (٤/ ١٧٦٧- رقم: ٢٢٥٥).

(٣) شرح مسلم (١٥/ ١٢).

ومنه من قصيدة:

يوم يأتي الرحمن وهو رحيم إنه كان وعده مأتيا
أن أواخذ بما اجترمت فإني سوف ألقى من العذاب قويا
رب أن تعف فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب بريا[(١)]

قلت: فمن تأمل قول النبي ﷺ في أمية «**إن كاد ليسلم**» وعلم ما اشتملت عليه قصائده من الإقرار بوحدانية الله، والإيمان بالبعث والحساب، والملائكة والعرش والصفات، ظهر له فائدتان:

الأولى: أن النبي ﷺ «لم يحكم له بالإسلام بمجرد توحيده رب الخليقة بالخلق والإحياء والإماتة ونحو ذلك».

الثانية: أن أمية لم يقبل دعوة النبي ﷺ، ورفض كلمة التوحيد، مما يدل على أن هؤلاء الفصحاء أهل اللسان العربي فهموا من كلمة التوحيد أمراً زائداً على الربوبية، وهو ترك عبادة ما زعموا أنه يقربهم من الله ويكون لهم شفيعاً عنده.

الحديث الثالث:

أخرج مسلم في «صحيحه» قال: حدثني عباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا النضر بن محمد اليمامي، حدثنا عكرمة (يعني ابن عمار)، حدثنا أبو زُمَيْل، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك. قال: فيقول رسول الله ﷺ: «ويلكم ! قَدْ قَدْ» فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[(٢)].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٣٧٦).
(٢) (٢/ ٨٤٣).

وقد كان العرب على تلبية إبراهيم، فعن أنس ﷺ، قال: كان الناس بعد إسماعيل ـ عليه السلام ـ على الإسلام، فكان الشيطان يحدث الناس بالشيء يريد أن يردهم عن الإسلام حتى أدخل عليهم في التلبية: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. قال فما زال حتى أخرجهم عن الإسلام إلى الشرك[١].

قيل: وأول من أدخل عليهم التلبية الشركية عمرو بن لحي تلقاها من الشيطان فأذاعها في العرب، قال السهيلي: «بينما هو ـ عمرو بن لحي ـ يلبي تمثل الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال عمرو: لبيك لا شريك لك، فقال الشيخ: إلا شريكاً هو لك، فأنكر ذلك عمرو، وقال: ما هذا؟! فقال الشيخ: قل: تملكه وما ملك، فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو فدانت بها العرب»[٢].

فتأمل استنكار ابن لحي قول الشيطان «إلا شريكاً هولك» ثم قبوله بعد إضافة قوله «تملكه وما ملك».

وقولهم: (وما ملك) يحتمل أحد وجهين:

الأول: أن تكون نافية، فالمعنى: أنهم يعترفون بأن الله تعالى هو المالك، وأن آلهتهم لا تملك شيئاً.

---

(١) أخرجه البزار - كما في كشف الأستار (٢/ ١٥) - قال: حدثنا أبو كامل وهلال بن يحيى، ثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس به، فذكره.
قال البزار: لا نعلم أحداً حدَّث به إلا أبو عوانه هكذا.
وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد ٣/ ٢٢٣).

(٢) الروض الأنف (١/ ١٠٢).

الثاني: أن تكون موصولة، فيكون المعنى: أن الله تعالى مالك آلهتهم، ومالك ما تملك آلهتهم[(١)].

وممن اختار الثاني ابن منظور، قال: «وفي حديث تلبية الجاهلية: (لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)، يعنون بالشريك الصنم، يريدون: **أن الصنم وما يملكه ويختص به** من الآلآت التي تكون عنده وحوله، **والنذور التي كانوا يتقربون بها إليه، كلها ملك لله عز وجل**، فذلك معنى قوله: تملكه وما ملك.

قال محمد بن المكرم: اللهم إنا نسألك صحة التوحيد والإخلاص في الإيمان، **انظر إلى هؤلاء لم ينفعهم طوافهم ولا تلبيتهم، ولا قولهم عن الصنم هو لك، ولا قولهم تملكه وما ملك** مع تسميتهم الصنم شريكاً بل حبط عملهم بهذه التسمية، **ولم يصح لهم التوحيد مع الاستثناء، ولا نفعتهم معذرتهم بقولهم: إلا ليقربونا إلى الله زلفى**»[(٢)].

الحديث الرابع:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فَأَنَاخَهُ في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ والنبي ﷺ مُتَّكِئٌ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب. فقال له النبي ﷺ: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**» فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. فقال: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله

---

(١) انظر: جهود علماء الحنفية (١/ ٢١٤).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٤٥٠- مادة شرك).

أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نُصَلِّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**» فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر[(١)].

فقوله: (أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟) واضح في إيمانه بالرب. وفي لفظ مسلم: يا محمد ! أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال: «**صَدَقَ**» قال: فمن خلق السماء ؟ قال: «**الله**» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «**الله**» قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال «**الله**».

فجعل الإقرار لله بالخالقية مقدمة مسلمة يتفق عليها السائل والمسؤول، ولذا قال ـ عقب ذلك ـ: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال: «**نعم**»[(٢)] . . . الحديث.

الحديث الخامس:

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي: «يا حصين! كَمْ تَعْبُدُ اليومَ إِلَهاً؟» قال أبي: سَبْعَةً سِتَّةً في الأرض وَوَاحداً في السماء. قال: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ» قال: الذي في السماء.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم (ح٦٣) ومسلم في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (ح ١٢).

(٢) (١/ ٤١ . ط عبد الباقي).

قال: «يا حُصَيْنُ! أما إنك لو أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ». قال: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ، قال: يا رسول الله! عَلِّمْنِيَ الكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وعَدْتَنِي، فقال: «قل: اللَّهُمَّ الْهِمْنِي رُشْدِي و اعِذْني من شَرِّ نَفْسِي»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في (جامعه) كتاب الدعوات (ح ٣٤٨٣) وفي (العلل الكبير) برقم (٦٧٧)، والدارمي في (النقض على المريسي) (ص ١٩)، برقم ٣٤ والذهبي في (العلو للعلي العظيم) (١/ ٣١٥) برقم (٣٢)، بإسناده إلى عبدالله بن محمد البغوي ثلاثتهم - أعني الترمذي والدارمي والبغوي - عن أحمد بن منيع البغوي، حدثنا أبو معاوية عن شبيب بن شيبة عن الحسن البصري عن عمران بن حصين فذكره.

وتابع ابن منيع اثنان:

١ - أبو الربيع الزهراني.

أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) (٤/ ٣٢٣)، برقم (٢٣٥٥)، والطبراني في (المعجم الكبير)، (١٨/ ١٧٤)، برقم (٣٩٦)، وأبو القاسم الأصبهاني في (الحجة في بيان المحجة) (٢/ ١١١)، برقم (٦٤)، وقد وقع في (الحجة): أبو عوانة. وأظنه تصحف من (أبو معاوية)، والله أعلم.

٢ - سهل.

أخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات) باب قول الله عز وجل ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (ص ٥٣٤)، قال: وأخبرنا أحمد بن علي بن عبدان، (أنا) أحمد بن عبيد، (ثنا) الحسن بن المتوكل، (ثنا) سهل .. به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه.

قلت: شبيب ضعيف، وقد خالفه جويرية بن بشير فرواه عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

أخرجه أبو القاسم الأصبهاني (٢/ ٩٨)، برقم (٥٤)، قال: أخبرنا أبو نصر =

فقد أقر بوجود إله في السماء يقر به - قبل إسلامه -، ويؤمن بعظمته على آلهته التي في الأرض، ولذا يلجأ إليه عند رغبته ورهبته، وهو ما ذكره الله عنهم في كتابه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

قال عثمان بن سعيد الدارمي: «فحصين الخزاعي في كفره يومئذ كان أعلم بالله الجليل الأجل من المريسي وأصحابه مع ما ينتحلون من الإسلام، إذ ميز بين الإله الخالق الذي في السماء، وبين الآلهة والأصنام المخلوقة

= الشاذياخي، (أنا) أبو عبدالله الشاذياخي، (أنا) أبو بكر الجوزقي، (نا) أبو العباس الدغولي، (نا) ابن أبي خيثمة، (نا) موسى بن إسماعيل، عن جويرية... به. وذكر (عشرة آلهة).

قال الترمذي: سألت محمداً -يعني البخاري- عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث أبي معاوية، قال محمد: وروى موسى بن إسماعيل هذا الحديث عن جويريه بن بشير عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. قال أبو عيسى: وحديث الحسن عن عمران بن حصين في هذا أشبه عندي وأصح. ا.هـ.

قلت: ظاهر جواب البخاري ترجيح المرسل، أما تلميذه الترمذي فنص كلامه ترجيح الموصول.

وأخرجه ابن خزيمة في (التوحيد وإثبات صفات الرب) برقم (١٦٤، ط. دار الآثار) قال: حدثنا رجاء بن محمد العذري، قال: حدثنا عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين، قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحصين... فذكره بمعناه.

وهذا ضعيف جداً؛ لحال عمران بن خالد.

قلت: احتج به البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) برقم (١٠٧).

التي في الأرض»[١].

❖ ❖ ❖

٣ ـ الأدلة من أشعار العرب.

جاء في أشعار العرب ما يدل على إيمانهم بالرب الخالق المدبر المتصرف في هذا الكون، فمن ذلك:

قول امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي وأوصالي[٢]

وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل
أرى الناس لا يدرون ما قدْرُ أمرِهم ... بلى كلُّ ذي لب إلى الله واسِلُ
أحمدُ الله فلا ند له ... بيده الخير فما شاء فعل

وقال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال حاتم:

كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا ... فإن على الرحمن رزقكم غدا
أمَا والذي لا يعلم الغيب غيره ... ويحيي العظام البيض وهي رميم

وقال:

سقى الله رب الناس سحا وديمة ... جنوب السراة من مآب إلى زعر

---

(١) النقض على المريسي (ص ٦٢).

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير (٨/ ١٣/ ٤٢).

وقال عنترة:

يـا عبـل أين من المنيــة مهـرب   إن كـان ربي في السماء قضـاهـا

وقال عبد المطلب:

اللهم أنـت الـملكُ المحمـــودْ   ربـي أنـت الـمـبـدئُ الـمـعـيـدْ

ومـمـسـك الـراسيـةِ الـجُـلْـمـودْ   مـن عنـــدك الطـارفُ والتَّلِيـــدْ

وقال أيضاً:

يـريـش الله في الـدنيـا ويَبـــْرِي   ولا يـبـري يـعـوق ولا يـريـش(١)

وقال:

فلـولا دفـــاع الله لا شيء غيـــره   لأصبحتمو لا تمنعون لكم سِربا

فهذه الأشعار تدل على أنهم يعتقدون بأن الله خالق رازق متصرف بيده كل شيء، وأنه عالم الغيب وأنه يحي العظام وهي رميم، وأنه لا ند له فما شاء فعل.

❖ ❖ ❖

ثالثاً: العلماء الذين نصوا على القاعدة:

١- الصحابي الجليل حبر الأمة السيد عبد الله بن عباس الهاشمي رضي الله عنهما.

قال في - تفسير قوله تعالى: ﴿تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] -: «**وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره**، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (ص ٩٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٣٩).

وقد تقدم [١].

٢- الإمام المفسر المقرئ الحافظ أبو العالية الرياحي رفيع بن مهران البصري (ت ٩٣).

قال: «**كل آدمي قد أقرَّ على نفسه: بأن الله ربي وأنا عبده. فمن أشرك في عبادته، فهذا الذي أسلم كرها**، ومن أخلص له العبودية، فهذا الذي أسلم طوعا».

وقد تقدم [٢].

٣ـ الإمام شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٢).

وقد تقدم كلامه [٣].

وقال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ـ: «هي المساكن والأنعام، وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، **تعرف هذا كفار قريش**، ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا، فروِّحونا إياه» [٤].

---

(١) انظر: (ص/ ٢٤) من هذا الكتاب، وانظر - أيضاً -: (ص/ ١٨).

(٢) انظر: (ص/ ٣٦ - ٣٧) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص/ ١٨، ٣٦) من هذا الكتاب.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٥.ط. التركي) من عدة طرق عن ورقاء بن عمر اليشكري عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد.
وتابع ابنَ أبي نجيح ابنُ جريج.
أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٦)، قال: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، =

وقال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل: ٥٦] ـ: **يعلمون أن الله خلقهم، ويضرهم وينفعهم**، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم، نصيباً مما رزقناهم»[١].

٤ ـ الإمام علامة عصره أبو عمرو عامر بن شراحيل الهمداني ثم الشعبي(ت ١٠٤هـ) وقيل بعدها.

وقد تقدم كلامه [٢].

٥ ـ العلّامة الحافظ المفسِّر أبو عبد الله عكرمة القرشي مولاهم البربري الأصل (ت١٠٤هـ).

تقدم كلامه [٣].

وقال ـ أيضا ـ: «. . . . فنهاهم الله أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: **كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقي الذي أرزقكم وملكي إياكم**، ونعمتي التي أنعمتها عليكم = **فكذلك فأفردوا لي الطاعة وأخلصوا لي العبادة**، ولا تجعلوا لي شريكاً ونداً من خلقي، **فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم مني**»[٤].

= قال: ثني حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد بنحوه، إلا أنه قال: فورثونا إياه.

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١٤/ ٢٥٣ ـط التركي)، قال: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد.

(٢) انظر: (ص ١٩) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ١٩) من هذا الكتاب.

(٤) وسيأتي النص كاملاً. انظر (ص ١٣٣) من هذا الكتاب.

٦ـ حافظ العصر وقدوة المفسرين والمحدثين قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ).

قال: «لا تسأل أحدا من المشركين: من ربك؟ إلا قال: **ربي الله. وهو يشرك في ذلك**».

وفي لفظ: «إنك لست تلقى أحدا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، **وهو الذي خلقه ورزقه. وهو مشرك في عبادته**»[١].

وسيأتي قوله: «كانت العرب تثبت القدر في الجاهلية»[٢].

٧ ـ القارئ الثقة عبد الله بن كثير الدَّاري المكي (ت ١٢٠هـ):

قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ـ: «**يعلمون أن الله خلقهم وأعطاهم ما أعطاهم، فهو معرفتهم نعمته**، ثم إنكارهم إياها كفرهم بعد»[٣].

٨ ـ المفسر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢).

وسيأتي كلامه في القاعدة الثانية[٤].

٩ ـ الإمام العلامة أبو زكريا يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة البصري (ت ٢٠٠هـ).

---

(١) انظر: (ص/ ١٩) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص/ ٥١) من هذا الكتاب.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٦- ط. التركي) قال: حدثنا القاسم، قال: ثنا حسين، قال: ثني حجاج عن ابن جريج، قال: قال عبد الله بن كثير.

(٤) انظر: (ص ١٣١ - ١٣٢) من هذا الكتاب.

تقدم قوله [١].

١٠ ـ العلامة صاحب التصانيف أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ).

تقدم كلامه[٢].

١١ـ أمير المؤمنين في الحديث الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ).

قال - رحمه الله -: «وقال همام عن قتادة: كانت العرب تثبت القدر في الجاهلية»[٣].

١٢- العلامة الكبير والمصنف الشهير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).

قال: «ومن الإيمان: تصديق ببعض وتكذيب ببعض، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] **يعني: مشركي العرب، إن سألتهم من خلقهم؟ قالوا: الله. وهم مع ذلك يجعلون له شركاء.**

وأما أهل الكتاب: يؤمنون ببعض الرسل والكتب، ويكفرون ببعض، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] يعني: بعض الرسل والكتب، إذ لم يؤمنوا بهم كلهم»[٤].

وقال ـ أيضا ـ: «**فلستَ واجداً أحداً إلا وهو مقرٌّ بأن له صانعاً ومدبراً**،

---

(١) انظر: (ص ٢٠) من هذا الكتاب.

(٢) تقدم كلامه. انظر: (ص ١٧) من هذا الكتاب. وانظر: (ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(٣) خلق أفعال العباد (ص ٩٩) فقرة رقم (٣١٣).

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص/ ٤٨١).

وإن سماه بغير اسمه، **أو عبد شيئاً دونه ليقربه منه عند نفسه**، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]»[١].

١٣ ـ الإمام الحافظ عثمان بن سعيد التميمي الدارمي السجستاني (ت ٢٨٠ هـ).

تقدم كلامه[٢].

١٤ - إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين...»[٣].

وقد تقدم كلامه في أكثر من موضع.

١٥ـ الإمام نحويُّ زمانه أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ).

وقد تقدم كلامه رحمه الله [٤].

وقال ـ رحمه الله ـ: «قوله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] معناه: أن الله احتج على العرب بأنه خالقهم وخالق من قَبْلِهم؛ **لأنهم كانوا مقرين بذلك، والدليل على ذلك قوله**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ قيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه

---

(١) مختلف الحديث (ص/ ٩٥).

(٢) انظر: (ص ٤٥) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٢٤ - ٢٥) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٢٦) من هذا الكتاب.

خالقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام»[١].

وقال ـ أيضا ـ: «ثم أعلم ـ مَعَ عِبَادَتِهِم العُزَّى والأَوْثَان ـ **أنهم مُقرِّون بأن الله خالقهم**، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٨].. إلى قوله: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ »[٢].

١٦ـ العلامة إمام المتكلمين أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٢٦هـ).

وسيأتي كلامه [٣].

١٧ - إمام المتكلمين أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي (ت ٣٣٣ هـ).

وقد تقدم كلامه[٤].

١٨ - المؤرخ قطب الدين أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي المعتزلي الشيعي (ت ٣٤٦ هـ).

قال: «كانت العرب في جاهليتها فرقاً:

منهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور، موقناً بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي.......

وكان من العرب من أقر بالخالق، وأثبت حدوث العالم، وأقر بالبعث

---

(١) معاني القران وإعرابه (١/ ٩٧).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٥٥).

(٣) انظر: (ص ١٨٦) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٢٣، ٢٨، ٣٠).

والإعادة، وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الأصنام، **وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم**: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] الآية.

وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها، ونحروا لها البدن، ونسكوا لها النسائك، وأحلوا لها وحرموا.

ومنهم من أقر بالخالق، وكذَّب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم، وخبَّرَ عن كفرهم، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤] فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية.

ومنهم المار على عنجهيته، الراكب (لهمجيته).

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة، ويزعمون أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها **لتشفع لهم إلى الله**، وهم الذين أخبر الله - عز وجل - عنهم؛ بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢٢]»[(١)].

١٩ـ الشيخ أبو محمد بن عبد الله البصري المالكي الصوفي (ت ٣٤٧هـ).

قال في كتابه (أصول السنة والتوحيد): «فصل في الخلق على الفطرة. قال: وخلق الله الخلق على الفطرة، وهو قوله سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠] **وهي الإقرار له بالربوبية مع معرفة الوحدانية**، وذلك أنه سبحانه خلق الخلق على علم منه بهم، مشاهد لما يؤول أمرهم وعواقبهم إليه، فخلقهم على ما علم منهم وشاء غير مؤمنين ولا كافرين

---

(١) مروج الذهب (٢/ ١٢٦ - ١٢٧).

صبغة، **بل مقرين عارفين**، لا موحدين ولا جاحدين....»[١].

٢٠ـ المؤرخ مطهر بن طاهر المقدسي (توفي بعد ٣٥٥ هـ).

قال: «ومن الدليل على إثبات البارئ - جل وعز - أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم في أقطار الأرض وأفاقها إلا وهم يسمّونه بخواص من أسمائه عندهم، ومستحيل وجود اسم لا مسمّى له كاستحالة وجود دليل على غير مدلول عليه، بل المدلول موجب لدليل، كذلك المسمّى موجب الاسم، وما هو في التمثيل إلا بمنزلة الحامل والعرض المحمول، فكما يستحيل وجود عرض إلا في جوهر، كذلك يستحيل وجود اسم إلا لمسمًّى.

فمن ذلك: **قول العرب له (الله) مفرداً من غير أن يشاركوه في هذا الاسم بأحد من معبوداتهم؛ لأنه خاص لهم عندهم**، وكانوا يُطلقون على غيره على التنكير، **وأما (الرب) بالتعريف**، و(الرحمن) **فلم يكونوا يجيزونه إلا لله تعالى**، وإنما تسمّى مسيلمة الكذاب بالرحمن مضادة لله - جل وعز -، ومعاندة لرسوله - عليه السلام - ذلك مشهور مستفيض في قوافي أوائلهم قبل قيام الإسلام، فمن ذلك قول بعضهم في الجاهلية:

أَلَا ضَرَبَتْ تِلكَ الفَتَاةُ هَجِينَها ... أَلا قَطَعَ الرَّحمنُ منها يَمِينَها

فأضاف فعل القطع إلى الرحمن؛ لأنه أراد به الدعاء، وعلم أنه لا يجيب الدعاء إلا الله.

وقول أمية بن أبي الصلت:

والحَيَّةُ الحَتْفَةُ الرِّقشاء أخرجها ... مِنْ جُحرها آمنات الله والقَسَمُ

إذا دَعَا باسمه الإنسانُ أو سَمِعَتْ ... ذَاتَ الإله يُرى في سَعْيِهَا زَرَمُ

---

(١) نقلاً بواسطة «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٤).

وإنما أتينا بهذا البيت حجة لإثبات اسم الإلاهية لا لرُقية الحية.

وقول زيد بن عمرو:

إلى الله أهدي مِدحَتِي وثنايايا وقولا رصينا لا بني الدهر باقيا
إلى المَلِكَ الأعلَى الذي ليس فوقَهُ إلـهٌ وربٌّ سواه مُدانيا»[1]

وسيأتي باقي كلامه في القاعدة الثالثة[2].

٢١ - الإمام الحافظ محمد بن علي الكرجي القصاب (ت ٣٦٠ أو قبلها).

قال ـ رداً على من تأول قول النبي ﷺ: «ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته» أي: تعرفون ربكم... إلخ ـ: «...... بل المؤمنون والأنبياء والصالحون قبلهم كانوا كلهم موقنون بحقيقة ربوبية الله، وبكل ما دعاهم إليه من الحشر والنشر والقيامة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧ ـ ١٨].

بل أكثر الكافرين ـ أيضاً ـ يعلمون أن الله خالق الأشياء فضلاً عن المؤمنين، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]»[3].

وقال ـ أيضاً ـ: قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] وكذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] **دليل على أن الإنسان لا يكون بإقراره ببعض الحق**

---

(١) البدء والتاريخ (١/ ٦٠ - ٦٢).

(٢) انظر: (ص ١٨٨) من هذا الكتاب.

(٣) نكت القرآن (٢/ ٣٦).

مؤمناً حتى يقر بجميعه وأن الكفر ببعض الحق كفر بجميعه؛ **ألا ترى أن القوم قالوا حقاً لم ينفعهم الإقرار به**، وقد ردوا غيره»[(١)].

٢٢ ـ الفقيه المقرئ أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي الشافعي (ت ٣٧٧هـ).

قال ـ رداً على حجة الجارودية في قولهم بالأكوار ـ: «واحتجوا في ذلك بقول الله ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾ [ق: ١٥] وهؤلاء قد غلطوا في تأويل هذه الآية، وإنما تأويلها: **أن قريشاً ومشركي العرب كانوا** يشكون في النشأة الأخرة **ويوقنون بالنشأة الأولى**، ولا يجيزون قدرة الله عزوجل على إحياء الموتى، **فقال الله عزوجل يحتج عليهم بالنشأة الأولى**، قوله ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي: عجزنا ﴿بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ يعني: أن ابتدعته من غير شيء، **وهم لا يشكون فيه** ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ أي: شك ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي: ابتداع الشيء أقرب في الوهم من إعادته. وهؤلاء تأولو على الأكوار»[(٢)].

٢٣ـ الشيخ الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة (ت ٣٨٧هـ).

قال ـ عند بيانه لفساد مذهب الجهمية في الإيمان ـ: «ويلزم على أصل مذهبه الخبيث أن يكون من آمن بالنبي ﷺ من أصحابه وأهل بيته ومن جاهد معه ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهاجروا إليه، والذين كذبوه وحاربوه في الإيمان عندهم سواء؛ **لأن قريشاً قد كانت تعرف الله ﷻ وتعلم أنه خالقها، وبذلك وصفهم الله ﷻ في آي كثير من كتابه.**

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٢٣).

(٢) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص ٢٣ ـ ٢٤).

وكذلك اليهود والنصارى قد عرفوا الله وعرفوا رسوله وعلموا ذلك بقلوبهم، قال الله ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]. وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال ـ في قريش ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]»[١].

٢٤ ـ الإمام العلامة اللغوي أبو سليمان حمد بن محمد البستي الخطابي (ت ٣٨٨هـ).

قال «الشرك والكفر قد يطلقان بمعني واحد، وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما، **فيخص الشرك بعبده الأوثان وغيرها من المخلوقات، مع اعترافهم بالله تعالى، ككفار قريش،** فيكون الكفر أعم من الشرك»[٢].

٢٥ - الإمام الزاهد أبو عبدالله محمد بن عبدالله الإلبيري المالكي، المعروف بـ ابن أبي زمنين (ت ٣٩٩ هـ).

تقدم كلامه[٣].

٢٦ـ العلامة المفسر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي الشافعي (ت ٤٦٨هـ).

---

(١) الإبانة (٢/ ٨٩٤-٨٩٥).

(٢) نقله عنه النووي في شرح مسلم (٢/ ٧١).

(٣) انظر: (ص ١٥ - ١٦، ٢٩) من هذا الكتاب.

تقدم كلامه [(١)].

٢٧ ـ الإمام المقريء أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالله البغدادي المعروف بابن البناء الحنبلي (ت ٤٧١هـ).

فقد ذكر كلام ابن قتيبة السابق مقراً به: «فلست واجداً واحداً إلا وهو مقر بأن له صانعاً ومدبراً وإن أسماه بغير اسمه، قال الله عزوجل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]» [(٢)].

٢٨ - العلامة الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد السَّرخسي الحنفي (ت ٤٩٠ هـ).

قال - رحمه الله -: «**وعبدة الأوثان كانوا يقرون بالله تعالى**، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] **ولكن كانوا لا يقرون بالوحدانية**، قال الله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥] وقال - فيما أخبر عنهم - ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]» [(٣)].

٢٩ ـ اللغوي الأديب الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بـ (الراغب الأصفهاني) (ت ٥٠٢هـ).

قال: «من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى، وحسن طاعته والكف عن معصيته . . .**فمعرفة الله العامية مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلاً فعله ونقله من الأحوال المختلفة**، وهي المشار إليها بقوله تعالى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وبقوله: ﴿صِبْغَةَ

---

(١) انظر: (ص ٢٣) من هذا الكتاب.

(٢) الرد على المبتدعة (ص ٩٦).

(٣) شرح كتاب السير الكبير (١/ ١٠٦).

ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، وبقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

فهذا القدر من المعرفة في نفس كل واحد، ويتنبه الغافل إذا نبه عليه، فيعرفه ويعرف أن من هو مساو لغيره، فذلك الغير مساوٍ له، **ومن هذا الوجه**: قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ [لقمان: ٢٥]، **وقال - في مخاطبة المؤمنين والكافرين** - : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وقال - بعده -: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٤].

وأما معرفة الله المكتسبة، فمعرفة توحيده وصفاته، وما يجب أن يثبت له من الصفات، وما يجب أن ينفى عنه.

وهذه المعرفة هي التي دعت إليها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولهذا قال كلهم: قولوا لا إله إلا الله .**ولم يدع أحد إلى معرفة الله تعالى، بل دعا إلى توحيده. . . .**»[(١)].

٣٠ـ العلامة الفقيه الصوفي أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ).

سيأتي كلامه [(٢)].

٣١ـ الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ).

قال - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] -: «كفار مكة. . . **.ينكرون**

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص ١١٦ - ١١٧).

(٢) انظر: (ص ٨١ - ٨٢) من هذا الكتاب.

التوحيد مع إقرارهم أنه الخالق لهذه الأشياء»[١].

٣٢ـ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي المالكي (ت ٥٤٦هـ).

قال - رحمه الله -: «وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الزخرف: ٩] الآية، ابتداء **احتجاج على قريش** يوجب عليهم التناقض في أمرهم، وذلك أنهم يقرون **أن الخالق الموجد لهم وللسماوات والأرض هو الله تعالى**، وهم مع ذلك يعبدون أصناماً ويدعونها آلهتهم»[٢].

وقد تقدم له نص آخر[٣].

٣٣ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المعروف بالشهرستاني الشافعي الأشعري (ت ٥٤٩هـ).

وقد تقدم كلامه [٤].

٣٤ـ الإمام العلامة أبو الخير يحيى العمراني الشافعي (ت ٥٥٨هـ).

قال ـ رحمه ـ: «وقد ورد الشرع بذكر الإيمان مفرداً على أوجه...

الوجه الرابع: ما ورد والمراد به التصديق ببعض دون بعض كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ يعني: **مشركي العرب؛ لأنك إن سألتهم من خلقهم قالوا: الله. وهو يجعلون لله شركاء»**[٥].

---

(١) معالم التنزيل (٣/ ٤٧٤).

(٢) المحرر الوجيز (١٣/ ١٠٠).

(٣) انظر: (ص ٢٦) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٣٤ – ٣٥) من هذا الكتاب، وسيأتي له نص آخر، انظر: (ص ٩٩- ١٠٠).

(٥) الانتصار (٣/ ٧٤٠).

وسيأتي له نص آخر[١].

٣٥ ـ الإمام القدوة شيخ النحاة كمال الدين أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «**إنما تواردت الملل والشرائع بمعرفة التوحيد لا بمعرفة وجود الصانع** «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» **فالدعوة إنما تواردت بمعرفة توحيده لا بمعرفة وجوده** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] **وإنما وقع الخلاف في نفي الشريك** كما مضى في غير موضع من التنزيل ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢]. . . إلى غير ذلك .**وهذا لا خلاف فيه**»[٢].

٣٦ - العلامة الكبير والواعظ الفقيه أبو الفرج عبدالرحمن بن علي القرشي المعروف بابن الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ).

قال - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ **يعني: كفار مكة**، وكانوا **يقرون بأنه الخالق والرازق**، وإنما أمره أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ **على إقرارهم**؛ لأن ذلك يُلزمهم الحجة فيوجب عليهم التوحيد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] توحيد الله **مع إقرارهم بأنه الخالق**. والمراد بالأكثر **الجميع**»[٣].

٣٧ـ أبو عبد الله محمد بن عمر الفخر الرازي الأشعري (ت ٦٠٦هـ).

قال: «اعلم أنه لما اطنب في وعيد المشركين، وفي وعد الموحدين،

---

(١) انظر: (ص ١٠١- ١٠٢) من هذا الكتاب، انظر: (ص ٣٨).

(٢) الداعي إلى الإسلام (ص ٢٠٠).

(٣) زاد المسير (ص ١٠٨٧ ط. دار ابن حزم).

عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام، وبنى هذا التزييف على أصلين:

الأصل الأول: **هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم**، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

واعلم أن من الناس من قال: إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم، **متفق عليه بين جمهور الخلائق، لا نزاع بينهم فيه**، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم»(١).

قال: «وذلك **لأن الكفار كانوا مقرين** بأن الملائكة عباد الله وخالق الملائكة وخالق العالم»(٢).

وقد نقلنا عنه هذا المعنى في غير موضع(٣).

٣٨ - العلامة شيخ القراء علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالصمد السخاوي الشافعي (ت ٦٤٣ هـ).

قال - عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]-: «وقال ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهم ينكرون الإعادة؛ **لأنهم مقرون بالنشأة الأولى أنها من عند الله**، والنشأة الثانية تلزمهم، ولازم القول قول فهم كالمقرين بها»(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٨٢ - سورة الزخرف).

(٢) المصدر السابق (٢٠ / ١٨٥ - سورة الإسراء آية ٥٧).

(٣) انظر: (ص ١٢، ٢٠، ٧٨، ٧٩، ١٣١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٢).

وقال - في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤] -: «قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم لا يعترفون بأن الله يعيد الخلق، **لأنهم اعترفوا بأن الله بدأ الخلق**، ومن لازم ذلك جواز إعادته»(١).

وقال - في تفسير ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩] -: «أي: إذا سئلوا عنها **اعترفوا بأن الله خالقها**»(٢).

٣٩ ـ العلامة الفقيه المفسر أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي القرطبي (ت ٦٧١هـ).

وسيأتي كلامه(٣).

٤٠ ـ الفيلسوف علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني (ت: ٦٧٥هـ).

قال: «الدليل على أن معرفة الله واجبة كونها من الأمور التي تصل العقول إليها، **فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك، فلا بد أن يستند إلى إله يتأله له**، ويتضرع نحوه، ويلجأ إليه في كشف بلواه، ويسمو قلبه صعوداً إلى السماء، ويشخص ناظره إليها من حيث كونها قبلة لدعاء الخلائق أجمعين، **فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلة**، لا تكلفاً وحيلة، **ومثل ذلك قد يوجد في الأطفال والوحوش والبهائم** ـ أيضا ـ، فإنها ظاهرة الخوف والرجاء، رافعة رؤوسها إلى السماء عند فقدان الكلأ والماء، وإحساسها

(١) المصدر السابق (١/ ٣٦٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٩٩).

(٣) انظر: (ص ٩٤ – ٩٥، ٩٩، ١٤٩، ١٧٣، ٣٠٤، ٣١٧).

بالهلاك والفناء، **هذا كله مركوز في جِبِلَّة الحيوانات، فضلاً عن الإنسان العاقل**، وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث، ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السراء، وإنما يردون إليه في الضراء.

قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وأيضاً؛ **فإن عامة الناس في جميع أقطار الأرض دعت أنفسهم إلى الاعتراف بأن لهم خالقاً من غير معلم، ولا إثبات حجة عندهم، ولا اصطلاح وقع بين كافتهم** من أهل البوادي، وأقاصي الهند والصين، وأهل الجزائر الذين لم يبلغهم داع إلى الإسلام ولا إلى الشرك، **فإنهم استغنوا بشهادة أنفسهم على الأعم الأغلب بالخالق جل جلاله**، وذلك قوله تعالى ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذا كله قريب من الضروريات؛ ولذلك قال بعضهم: المعرفة ضرورية، **فالناس كلهم يشيرون إلى الصانع جل وعلا**، وإن اختلف طرائفهم ومللهم، ولا يجهلون سوى كنه الذات، **ولذلك لم يأت الأنبياء والرسل ليعلموا بوجود الصانع، وإنما أتوا ليدعوا إلى التوحيد**، قال تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢] **والخلق إنما أشركوا بعد الاعتراف بالله تعالى، لما اعتقدوه من الشركاء لله تعالى**، أو لنفي واجب من صفاته، أو لإثبات مستحيل منها، أو لإنكارهم النبوات»[1].

٤١ـ الحافظ العلامة أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ).

---

(١) سراج العقول نقلاً عن (دلائل التوحيد للقاسمي) (ص ١٩٣ . ١٩٤).

قال ـ رحمه الله ـ: «ثم إن الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما **فيخص الشرك بعبده الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله ككفار قريش**، فيكون الكفر أعم من الشرك، الله أعلم»[(١)].

٤٢ ـ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود المشهور بالنسفي الحنفي (ت ٧٠١ هـ).

تقدم كلامه[(٢)].

٤٣ـ العلامة المفسر النحوي أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي المالكي (ت ٧٠٨ هـ).

قال - رحمه الله -: «الآية الخامسة من سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وفي سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، **تواردت هذه الآي الثلاث على معنى واحد، وهو تقريرهم على ما كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه بخلق السماوات والأرض، واعترافهم بذلك إن سئلوا**، ثم اتبع ذلك في سورة العنكبوت بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣] **فأعلم تعالى**

(١) شرح مسلم (١/ ٢/ ٧٢).

(٢) انظر: (ص ١٢، ٢٢، ٢٦) من هذا الكتاب. وانظر - أيضاً - (١٣٧).

أنهم لو سئلوا - أيضاً - عن هذا لاعترفوا، ثم اختلف ما أعقبت به هذه الآي من وصفهم حيث وصفوا فيها بعد فرض سؤالهم واعترافهم»[١].

وسيأتي له نص آخر[٢].

٤٤ - علامة الزيدية محمد بن الحسن الديلمي (ت: ٧١١هـ).

وسيأتي كلامه[٣].

٤٥ ـ العلامة جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت: ٧١١هـ).

فقد نص على أن مراد العرب بتلبيتهم (تملكه وما ملك) أن الأصنام وما تملكه وما تختص به من الآيات التي تكون حولهم والنذور التي كانوا يتقربون بها إليها كلها ملك لله عز وجل[٤].

٤٦ - الفقيه الأصولي شجاع الدين هبة الله بن أحمد بن معلى بن محمود التركستاني الحنفي (ت: ٧٣٣هـ).

وسيأتي كلامه[٥].

٤٧ ـ العلامة المفسر علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشافعي الصوفي المعروف بـ (الخازن) (ت ٧٤١هـ).

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٩١).

(٢) انظر: (ص ١٢١ - ١٢٣) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٣٤٨).

(٤) تقدم نص كلامه كاملاً. انظر (ص ٤٢).

(٥) انظر: (ص ١٥٠ - ١٥١) من هذا الكتاب.

تقدم كلامه[١].

٤٨ـ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١ هـ).

وقد تقدم كلامه في أكثر من موضع[٢].

٤٩ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي (ت ٧٤٨ هـ).

قال - رحمه الله -: «**المشركون والكتابيون وغيرهم عرفوا الله تعالى بمعنى، أنهم لم يجحدوه، وعرفوا أنه خالقهم**، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] **فهؤلاء لم ينكروا الباريء ولا جحدوا الصانع بل عرفوه**، وإنما جهلوا نعوته المقدسة، وقالوا عليه ما لا يعلمون»[٣].

٥٠ - القاضي الفقيه أبو حفص سراج الدين عمر بن إسحاق الغزنوي الحنفي (ت ٧٧٣ هـ).

قال - في شرح قول الطحاوي: (لا شريك له) -: «أراد بذلك نفي أنواع الشركاء، إذ الاشتراك في اللغة التسوية.

وهو إما في الذات . . . وإما في **التسمية واستحقاق العبادة كما صنع مشركو العرب** حيث عبدوا مع الله الأصنام وسموها آلهة، **فصاروا مشركين مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق، باعتبار عبادتهم غير الله**، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

---

(١) انظر: (ص ٢١) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص ١٥، ٢٢) من هذا الكتاب.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤٧).

وإما في الوصف كما زعمت المجسمة . . .»[١] إلخ.

وقال - في شرح قول الطحاوي (ولا إله غيره) -: «وهي نفي لكل معبود سوى الله، إذ الإله في اللغة هو المعبود، وكفار قريش كانوا يعبدون الأصنام **مع اعترافهم أن الخالق هو الله الواحد، وكانوا يقولون:** ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فيفيد قوله (لا إله) غير ما أفاد قوله (لا شريك له) فلا يكون تكراراً»[٢].

٥١ ـ الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ).

قال في تفسير آيات المؤمنون ـ: «يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ **ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم** أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، **بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى:** ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ أي: من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ **أي: فيعترفون بأن ذلك لله وحده لا شريك له،** فإذا كان ذلك ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٥).

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم.....

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: **إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم**، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟!.....

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: بيده الملك.....

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا معقِّب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.....

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ أي: **سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له** ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره، **مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟!**»[1].

وقال ـ في تفسير آية لقمان ـ: «يقول تعالى ـ مخبراً عن هؤلاء المشركين به ـ: **أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض** وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء **يعترفون أنها خلق له وملك له**»[2].

٥٢ - العلامة بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ).

تقدم كلامه[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠/ ١٤٠ - ١٤٣ ط. دار عالم الكتب).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٧٦).

(٣) انظر: (ص ١٤) من هذا الكتاب.

٥٣ ـ الإمام العلامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي (ت ٨٤٥هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «ولا ريب أن توحيد الربوبية **لم ينكره المشركون، بل أقرُّوا** بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السماوات والأرض، **والقائم بمصالح العالم كله**، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة»(١).

٥٤ ـ نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني النيسابوري توفي بعد (٨٥٠ هـ).

تقدم كلامه(٢).

٥٥ - المفسر العلامة جلال الدين أبو عبدالله محمد بن شهاب الدين المحلي الشافعي (ت: ٨٦٤هـ).

تقدم كلامه(٣).

٥٦ ـ العلامة الحافظ المتفنن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي (ت ٨٨٥هـ).

وقد تقدم كلامه(٤).

٥٧ ـ شيخ الفقهاء وإمام الشافعية في زمانه أبو يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ).

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٤٠).

(٢) انظر: (ص ١٤، ٢٣) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٣٠) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ١٢ - ١٣) من هذا الكتاب.

تقدم كلامه[(١)].

٥٨ ـ العلامة الفقيه محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي المالكي (ت ٩٤٢هـ).

فقد قال ـ عند حديثه عن أنواع الشرك ـ: «وشرك بمعنى الشفاعة والتقريب كعبادة الأوثان **مع اعترافهم بالصانع**؛ ولذا قالوا ـ هم ـ: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]».

وسيأتي كلامه كاملاً[(٢)].

٥٩ ـ العلامة الفقيه محمد بن محمد الشربيني القاهري الشافعي الأشعري المعروف بالخطيب الشربيني (ت ٩٧٧ هـ).

تقدم كلامه[(٣)].

٦٠ ـ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي (ت ٩٨٢هـ).

تقدم كلامه[(٤)].

٦١ ـ العلامة نور الدين أبو الحسن علي بن محمد سلطان القاري الهروى المكي المعروف بـ «ملا علي القاري» (ت ١٠١٤هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «فأعلم أن أدلة التوحيد مشحون بها القرآن لأهل العرفان، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال سبحانه ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقد

---

(١) انظر: (ص ٢١) من هذا الكتاب. وله نص آخر سيأتي، انظر: (ص ١٩٧ - ١٩٨).

(٢) انظر: (ص ١٩٨) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٢٢، ٢٧)، من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ١٤، ٢١).

جعلت كلمة التوحيد مفيدة لنفي ما سواه في الألوهية وعدم غيره في استحقاق العبودية مع اعتراف جميع الكفار بتوحيد الربوبية، حيث قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]»[١].

وسيأتي له نص آخر[٢].

٦٢ ـ أحمد بن عبدالأحد السرهندي النقشبندي الحنفي والملقب عند حنفية الهند بالإمام الرباني مجدد الألف الثاني (١٠٣٤هـ).

وسيأتي كلامه قريباً[٣].

٦٣ - العلامة الزيدي أحمد بن محمد بن صلاح الحرازي الشرفي (ت ١٠٥٥ هـ).

قال - عند كلامه عن أديان العرب -: «وعامة العرب ثلاث فرق:

- فرقة **تقر بالله** والبعث وتنكر الرسل، **وتعبد الأصنام لتقربهم إلى الله**.
- وفرقة تنكر البعث.
- وفرقة أنكرت الخالق والبعث»[٤].

٦٤ - الإمام الزيدي العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (١٠٩٩ هـ).

---

(١) ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي (ص ٥٣).

(٢) انظر: (ص ٨٦) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٧٩) من هذا الكتاب.

(٤) شفاء صدور الناس بشرح الأساس (١/ ١٥٠).

وسيأتي كلامه[١].

٦٥ - عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد الحضرمي الشافعي (ت ١١٣٢ هـ).

وسيأتي كلامه[٢].

٦٦ ـ الإمام العلامة المتفنن محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت ١١٨٢هـ).

قال: «**وكل مشرك مقر بأن الله خالقه، وخالق السموات والأرض وربهن، ورب ما فيهن ورازقهم**؛ ولهذا احتج عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وبقولهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٢] **المشركون مقرون بذلك ولا ينكرون**»[٣].

٦٧ ـ العلامة المحقق حسين بن مهدي النعمي التهامي ثم الصنعاني (ت ١١٨٧هـ).

قال ـ بعد أن ذكر أن شرك المشركين في العبادة ـ: «**وشائع شرك الوثنية، وعامته: هو فيما يعلم كل عاقل من هذا القبيل**. ولقد تتبعنا في كتاب الله من فصول تراكيبه وأصول أساليبه، **فلم نجده تعالى حكى عن المشركين أن عقيدتهم في آلهتهم وشركائهم التي عبدوها من دونه: أنها تخلق، وترزق**، وتحيي، وتميت، وتنزل من السماء ماء، وتخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وتأتي بالضياء والظلمة، وتنبت حدائق ذات بهجة، أو أنها جعلت

---

(١) انظر: (ص ٩٦) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص ١٥٢ - ١٥٥) من هذا الكتاب.

(٣) تطهير الاعتقاد (ص ٣٢ - ٣٣).

الأرض قراراً، وخلالها أنهاراً، وجعلت لها رواسي، وجعلت بين البحرين حاجراً، أو أنها تجيب المضطر إذا دعا، وتكشف السوء والبلوى، أو تؤتي الملك من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتهدي في ظلمات البر والبحر، وترسل الرياح بين يدي المطر؟

بل إذا ضاق عليهم الأمر، واشتد بهم الكرب: فزعوا إلى الله وحده، فإذا سئلوا عن حقيقة دينهم: هل هو شرك في الربوبية؟ دانوا وأذعنوا للرب وحده بالاختصاص بكل ذلك، والانفراد.

وهذا واضح لمن ألقى السمع للقرآن فيما حكى عنهم بقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]»[١].

وقال ـ أيضاً ـ: «والاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠] ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] **يؤتي بمثله للتقرير على المخاطب بما يعلمه، وهو أمر ثابت عنده**»[٢].

٦٨ - العلامة الفقيه سليمان بن عمر بن منصور العجيلي المعروف بـ (الجمل) الأزهري الشافعي (ت ١٢٠٤ هـ).

---

(١) معارج الألباب (صـ ٢٢٩).

(٢) المصدر السابق (صـ ٢٢٧).

وسيأتي كلامه[١].

٦٩ ـ العلامة أبو المعالي على أفندي السويدي الشافعي البغدادي العباسي (ت: ١٢٣٧هـ).

وقد تقدم كلامه[٢].

٧٠ ـ العلامة المتفنن محمد بن علي الشوكاني الصنعاني (ت ١٢٥٠هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «أعلم أن الله لم يبعث رسله ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم والرازق لهم ونحو ذلك، **فإن هذا يقر به كل مشرك قبل بعثة الرسل. . . .**»[٣].

٧١ ـ العلامة الفقيه محمد بن عمر عابدين الحنفي (ت ١٢٥٢ هـ).

نقل كلام السرخسي في حاشيته[٤] والذي تقدم نقله[٥]، وله كلام آخر سيأتي[٦].

٧٢ ـ العلامة المتفنن الشريف محمد بن ناصر الحازمي الحسني التهامي (ت: ١٢٨٣هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «**اعلم أن الله تعالى لم يبعث رسله عليهم السلام وينزل كتبه ليعّرف خلقه بأنه هو الخالق لهم الرازق.. ونحو ذلك، فإن هذا**

---

(١) انظر: (ص ١٣٨) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص ٣١ - ٣٢).

(٣) الدر النضيد (ص ٦٥).

(٤) رد المحتار على الدر المختار (٦/ ٣٦٣).

(٥) انظر: (ص ٥٩) من هذا الكتاب.

(٦) انظر: (ص ٣٤٦) من هذا الكتاب.

يقر به كل مشرك قبل بعثة الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]. . . . . ولهذا تجد كل ما في الكتاب العزيز من شأن خالق الخلق ونحوه في مخاطبة الكفار باستفهام التقرير هل من خالق غير الله ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١] **بل بعث رسوله وأنزل كتبه لإخلاص توحيده وإفراده بالعبادة** ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. . .»[١].

٧٣ ـ العلامة الكبير المحدث محمد بشير السهسواني الهندي (ت ١٣٢٦هـ).

وقد نقل كلام الشوكاني السابق مقراً به[٢].

٧٤ ـ العلامة المحدث محمد أنور شاه الكشميري الحنفي الديوبندي (ت ١٣٥٢هـ).

وسيأتي كلامه قريباً[٣].

٧٥ ـ ذهبي العصر العلامة المحقق عبدالرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني (ت: ١٣٨٦هـ).

قال - رحمه الله -: «**كان العرب يعتقدون وجود الله** - عز وجل - وربوبيته، وأنه الذي يرزق من السماء والأرض، والذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر كله، له الأرض وما فيها، رب السماوات السبع ورب العرش العظيم بيده

---

(١) إيقاظ الوسنان على بيان الخلل الذي في صلح الإخوان (ص ٣٢).

(٢) انظر: صيانة الإنسان (ص ١٥٨).

(٣) انظر: (ص ٨٤) من هذا الكتاب.

ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له، ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض، خلق السماوات والأرض، وهو العزيز العليم، **شهد لهم بهذا وبأكثر منه القرآن نفسه وكرر بعضه في عدة آيات، وذلك يؤكد أن هذا كان عقيدتهم كلهم** . . .»[١]. ثم ذكر الآيات الدالة على ذلك.

❖ ❖ ❖

رابعاً: فوائد القاعدة:

١ـ أن الكفار يقرون بوجود الله.

قال الرازي ـ بعد أن عدد أصناف الناس من أهل الدنيا ـ: «**وكلهم مطبقون على وجود الإله**»[٢].

وقال الشيخ علي القاري - تعليقاً على ما نقله القاضي عن الباقلاني أن الإيمان بالله هو العلم بوجوده -: «وما يتعلق به من توحيد ذاته، **وإلا فمجرد العلم بوجوده حاصل لعامة خلقه**، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وإنما أنكر وجوده سبحانه طائفة من الدهرية المعطلة»[٣].

٢ـ أن الكفار يقرون لله بالربوبية ولم يجعلوا له شريكاً مساوياً له في الوجود والقدرة والعلم والحكمة.

---

(١) عقيدة العرب في وثنيتهم (ص ١٥٨) ضمن مجموع رسائل للمعلمي.

(٢) المطالب العالية (١/ ٢٥٢).

(٣) شرح الشفاء (٢/ ٥٢٨).

قال الرازي: «**اعلم أنه ليس في العالم أحد يثبت لله شريكاً يساويه في الوجود والقدرة والعلم والحكمة**، وهذا مما لم يوجد إلى الآن، لكن الثنوية يثبتون إلهين، أحدهما حكيم يفعل الخير، والثاني سفيه يفعل الشر، **وأما الاشتغال بعبادة غير الله ففي الذاهبين إليه كثرة**»(١).

وقال أحمد السرهندي الحنفي: «فينبغي أن ينفي بتكرار لا إله إلا الله: شريك وجوب الوجود، وشريك استحقاق العباد.

بل الأهم الثاني نفي شريك استحقاق العبادة المخصوص بدعوة الرسل - عليهم الصلوات والتسليمات-.

فإن المخالفين ينفون - أيضاً - شريك وجوب الوجود بدلائل عقلية، **ولكنهم غافلون عن معاملة استحقاق العبادة**، لا يتحاشون عن عبادة الغير، **والمشرك في لسان الأنبياء من يكون أسيراً لعبادة غير الحق سبحانه**، فمن لم يتحقق بما قاله الأنبياء من نفي استحقاق ما سوى الله تعالى العبادة لا يتخلص عن الشرك، ولا ينجو من شعب شرك عبادة الآلهة الآفاقية والأنفسية، **وهو المقصود من بعثة الرسل** - صلوات الله وسلامه عليهم -، وقد قالوا: إن كل ما هو مقصودك معبودك، فمعنى لا إله إلا الله: لا مقصود إلا الله، كما أنه لا معبود بحق إلا الله، ولا رب إلا الله»(٢).

فقد نص على أن المخالفين ينفون شريك وجوب الوجود، ومراده أن المشركين ينفون الشرك في الربوبية، وإنما وقع الشرك عندهم في استحقاق

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٣٧)، وانظر: (٢/ ١٢٢).

(٢) المكتوب الثالث من المجلد الثالث من مكتوبات السرهندي، نقل ترجمته الخجندي في كتابه (مفتاح الجنة لا إله إلا الله) (ص ٧٢- ٧٣).

العبادة، وصرح بأن دعوة الرسل والمقصود من بعثهم نفي الشريك في العبادة، ولذا فالمشرك في لسان الأنبياء من يكون أسيراً لعبادة غير الله تعالى.

وهذا نص واضح في الموضوع .

٣ـ أن النزاع بين الرسل وأقوامهم إنما هو في الاشتغال بعبادة الله، وليس في الإقرار بالربوبية.

وقد نص على هذا الرازي في كلامه المتقدم.

وقال المقريزي: «**فتوحيد الربوبية** هو الذي اجتمعت فيه الخلائق: مؤمنها وكافرها.

وتوحيد الإلهية مَفْرقُ الطرق بين المؤمنين والمشركين؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام «لا إله إلا الله». فلو قال: لا رب إلا الله لما أَجْزَأه عند المحققين.

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد»[1].

ولذا :

٤ـ بعث الله الرسل لدعوة الناس إلى عبادته، وليس للإقرار بربوبيته.

قال شيخ النحاة أبو البركات ابن الأنباري: «**إنما تواردت الملل والشرائع بمعرفة التوحيد لا بمعرفة وجود الصانع** «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» **فالدعوة إنما تواردت بمعرفة توحيده لا بمعرفة وجوده** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، **وإنما وقع الخلاف في نفي الشريك**، كما مضى في غير موضع من التنزيل ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢]. . . إلى غير

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٤١).

ذلك . وهذا لا خلاف فيه»(١).

قال محمد بن إسماعيل الصنعاني : «الأصل الثالث : أن التوحيد قسمان :

القسم الأول: توحيد الربوبية والخالقية والرازقية ونحوها. ومعناه : أن الله وحده هو الخالق للعالم؛ وهو الرب لهم والرازق لهم.

وهذا لا ينكره المشركون، ولا يجعلون لله فيه شريكاً بل هم مقرون به . . .

والقسم الثاني : توحيد العبادة. ومعناه : إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات. . . فهذا هو الذي جعلوا لله فيه الشركاء. ولفظ «الشريك» يشعر بالإقرار بالله تعالى.

فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير الأول، ودعاء المشركين إلى الثاني»(٢).

قال أبو حامد الغزالي : «. . .فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره، **بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرفه بمقتضى تدبيره** ؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٠] **ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد**، ليقولوا : «لا إله إلا الله». وما أمروا أن يقولوا : «لنا إله وللعالم إله» **فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفي عنفوان شبابهم** ؛

---

(١) الداعي إلى الإسلام (ص ٢٠٠ – ٢٠١).

(٢) تطهير الاعتقاد (ص ٣٠ – ٣١).

ولذلك قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

فإذاً في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان، ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار(١) نقول: من بديهة العقول أن الحادث لا يستغني عن حدوثه من سبب يحدثه، والعالم الحادث....»(٢).

قال ملا علي القاري: «وقد أعرض الإمام ـ يعني أبا حنيفة ـ عن بحث الوجود اكتفاء بما هو ظاهر في مقام الشهود، ففي التنزيل ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] **فوجود الحق ثابت في فطرة الخلق**، كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] ويومئ إليه حديث: «كل مولود يولد على فطرة الإسلام». **وإنما جاء الأنبياء عليهم السلام لبيان التوحيد وتبيان التفريد**، ولذا أطبقت كلمتهم وأجمعت حجتهم على كلمة (لا إله إلا الله)، **ولم يأمروا بأن يأمروا أهل ملتهم بأن يقولوا: الله موجود، بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود رداً لما توهموا وتخيلوا**، حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] و﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»(٣).

---

(١) إقرار من متكلم خبير بأن (دليل الحدوث) المشهور عند المتكلمين لم يأت به القرآن وأن تقريره إنما متابعة وتقليد!!.

(٢) قواعد العقائد (ص ١٥١ ت: موسى محمد علي).

(٣) شرح الفقه الأكبر (ص ١٦).

٥ ـ ضلال المتكلمين وبعض المتصوفة في جعلهم توحيد الربوبية هو الغاية.

قال الإمام عبدالرحمن بن حسن: «وهؤلاء المتأخرون جهلوا (لا إله إلا الله) وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية، وهو القدرة على الاختراع، فأثبتوا ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك، وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم، وقد قال تعالى ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]»(١).

٦ ـ خطأ من فسر (الإله) بالقادر، وأن كلمة التوحيد لا إله إلا الله، معناها: لا قادر على الاختراع إلا الله.

قال الفخر الرازي - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] -: «﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ يدل على أن معنى الإله ما يصح أن تدخله الإضافة، **فلو كان معنى الإله: القادر، لصار المعنى: وقادركم قادر واحد، ومعلوم أنه ركيك، فدل على أن الإله هو المعبود**»(٢).

وقال عبدالرحمن بن حسن: «ومعنى هذه الكلمة، هو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، كما تقدم في الآيات التي في أول الكتاب وغيرها، وقد أشتبه معنى هذه الكلمة العظيمة التي هي الفارقة بين الكفر والإيمان، فظن الأكثر أنها دلت على توحيد الربوبية، وأنه هو معناها كالأشعري وغيره من المتكلمين، قالوا: إن الإله هو القادر على الاختراع، وهذا التوحيد قد أقر به المشركون من العرب وغيرهم»(٣).

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص ٢٥).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٤/ ١٩٣).

(٣) قرة عيون الموحدين (ص ٦٢).

وقال الشاه أنور الكشميري الحنفي: «**واعلم أن كلمة الإخلاص لاستئصال الإشراك في العبادة دون الإشراك في الذات.**

وعليه تنبني دعوة الأنبياء عليهم السلام؛ لأن منكري الربوبية، أو المشركين في الذات كانوا أقل قليل، **فلم يريدوا بتلك الكلمة إلا الرد على الذين كانوا يشركون في العبادة**؛ كما حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] يعني: أن الله واحد، وهؤلاء مقربون إليه ـ والعياذ بالله ـ.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]، **ولم يقل: «يجحدون»**.

فعلم أنهم لم يكونوا منكرين لتلك الكلمة رأساً؛ لأن الاستكبار بعد العلم، وقد مر أن أول من بعث لدحض الكفر هو نوح - عليه الصلاة والسلام ـ، وقبله لم يكن إلا الإيمان فقط، ثم جاء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقابل قوم نمرود، **وكانوا مشركين في العبادة**، فرد عليهم بأبلغ وجه وأتم تفصيل، **وعلى هذا فالملة الإبراهيمية هي استئصال الإشراك في العبادة**»[(١)].

٧ ـ خطأ من جعل صرف العبادة لغير الله لا يكون شركاً إلا إذا اعتقد في المصروف له صفة من صفات الربوبية.

ووجهه: أن المشركين ما كانوا يعتقدون في آلهتهم صفات الربوبية.

قال الفخر الرازي: «كل من اتخذ لله شريكاً فإنه لا بد وأن يكون مقدماً على عبادة ذلك الشريك من بعض الوجوه، إما طلباً لنفعه أو هرباً من ضرره.

وأما الذين أصروا على التوحيد، وأبطلوا القول بالشركاء والأضداد،

---

(١) فيض الباري (١/ ١٠٤).

ولم يعبدوا إلا الله، ولم يلتفتوا إلى غير الله.

فكان رجاؤهم من الله وخوفهم من الله، ورغبتهم في الله، ورهبتهم من الله، فلا جرم لم يعبدوا إلا الله، ولم يستعينوا إلا بالله؛ فلهذا قالوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فكان قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، قائماً مقام قوله: لا إله إلا الله»(١).

٨- أن التوحيد نوعان: توحيد ربوبية، وتوحيد ألوهية.

ووجه أخذ الفائدة من القاعدة: إقرارهم بربوبية الله واعترافهم بها (وهو توحيد الربوبية)، مع عدم تسليمهم لقول الرسول ﷺ: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» (وهو توحيد الألوهية)، مما يدل على أنهما نوعان.

قال عبدالكريم بن فخر الدين الهندي: «أقول: قال الله سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وقال عز من قائل ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، الآية [الصافات: ٣٥] **فتبين لك أن المشركين** من العرب الأول كانوا **يقرون بربوبية الله تعالى، وينكرون وحدانيته تعالى في الألوهية** أي: العبودية، ويقولون إنكاراً منهم - ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] **فلأجل ذلك تنوع التوحيد بنوعين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فإنكار هذا إنكار الحس**»(٢).

والعلاقة بينهما علاقة تلازم، فتوحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

---

(١) التفسير الكبير (١/ ١/ ٢٤٩).

(٢) الحق المبين (ص ٣٦) نقلا عن كتاب دعاوى المناوئين (ص ٣٤٢).

قال ملا علي القاري ـ في شرحه للفقه الأكبر ـ: «أقول: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين **يشير إلى تقدير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية،** وهو ما يجب على العبد أولاً من معرفة الله سبحانه وتعالى، **والحاصل أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية دون العكس في القضية**؛ لقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقوله سبحانه حكاية عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعي التوحيد، بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما...»[١].

وقد نصَّ على تقسيم التوحيد إلى هذه الأنواع غير واحد من العلماء، وممن جاء عنه ذلك:

أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (ت ٣٨٧ هـ)، قال ـ رحمه الله ـ:

«... **وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:**

أحدها: أن يعتقد العبد آنيته، ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته، ليكون مبايناً بذلك مذاهب أهل الشرك **الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.**

والثالث: أن يعتقد موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون

---

(١) شرح الفقه الأكبر (ص ١٥).

موصوفاً بها، من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.

إذ قد علمنا أن كثيراً ممن يقرُّ به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته، فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده.

ولأنا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها.

فأما دعاؤهم إياهم إلى الإقرار بربانيته ووحدانيته فلسنا نذكر هذا ها هنا؛ لطوله وسعة الكلام فيه، ولأن الجهمي يدعي لنفسه الإقرار بهما [١]، وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما» [٢].

وبهذا يتبين كذب من زعم أن ابن تيمية أو ابن عبد الوهاب هو أول من أحدث هذا التقسيم.

وقد دل على هذا التقسيم أدلة:

الدليل الأول: اللغة:

دلت اللغة على الفرق بين (الربوبية)، و (الألوهية) اشتقاقاً ومادة ومدلولاً ومتعلقاً.

فالربوبية مشتقة من الرب و (الرب) بمعنى راب، اسم فاعل.

«فالرب مصدر ربَّ يُربُّ رباً، فهو رابٌّ، فمعنى قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]: رابُّ العالمين» [٣].

---

(١) قلت: قوله (ولأن الجهمي يدعي لنفسه الإقرار بهما) يبين سبب قلة كلام السلف في توحيد الألوهية.

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ١٧٢ ـ ت: د. يوسف الوابل).

(٣) تجريد التوحيد (ص ٣٧).

قال ابن جرير الطبري: «الرب في كلام العرب منصرف على معانٍ؛ فالسيد المطاع فيها يُدْعَى ربًا... والرجل المصلح الشيء يُدْعَى ربًا... والمالك للشيء يُدْعَى ربَّه.

وقد يتصرف ـ أيضاً ـ معنى الربِّ في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة»(١).

وقال ابن الأنباري: «الرب ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرب المالك، ويكون الرب السيد المطاع، قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]، أي: سيده، ويكون الرَّبُّ المصلح. رب الشيء إذا أصلحه»(٢).

والألوهية مشتقة من الإله، و (الإله) فعال بمعنى مفعول، ككتاب أي مكتوب، وبساط أي مبسوط، وفراش أي مفروش.

قال الجوهري: «أله ـ بالفتح إلاهة، أي: عبد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (ويذرك وإلهتك) بكسر الهمزة، قال: وعبادتك، وكان يقول: إن فرعون كان يعبد في الأرض.

ومنه قولنا: (الله) وأصله: (إله) على فِعَال بمعنى أي: معبود، كقولنا: إمامٌ فِعَالٌ؛ لأنه مفعول، أي: مؤتم به»(٣).

ومما سبق يتضح أن مدلول ومعنى الربوبية مغاير لمدلول ومعنى الألوهية، فالأول (الربوبية)، مأخوذ من الرب وهو مالك الشيء وصاحبه.

قال الزبيدي: «الرب هو الله عز وجل، وهو رب كل شيء أي مالكه،

---

(١) جامع البيان (١/ ١٤٢ط. التركي).

(٢) لسان العرب (٤/ ٢٤. مادة الربب).

(٣) الصحاح (٢/ ٢٢٢٣).

وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك»[(١)].

والثاني (الألوهية) مأخوذ من (إله) وهو المعبود.

قال الزجاجي: «إله: فعال بمعنى مفعول، كأنه مألوه، أي: معبود مستحق للعبادة يعبده الخلق و يولهونه»[(٢)].

ومتعلق الربوبية الأمور الكونية كالخلق والرزق والأحياء والإماتة ونحوها، ومتعلق الألوهية الأوامر والنواهي من الواجبات والمحرمات والمكروهات.

فالربوبية متعلقة بفعل الرب، والألوهية متعلقة بفعل العبد.

قال المقريزي: «فالرب مصدر ربَّ يربُّ، فهو رابٌّ، فمعنى قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، رابُّ العالمين، فإن الرب سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم من خلقٍ ورزق وعافية وإصلاح دين ودينا.

والإلهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوها، ويفردونه بالحب والخوف والرجاء، والإخبات والتوبة، والنذر والطاعة، والطلب والتوكل، ونحو هذه الأشياء»[(٣)].

الدليل الثاني: استقراء النصوص:

قال العلامة الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «وقد دل استقراء القرآن العظيم

---

(١) تاريخ العروس (١/ ٢٦٠).

(٢) اشتقاق أسماء الله الحسنى (ص ٢٤).

(٣) تجريد التوحيد المفيد (صـ ٣٧ - ٣٨).

على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام»[١].

ومن وجوه هذا الاستقراء:

أ ـ إقرارهم بأن الربوبية لله إذا سئلوا عن بعض خصائصها.

ب ـ الاستدلال على توحيد الألوهية بانفراده بالربوبية والخلق والتدبير؛ كما في قول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

ج ـ أنه قد جاء في القرآن ذكر (الإله) و (الرب)، في سياق واحد كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٣]، فلو كان معناهما واحد لكان في الآية تكرار ينبو بها عن حد البلاغة.

د ـ معارضتهم الرسول فيما دعاهم إليه من إفراد الله بالعبادة مع تسليمهم واعترافهم بأن الربوبية لله تعالى.

هـ ـ ورود الألوهية في آيات لا يمكن حملها على الربوبية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الدليل الثالث: الإجماع:

أجمع العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم من أن المشرك يحقن دمه بأن ينطق بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله. وأن دمه لا يعصم لو قال: لا خالق إلا الله. وهذا بإجماع العلماء، فلو كان معنى (الإله) و (الرب)، لكانت الجملة

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٠).

الثانية عاصمة لدم المشرك كالأولى، ولا قائل بهذا.

٩ـ أن ما جعله القبوريون الغاية في التوحيد، هو ما أقرت به كفار قريش ولم يدخلهم في الإسلام.

١٠ـ أن المشركين كانوا يعترفون بأن النفع والضرَّ الاستقلالي إنما هو بيد الله.

قال ابن كثير - تفسير آيات العنكبوت ٦١ - ٦٣-: «يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره -**معترفون أنه المستقل** بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم واختلافهم واختلاف أرزاقهم...»[1].

وقال الرازي ـ في تفسير سورة يونس آية ٣١ ـ: «أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية، **مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه**، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر البتة»[2].

وقد نص على هذا المعني.

- الإمام مجاهد بن جبر، فقد قال: «**يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم**، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم، نصيباً مما رزقناهم»[3].

- أبو إسحاق الزجاج، فقد قال - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠/ ٥٢٨- ط. مصطفى السيد وجماعة).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٩١) وانظر: (ص ١٢) من هذا الكتاب.

(٣) تقدم كلامه (ص ٤٩) من هذا الكتاب.

مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] -: «فأبان أن من الناس من يتخذ نداً يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يأتي بشيء مما ذكرنا، وعنى بهذا مشركي العرب»[١].

وللماتريدي كلام صريح في أن المشركين قد علموا أنه لا يملك أحد سوى الله كشف الضر أو جلب النفع[٢].

❖ ❖ ❖

خامساً: الشبه والاعتراضات على القاعدة:

الشبهة الأولى: آيات اعترضوا بها على أصل القاعدة، وزعموا أنها تدل على عدم إقرار المشركين لله بالربوبية والخلق والرزق.

ويمكن الجواب عن هذه الآيات: بأنها لا تعارض القاعدة، وهي في الحقيقة تندرج تحت أصل من الأصول التالية:

❁ **الأصل الأول**: عدم إقرار بعض الكفار بالبعث لا يعارض اعترافهم بوجود الله وإقرارهم بربوبيته.

وهذا أصل جامع وجواب مجمل عن جملة من الشبه، كتعلقهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وأما الجواب عن هذه الشبه تفصيلاً فمن وجوه:

---

(١) سيأتي نص كلامه (ص ١٣٦).

(٢) انظر: (ص ٣٤٢) من هذا الكتاب.

الوجه الأول: ليس في الآية إخبار بأنهم أنكروا ربوبية الله فضلاً عن وجوده.

الوجه الثاني: أن الآية في بيان اعتقادهم في البعث، ويدل على هذا أمران:

الأول: سياق الآية.

والثاني: الآيات الأخرى المتكاثرة الدالة على إيمانهم بالله وعلى إنكارهم البعث والحساب.

أما سياق الآية فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٤ ـ ٢٦].

فقولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ إنكار للبعث ولدار الجزاء.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون الذين تقدم خبره عنهم: ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها لا حياة سواها. تكذيباً منهم بالبعث بعد الممات»(١).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامه. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدّورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٥/ ١٥١).

كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى...»[١].

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: نموت نحن وتحيى أبناؤنا بعدنا، وهكذا دواليك.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: وما يهلكنا - أي يفنينا - إلا مرُّ الليالي والأيام وطول العمر.

وهذا واضح في أن كلامهم في البعث لا في الخلق، لذا لم يقولوا: وما يخلقنا ويهلكنا إلا الدهر. ولذا إذا تليت عليهم الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، فحجتهم هي قولهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مما يدل على أن جدالهم وخصومتهم في البعث لا في الخلق.

قال القرطبي: «قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن ثمَّ دفع ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، ﴿حُجَّتُهُمْ﴾: خبر كان، والاسم: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: بعد كونكم نُطَفاً أمواتاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم» ا.هـ المراد.

قال القرطبي: «فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواب ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟

قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكّت = **أُلزموا ما هم مقرون به من أن الله ﷻ وهو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضُمّ**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٢/ ٣٦٣- ط. دار عالم الكتب).

إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به - إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق - وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه»[1] ا.هـ

وعلى هذا فتكون الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١] فاحتج عليهم بالخلق الأول لإقرارهم به، فقال: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾.

ولما لم يكن لهم اعتراض على هذا تركوا المجادلة فيه وانتقلوا إلى السؤال عن وقته.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وأما الآيات الأخرى الدالة على إنكارهم البعث: كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩] وقوله تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٦/ ١١٥).

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وقوله تعالى ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

وذهب الإمام الزيدي يحيى بن الحسين إلى التفريق بين هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى وبين كفار قريش، فقد قال: «إذا علمت هذا فمن الفرق الكفرية:

- الدهرية: الذي حكاهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤] فهم طبائعية كفار، ينكرون الصانع، ويعتقدون قدم كل شيء، وأن الآلام والأمراض والموت وخلق الحيوان باختلاف الطبائع، وينكرون البعث والنشور والجنة والنار.

إن قيل: فما يقال في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] **قيل له: ذلك في كفار قريش ونحوهم.**

- ومنهم: الثنوية: الذي يثبتون مع الله ثانياً.

- **ومنهم: عباد الأصنام: الذين يعتقدونها آلهة تقربهم إلى الله زلفى، كما حكاه الله عنهم، وهم الذين كانوا في الجاهلية...»**[1].

الوجه الثالث: أن إنكار البعث ليس اعتقاداً لجميعهم، بل منهم من كان يؤمن بالبعث والحساب، وقد جاء في أشعارهم ما يدل على ذلك:

قال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

---

(١) المسالك في ذكر الناجي من الفرق والهالك (صـ٢١٦).

فَلا تَكْتُمُنَّ الله ما في نفوسِكم ... ليخفى فمهما يُكتم الله يَعْلم
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخرْ ... ليوم حسابٍ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[(١)]

قال ابن كثير ـ بعد أن أورد هذين البيتين ـ: «**فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي: بوجود الصانع، وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة**»[(٢)].

وقال الأعشى ـ وكان ممن يؤمن بالله والحساب ـ:

يراوح من صلوات المليك ... طوراً سجوداً وطوراً جُؤاراً
بأعظم منك تُقى في الحساب ... إذا النسمات نفضن الغبارا[(٣)]

وتقدم من شعر أمية بن أبي الصلت ما يدل على إيمانه بالبعث.

وكان من عقائد بعضهم ما يسمى بـ (البلية)، وهي: الناقة التي تربط عند قبر صاحبها معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي ظهرها، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً، أو يحفر لها وتترك فيها إلى أن تموت؛ لأنهم كانوا يقولون: صاحبها يحشر عليها. وكانوا يزعمون أن الناس يحشرون ركبانا على البلايا ومشاة إذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم[(٤)].

قال متمم بن نويرة اليربوعي (ت ٣٠ هـ): «ما فعلت قِدَما العرب في عبادة الأوثان، وليس مع الله في الإلهية شريك ثان، وما سنت جهالهم في

---

(١) الروض الأنف (١/ ٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٣ - ٤١٤ . ط مصطفى السيد وآخرون).

(٣) المفصل في أحوال العرب (٦/ ١٣٣).

(٤) الملل والنحل (٢/ ٢٢٥ط المكتبة العصرية) ولسان العرب (١٢/ ٦٢٥ - مادة هوم) وتاج العروس (٩/ ١١٢ - مادة هيم).

الجاهلية على قبر الميت من صبر البليَّة، وارتباط الفرس أو المطية، وعُدّ ترك ذلك من الخطية كيلا يصبح ذلك الميت بين الركبان ماشياً إذا هب إلى الجمع يوم يبعث الناس عاشياً»[١].

وفي هذا المعنى قال جريبة بن أشيم[٢]:

يا سعد إما أهلكن فإنني ... أوصيك إن أخا الوصاة الأقربُ
لا أعرفن أباك يحشر خلفكم ... تعبا يخر على اليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح ... وتقي الخطيئة إنه هو أصوب
ولَعَلَّ لي مما جمعت مطيَّة ... في الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

وقال عويمر النبهاني:

أبني لا تنس البلية إنها ... لأبيك يوم نشوره مركوب[٣]

وقال آخر:

لا تتركن أباك يحشر مرة ... عدوا يخر على اليدين وينكب

وقد ذهب أبو جعفر محمد بن حبيب بن أبي أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (٢٤٥ هـ) إلى أن هذا اعتقاد أكثر العرب، فقال: «**وكان أكثر العرب يؤمنون بالبعث... وكانوا يؤمنون بالحساب**»[٤].

ونحن نقول: معاذ الله أن نهتبل هذا النص ونحتج به، لمخالفته كتاب ربنا، فالظاهر من تكرار القرآن لمسألة البعث يدل على أن أكثر الجاهلين لا

---

(١) الحور العين وتنبيه السامعين لنشوان الحميري (صـ ١٣٣).
(٢) انظر: بلوغ الأرب (٢/ ٣٠٧).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٠٩).
(٤) المحبر (ص/ ٣٢٢).

يؤمن بالبعث، وإن كان فيهم من يُقرُّ به.

قال مطهر بن طاهر المقدسي (توفي بعد ٣٥٥ هـ): «**ومنهم من كان يؤمن بالبعث والنشور بعد الموت**، ويزعم أن من عقرت مطيته عند قبره حشر عليها»(١).

الوجه الرابع: لو كان في الآية دلالة على إنكارهم وجود الله ـ مع أنه قول مرفوض ـ فينبغي حملها على أن المراد بها فئة معينة قليلة، ولذا قال القرطبي: «وكان المشركون أصنافاً: منهم هؤلاء، **ومنهم من كان يثبت الصانع** وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره»(٢) ا.هـ المراد.

وقال الشهرستاني ـ عن العرب وعقائدهم ـ: «وهي أصناف:

١ـ **فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة**، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهم الذين أخبر الله عنهم في القرآن المجيد: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]...

٢ـ **وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع**، وأنكروا البعث والإعادة، وهم الذين أخبر الله عنهم في القرآن: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ .**فاستدل عليهم بالنشأة الأولى؛ إذا اعترفوا بالخلق الأول**، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨]. وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

٣ ـ **وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة**،

---

(١) انظر: (ص ١٥٨- ١٦٠) من هذا الكتاب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١١٤).

وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، **وزعموا** أنهم شفعاؤهم عند الله في الآخرة، وحجوا إليها، ونحروا لها الهدايا، وقربوا القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر، وحللوا وحرموا، **وهم الدهماء من العرب إلا شرذمة منهم**»[(١)] **ا.هـ المراد.**

قلت: وجميع الأصناف لا يثبت للشركاء الذين اتخذوهم لا الخلق ولا الإعادة.

قال ابن جزي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآية [يونس: ٣٤] احتجاج على الكفار، فإن قيل: كيف يحتج عليهم بإعادة الخلق، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب: أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة، وفي ذلك إبطال لربوبيتهم»[(٢)].

قلت: الأحسن من هذا أن يقال: إن الله احتج على الكفار بالإعادة، لأنهم معترفون أن الله الذي ابتداء الخلق، والإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

الوجه الخامس: أن الله تعالى احتج على منكر البعث بابتداء الخلق في النشأة الأولى، كما في آية يس، مما يدل على إقرارهم بالخلق، وقد ذكر هذا المعنى الملطي والشهرستاني كما تقدم.

وذكره ـ أيضاً ـ أبو الحسن الأشعري ـ فيما نقله عنه ابن فورك ـ فقد قال: «وكان يقول في النوع الآخر من الاستدلال: كنحو ما ذكر الله تعالى من

---

(١) الملل والنحل (٣/ ٢١٩- بهامش الفصل).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٧٠).

التنبيه لمنكري الإعادة على الاستدلال بالابتداء على الإعادة لما قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١] قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢] وقال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧] **في كل ذلك ينبههم على الاستدلال بالانتهاء على الابتداء الذي أقروا به واعترفوا بصحته**، فأراهم أن ما صلح للابتداء من القدرة فهو يصلح للإعادة»[1].

قال العمراني: «ويستدل على البعث من القبور بالآيات التي أرشد الله الخلق إليها على ذلك، فمنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧] فنبه الله الخلق على الاستدلال بإعادته الخلق بابتدائه لخلقهم؛ **لأنهم قد أقروا بأنه خلقهم ابتداء**؛ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الزمر:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦]».

- ثم ذكر خلاف العلماء في الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ على ماذا يعود؟ -

ثم قال: «وقال قوم: الهاء لله، ومعناه: وهو أهون عليه عندكم فيما تعالجون أنتم؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يعمل عملاً فكر فيه وتثبت فيه كيف يعمله طويلاً أو قصيراً، فإذا عمله ثم أراد إعادته رده بلا تفكر ولا تثبت؛ أي: **فأنتم قد أقررتم بابتداء الخلق وهو عندكم أشد من إعادته، فمن أقر**

---

(١) المجرد لمقالات الأشعري (٣٠٤).

بابتداء الخلق فهو أحرى أن يقر بالإعادة.

ومثل هذه الآية في الاستدلال قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٧٧-٨٠].

وسبب نزول هذه الآية: أن أُبيّ بن خلف بن وهب الجمحي أخذ عظماً قد نخر بيده وجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، تزعم أن الله يحيي الموتى بعد أن كانوا عظاما بالية وتراباً، أترى الله يحيي هذا بعد أن أرم؟!. وجعل يفتته بيده، فقال له النبي ﷺ: «**يحيي الله هذا، ويميتك ثم يبعثك ثم يدخلك نار جهنم**» فأنزل الله هذه الآية ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآية، **فاحتج الله عليهم بابتدائه لخلقهم الذي أقروا به**، وأنه يحييهم بعد أن صاروا عظاما رميماً كما أنشأها أول مرة، ثم أخبر عن صنعه الذي يشاهدونه فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ »(١).

قال الفخر الرازي - في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [النمل: ٦٤] -: «وهم منكرون للإعادة. جوابه: **كانوا معترفين بالابتداء**، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية»(٢).

❁ **الأصل الثاني**: (الألوهية) و(الربوبية) لفظان تارة يجتمعان في المعنى، وتارة يفترقان، مثل لفظ (الفقير) و(المسكين).

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «اعلم أن (الربوبية) و (الألوهية)

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١/ ١٢٥ - ١٢٨).

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٨١).

يجتمعان ويفترقان، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ ـ ٣] وكما يقال: رب العالمين وإله المرسلين.

وعند الإفراد يجتمعان؛ كما في قول القائل: من ربك؟

مثاله: الفقير والمسكين نوعان في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ونوع واحد في قوله ﷺ: «افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» وإذا ثبت هذا؛ فقول الملكين للرجل في القبر: «من ربك» معناه: من إلهك؛ لأن توحيد الربوبية التي أقربها المشركون ما يمتحن أحد بها، وكذلك قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالربوبية في هذا هي (الألوهية) ليست قسيمة لها كما تكون قسيمة لها عند الاقتران، فينبغي التفطن لهذه المسألة»[(١)].

وهذه على سبيل الإجمال، وأما على التفصيل[(٢)]، فيقال:

ـ عند انفراد الربوبية تدخل الألوهية فيها وتكون شاملة لها، كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠] وقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف: ٣٨].

وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ

---

(١) مؤلفات الشيخ (٧/ ١٧، ١٢١ - ١٢٢).

(٢) انظر: كتاب حقيقة التوحيد والفروق بين الربوبية والألوهية (ص ١٠٥ - ١١١).

ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، وحديث سؤال الملكين الإنسان في قبره: من ربك؟

ـ وعند إنفراد الألوهية فالربوبية تدخل فيها، كقوله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**».

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولو لم تشمل كلمة (لا إله إلا الله) توحيد الربوبية والأسماء والصفات لكانت جميع دعوات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا تشمل الدعوة إليهما، وهذا أمر ظاهر البطلان.

ـ وأما إذا اجتمعا فيكون لكل لفظ معناه الخاص، فالربوبية وصف الرب وفعله، والألوهية وصف العبد وفعله، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ ـ ٣].

فهذه قرينة لفظية.

وقد تكون القرينة حالية، فترِد الألوهية، والربوبية غير داخلة فيها، كقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والقرينة الحالية في الآية الأولى: أن كلامهم وخطابهم لموسى وقع بعد خلقهم، ومن غير المعقول أن يقولوا اجعل لنا خالقاً، وإنما أرادوا بالإله المعبود الذي يعكف عليه الكفار يرجون منه الشفاعة والبركة ونحو ذلك مما يرجوه الكافرون من أصنامهم.

والقرينة في الآية الثانية: أنه لا يمكن أن يكون اتخذ هواه خالقاً، وإنما المراد أنه جعل هواه مطاعاً متبعاً.

قال ابن عباس: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان.

ـ وترد الربوبية والألوهية غير داخلة فيها كقول إبليس - بعد أن أعلن العصيان -: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦].

ـ وترد الربوبية بمعنى بعض أنواع الألوهية، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

فهذا الأصل وما ذكر من فروعه يتوافق وينسجم مع ما ذكره المفسرون في تفاسيرهم لهذا الآيات.

وبهذا الأصل تُردُّ كثير من شبه القبوريين.

كاحتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران ٨٠]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّاْ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف: ٣٨] ـ على أن الكفار ما كانوا يقرون لله بالربوبية.

فهذه الآيات يجاب عنهم بالأصل المذكور، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]. فسرها بعض المفسرين

بالطاعة، وقال آخرون: السجود[(١)].

فهما تفسيران للربوبية ببعض معاني الألوهية.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]: معناه: أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحله الله»[(٢)].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فهو كالذي قبله «يحتمل أن يكون اتخاذهم الأرباب بمعنى صرف شيء من العبادة إليهم أو بمعنى اتباع ما شرعوا لهم من تحريم الحلال وتحليل الحرام»[(٣)].

ويدل على هذا ما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآية من أن أحبار اليهود والنصارى من أهل نجران قالوا لرسول الله ﷺ ـ حين دعاهم إلى الإسلام ـ: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أمرني» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إلى قوله ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

---

(١) جامع البيان (٣/ ٣/ ٣٠١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤ / ٦٨).

(٣) صيانة الإنسان (ص ٤٥٠).

[آل عمران: ٧٩، ٨٠]»[١].

وأما قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] ففسر بالطاعة في التحليل والتحريم. قال البغوي: «فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله استحلوا ما أحلوا وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب، روي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك» فطرحته، فلما انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ﴾ حتى فرغ منها، قلت: إنا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟» قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[٢].

فهذا تفسير مرفوع عن النبي ﷺ للربوبية بالطاعة في التحليل والتحريم، فهو تفسير للربوبية ببعض أنواع الألوهية.

ثم إن كلامنا في مشركي العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ، والآيات المذكورة ـ الثلاث ـ وغيرها في حق غيرهم من مشركي أهل الكتاب، فلا يصح الاستدلال بها على أن مشركي العرب لم يكونوا مقرين بتوحيد الربوبية، على أن كفر أهل الكتاب لم يكن بجحود الله أو جعل شركاء لله في الربوبية، وهذا باتفاق المتكلمين في الملل والنحل، وهذه قرينة حالية تدل على أن المراد بالربوبية. الألوهية أو بعض أنواعها.

أما قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٦٤]

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٩٨ط. دار عالم الكتب).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٢٨٥).

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠]، فالربوبية في الموضعين تدخل فيها الألوهية؛ والمعنى ـ في الآية الأولى ـ: قل يا محمد للمشركين: أغير الله أبغي معبوداً غير الله. قال المحلي في (تفسير الجلالين: «﴿أَبْغِى رَبًّا﴾ إلهاً أي: لا أطلب غيره.

والمعنى في الثانية: إلا أن يقولوا معبودنا الله وحده لا شريك له.

قال ابن جرير: «قوله ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: لم يخرجوا من ديارهم إلا بقولهم: ربنا الله وحده لا شريك له»(١).

وأما قوله: ﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ فمعناه: إلهي ومعبودي، وليس كما زعم القبوريون: أن فيها دليل على أن المخاطب ينكر الرب، ويدل على هذا سياق الآية من عدة وجوه:

الأول: قول المخاطب نفسه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

الثاني: احتجاج المؤمن عليه بالخلق مما يدل على إقرار المخاطب، كما في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

الثالث: قول المخاطب الكافر بعد دخول جنته وهي خاوية على عروشها: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] وهذا لا يقوله جاحد، وإنما يقوله مشرك.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٧٧).

الرابع: قول الموحد: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨] مما يدل على أن مخاطبه ليس جاحداً.

ومن شبه القبوريين التي يجاب عنها بهذا الأصل:

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] فقد احتجوا به على أن المشركين جعلوا لله شركاء في ربوبيته.

ويجاب عن هذه الشبهة: بأن المراد بالأرباب: الآلهة المعبودة.

ويدل على هذا أنه تعالى قال في الآية التالية ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وعلى هذا أئمة التفسير، قال ابن جرير: «قوله ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، يقول: أعبادة أرباب شَتَّى متفرقين وآلهة لا تنفع ولا تضر خير، أم عبادة الله المعبود الواحد الذي لا ثاني له في قدرته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، فذلله، وسخره، فأطاعه طوعاً وكرهاً»(١).

وعلى كل فكلامنا في مشركي العرب، والآية في قوم يوسف فلا يصح الاستدلال بها على عدم إقرار كفار قريش بربوبية الله لوكان فيها دلالة على ذلك، كيف ولا دلالة في الآية على مبتغاهم؟!

ومن شبه القبوريين: احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، وحديث سؤال الملكين، وقوله ﷺ: «قل ربي الله ثم استقم».

---

(١) المصدر السابق (١٣/ ١٦٤).

فهذه أربع شبه احتجوا بها على أن لا فرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ وذلك أنه اكتفى بالربوبية للنجاة، مما يدل على أن القول بأحد التوحيدين قول بالآخر.

والجواب بأنه قد تقدم أن (الرب) و (الإله) من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وكان لكل منهما معنى، وإذا افترقت اجتمعت، وكان اللفظ شاملاً للآخر.

وهذه النصوص المحتج بها هي من هذا القبيل، فلم يقتصر على (الربوبية) لكون (الرب) عين (الإله) كما يدعي القبوريون، وإنما لكونها عند الإفراد تكون شاملة للألوهية.

و(الرب) و(الإله)، وإن كان لكل منهما معنى يخصه كما تقدم، فإن دلالتهما على ذات واحدة لا يخلو من ثلاث حالات[1].

الحالة الأولى والثانية: أن (الإله) هو (الرب) نفسه، وهذا باعتبار واقع الأمر، وفي اعتقاد الموحدين.

الحالة الثالثة: بالنظر في اعتقاد المشركين، فهل (الإله) هو (الرب)؟

هذا موضع النزاع بيننا وبين القبوريين: فهم يرون أن (الإله) هو (الرب)، والصواب أن المشركين من الأمم الماضية، وهذه الأمة لا يسلمون بذلك، ولذا ذكر القرآن عنهم في مواضع كثيرة إقرارهم لله بربوبيته مع استنكارهم لوحدانيته في ألوهيته سبحانه وتعالى.

وهذه النصوص جاءت باعتبار واقع الأمر، فالمقصود بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: ألست بربكم وإلهكم؟!

---

(١) صيانة الإنسان (ص ٤٣٩، ٤٤٧).

قال السهسواني: «يدل عليه أثر ابن عباس: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق. . . .» الحديث

وأثر أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ الآية، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لاإله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلي لينذروكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي، قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة. . .»(١).

وكذلك سؤال الملكين في القبر: من ربك؟ هو سؤال عن الرب والإله المعبود، ويدل عليه ما جاء في البخاري: «إذا أقعد المؤمن في قبره أُتِي، ثم شهد: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(٢). فهذه الرواية تفسر الرواية الأخرى، وتبين أن سؤال الملكين ليس عن الربوبية فقط، بل سؤال عنها وعن الألوهية التي هي لازمة لها.

❁ **الأصل الثالث**: إنكار بعض الكفار لربوبية الله، لا يعني أن هذا اعتقادهم الذي

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب ماجاء في عذاب القبر (٣/ ٢٣١ ح ١٣٦٩ - فتح الباري) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

يعتقدون ويضمرون حقيقة، فضلاً عن أن يكون اعتقاد جميعهم.

وهذا أصل يرد به على من احتج بقوله تعالى - فيما ذكره عن فرعون ـ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقول النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن هؤلاء لم يكن هذا اعتقادهم، بل كان قول كبر وغطرسة، كما بيَّن الله تعالى في قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

❁ **الأصل الرابع**: ذكر الربوبية في خطاب المشركين ليس لتكذيبهم وإنكارهم لها، وإنما لتذكيرهم بما أقروا به وللاحتجاج عليهم بهذا الإقرار.

قال ابن عطية: «وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته؛ إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها فذكر ذلك حجة عليهم».

وقال النسفي: «احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم؛ لأنهم كانوا مقرين بذلك، فقيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا الأصنام».

وقد تقدم كلام ابن جرير والسمعاني وغيرهما من أهل العلم[(١)].

وبهذا الأصل يجاب عن مجموعة من شبه القبوريين؛ كاحتجاجهم بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠].

---

(١) انظر: أقوالهم في النوع الرابع من أدلة القاعدة (ص ٢٤- ٢٨).

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

❁ **الأصل الخامس**: أمَرَ الله الكفار بالتفكر في أفعاله وصنائعه ليستدلوا بها على انفراده في الألوهية والعبادة لا ليدعوهم إلى ربوبيته، كما أمر المؤمنين بذلك لِيَزْدادوا يقيناً وإيماناً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

وهذا أصل يرد به على من احتج بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٢]. وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٤].

أقول: هذا أصل يُردُّ به على من احتج بهذه الآيات قائلاً: «إن الله أمرهم في القرآن الكريم أن يتفكروا في خلق السموات والأرض ليعرفوا أن لها إلها

خلقها وأوجدها فيؤمنوا به»(١)

وهذا فهم منكوس، إن لم تكن مغالطة وتلبيس!!

قال ابن جرير: «فإن قال قائل: وكيف احتج على أهل الكفر بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، في توحيد الله، وقد علمت أن أصنافاً من أصناف الكفرة تدفع أن تكون السموات والأرض وسائر ما ذكر في هذه الآية مخلوقة؟

قيل: إن إنكار من أنكر ذلك غير دافع أن يكون جميع ما ذكر - تعالى ذكره - في هذه الآية دليلاً على خالقه وصانعه، وأن له مدبراً لا يشبهه، وبارئاً لا مثل له، وذلك وإن كان كذلك، **فإن الله إنما حاج بذلك قوماً كانوا مقرين بأن الله خالقهم، غير أنهم يشركون في عبادته** عبادة الأصنام والأوثان فحاجهم - تعالى ذكره - ...»(٢) إلى آخر كلامه.

الأصل السادس: أن ما جاء في النصوص عن المشركين من إثبات الشراكة والأنداد لله تعالى إنما هو في الألوهية ـ العبادة ـ وليس الربوبية.

وقد نص على هذا المعنى: سليمان الجمل فقد ذكر أن المساواة وقعت في المحبة بين الله والأصنام، وأما الربوبية فقد «**كانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً**»(٣).

وهذا أصل مهم يجاب به عن جملة من شبه القبوريين؛ كتعلقهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله تعالى

---

(١) انظر: التنديد بمن عدد التوحيد (ص/ ٨).

(٢) جامع البيان (٢/ ٢/ ٦٥).

(٣) سيأتي كلامه، انظر: (ص ١٣٨) من هذا الكتاب.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤] وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، وقوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، وقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٦].

قال العلامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي (ت ٨٤٥ هـ) «وأصله ـ أي الشرك في توحيد الإلهية ـ الشرك في محبة الله تعالى، قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر سبحانه: أنه من أَحبَّ مع الله شيئاً غيره كما يحبه فقد اتخذ نداً من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله.

وهذا هو «العدل» المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة، **فيُسوُّون بينه وبين غيره في الحب والعبادة، وكذلك قول، المشركين ـ في النار ـ لأصنامهم** ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

ومعلوم قطعاً: أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرِّين بأن الله تعالى وحده هو ربهم

وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها له وحده، وأنه رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، وأنه سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه.

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة»[١].

وقال الدكتور راجح الكردي: «**والوحدانية قسمان**:

القسم الأول: توحيد الربوبية والخالقية والرازقية ونحوها.

ومعناه: أن الله وحده هو الخالق للعالم، وهو الرب وهو الرازق لهم.

وهذا الأصل يقر به المشركون. وجاء المنهج القرآني يقرر هذا الأصل، وقد بيَّن القرآن عدم إنكار المشركين عموماً لهذا النوع من التوحيد، فقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

القسم الثاني: توحيد العبادة.

ومعناه: إفراد الله تعالى وحده بجميع العبادات، وهذا هو الذي جعل المشركون فيه لله شركاء.

وكان مقصود المنهج القرآني مركزاً على هذا القسم من التوحيد، وأقام على ثبوت هذا الأصل مثل قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]»[٢].

❁ **الأصل السابع**: جحودهم لبعض صفات الله وأسمائه لا يعارض

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٤٦).

(٢) علاقة صفات الله تعالى بذاته (ص ٢٩ - ٣٠).

إقرارهم بربوبيته تعالى.

وهذا أصل يُرَدُّ به على من احتج بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] على أن المشركين يجحدون وجود الله.

فهذا الأصل جواب مجمل عن هاتين الشبهتين.

وأما الجواب تفصيلاً فمن وجوه:

الوجه الأول: يقال: ليس في الآية الكريمة إنكاراً للرحمن، وإنما فيها استفهام عنه (بما) التي يسأل بها عن حقيقة الشيء، والمصدق بوجود الشيء يسأل عنه، لا خلاف بين اللغويين في ذلك.

الوجه الثاني: لو كان في الآية دلالة على جحودهم بالرحمن، فهل هو جحود لذاته أم جحود لتسميته بالرحمن؟

الجواب: الثاني، ويدل عليه: ما جاء في البخاري في خبر صلح الحديبية أن الرسول ﷺ لما أمر الكاتب أن يكتب: «**بِسْم الله الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**»، فقال سهيل بن عمرو: أَمَّا الرحمن فو الله ما أدري ما هو، ولكن اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَ كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فقال النبي ﷺ: «**اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ...**»[(١)].

وهذا يدل على أن جحوده للاسم فقط لا للخالق، بدليل: طلبه كتابة (باسمك اللهم)، وهذا يدل على إيمانهم بالله، بل وبأنهم يستعينون به في أمورهم.

الوجه الثالث: أن إنكارهم للاسم ليس جهلاً به، وإنما عناد وتعنت.

قال ابن جرير الطبري: «**وقد زعم بعض أهل الغباء: أن العرب كانت لا**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (ح٢٧٣١، ٢٧٣٢).

تَعْرِفُ الرحمن، ولم يكن ذلك في لغتها، ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] إنكاراً منهم لهذا الاسم، **كأنه كان محالاً عنده أن يُنْكِرَ أهل الشرك ما كانوا بصحته عالمين**، أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعني: محمدا ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهم مع ذلك به مكذبون، ولنبوته جاحدون، فيُعْلَم بذلك أنهم قد كانوا يُدافِعون حقيقة ما قد ثبت عندَهم صحتُه، واسْتَحْكَمَت لديهم معرفتُه، **وقد أُنْشِد لبعض الجاهلية الجهلاء**:

ألا ضرَبَت تلك الفتاةُ هَجِينَها   ألا قَضَبَ **الرحمنُ** ربي يَمِينَها

وقال سلامة بن جَنْدَل السعدي:

عجِلْتُم علينا عَجلَتَيْنا عليكُمُ   وما يشاءِ **الرحمنُ** يعقِدْ ويُطْلِقِ»[١]

قال ابن كثير: «**وقد زعم بعضهم: أن العرب لا تعرف الرحمن**، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية ـ لما قال رسول الله ﷺ لعلي اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» ـ فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري. وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾ [الفرقان: ٦٠].

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله بالرحمن...»[٢] ثم ذكر البيتين السابقين.

---

(١) جامع البيان (١/ ١/ ٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٩ط. دار الكتب).

قلت: وقد تقدم لنا قول حاتم:

كلوا من رزق الإله وأيسروا فإن على الرحمن رزقكم غدا

وجاء عند اليعقوبي: «أن تلبية قيس عيلان: (لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمان، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان)»(١).

وأن تلبية عك والأشعريين كانت:

نحج للرحمان بيتاً عجباً مستتراً مغبباً محجباً(٢)

❖ ❖ ❖

الشبهة الثانية(٣) قالوا إن الآيات التي احتججتم بها جاء التعبير القرآني فيها بقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ وهذا يحمل معنى الاستقبال المنافي للإقرار الدال على المعرفة، فالآيات فيها حجج تحث المشركين على الإيمان بأن الله وحده الرازق الذي يملك السمع والأبصار، وهو وحده الذي يحيي ويميت، ولو كان المشركون يعتقدون ذلك في الله اعتقاداً جازماً لكان النص القرآن جاء معبراً عن حالهم بقوله: (ليقولن الله) وذلك كما في قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا خلاف ما ذكره كبار أئمة التفسير كابن جرير وغيره، فقد جعلوا آية يونس دالة على إقرار المشركين لله بهذه الأمور، ومن

(١) المفصل في أحوال العرب (١/ ٢٢٥).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٤٠، ٣٧٧).

(٣) كشف الستور عما أشكل من أحكام القبور (صـ ٣١).

هؤلاء إمام متأخري الأشاعرة الفخر الرازي، وقد تقدم كلامه.

الوجه الثاني: أن القبوري لا يخالف في أنهم يقرون لله بخلق السموات والأرض؛ لما ذكره الله عنهم أنهم قالوا ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ إذا سئلوا عن ذلك.

وأما الرزق وملك السمع والأبصار وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي وتدبير الأمر فلا يسلم بإقرار المشركين بها لله، وانتزع ذلك من دلالة السين في قوله ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾.

فيقال: إن (السين) للاستقبال، وهذا مقرر في العربية، والمشهور أن الفرق بينها وبين (سوف) أنها للتنفيس، ومعناه: الزمن القريب، وسوف للتسويف، ومعناه: الزمن البعيد.

إذا فالسين للاستقبال القريب، وقد أتى بها للدلالة على تأخرهم في التصريح بالإقرار لله بربوبيته الذي هو اعتقادهم لئلا تتساقط حججهم وتلزمهم الوحدانية في العبادة التي دعاهم إليها رسول الله ﷺ، وليس كما زعم صاحب الشبهة أن (في الآيات معنى الاستقبال المنافي للإقرار الدال على المعرفة).

ويدل على ما ذكرت: أن الأمر الذي اعترف القبوري أن المشركين يقرون به وهو خلق السموات والأرض ـ قد جاء في القرآن جواب المشركين عنه بقوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧]، والرب هو الخالق الموجد لعباده.

وهذا يدل على أن ما ذكرنا من أنهم قد يخفون اعتقادهم ولا يتعجلون في إظهاره بألسنتهم لما يلزم عن هذا الإقرار من الاعتراف والإقرار لله بوحدانيته في العبادة التي رفضوها وقاتلوه من أجلها.

يؤكده:

الوجه الثالث: أن خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر (وفيه معنى التدبير) وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها (وهو الرزق) قد جاء في القرآن الإخبار عن اعتقادهم فيه بقوله (ليقولن الله) وهي الصيغة التي يقر القبوري بأنها تدل على أن ذلك اعتقاده، كما في قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٣].

الوجه الرابع: أن هذا القول الذي ذكرنا هو ظاهر القرآن، وخلافه لا يمكن إلا بتكلف تقدير، وقد نص على هذا الثقفي الغرناطي، كما في كلامه الآتي قريباً.

الوجه الخامس: أن من لم يجعل الآية في تذكير المشركين بإقرارهم، وإنما المقصود بها الاعتبار والاستدلال بمصنوعاته على انفراده بالخلق، فإنه لم يجعله الغاية - كما يريد القبوري - وإنما جعله دليلاً على إفراده بالألوهية، كما ذكر ذلك العلامة الثقفي الغرناطي عند حكاية لهذا القول، فقد قال: «قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] ثم قال في الآية التي تليها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٧] وفي الآية التالية: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٩] للسائل أن يسأل عن الوجه فيما أعقبت به كل آية من هذه؟

والجواب عن ذلك بوجهين:

أحدهما: أن كل توبيخ أعقب به في الآيات الثلاث مناسب للتذكير الواقع قبله المترتب عليه الجواب بالتوبيخ.

أما الأولى فإنه لما قيل فيها ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤﴾ [المؤمنون: ٨٤] والمراد: الأرض ومن فيها وما فيها وما اشتملت عليه من بحارها وأنهارها وأشجارها وجبال إرسائها ومختلف عوالمها، وما انطوت عليه واشتملت، هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [المؤمنون: ٨٤] فوقع الاجتزاء بمن فيها عما فيها إيجازاً لحصول ذلك في قوة الكلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] وليس المراد في هاتين الآيتين تخصيص ما تقع عليه «من»، فكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [المؤمنون: ٨٤] إذ مقصود الآية الاعتبار والاستدلال بمصنوعاته سبحانه على انفراده بالخلق والأمر، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات: ٢٠] فكأن قد قيل لهم: إذا أقررتم بأن ذلك كله ملك الله تعالى وخلقه فهلا اعتبرتم بما في الأرض من الآيات، واستدللتم بذلك على نفي الشريك والند للمنفرد بملك الأرض والسماوات إذ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] ثم لما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون: ٨٦] وذلك الخلق أعظم من خلقكم وخلق الأرض الحاملة لكم، وأخبر بقوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٧] فقل لهم: إذا أقررتم أنه مالك ذلك على عظيم أمره أفلا اتقيتموه إذ أنتم في قبضته بإقراركم، ثم لما قال ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾ [المؤمنون: ٨٨] **فبلغوا**

بالإقرار بذلك مع عظيم ما قرروا عليه قبله مبلغ غاية توجب الإيمان للمعتبر بما قيل لهم وذكروا به من علم هذا، وقيل لهم: من علم هذا ثم لم يطع من له ذلك ويفرده تعالى بالعبادة، فهو مسحور ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] **أي: كيف تسحرون؟**

والجواب الثاني: وهو أجرى مع ظاهر الآية، من غير تكلف تقدير، وليس بخلاف للأول إلا في عبارة، وهو أن تقول: إن تذكيرهم ورد أولاً بذكر ما كانوا يقرون ولا يتوقفون فيه، وهو ملكه سبحانه الأرض ومن فيها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] **والخالق مالك لما خلقه، فكأن قد قيل لهم: إذا علمتم بانفراده سبحانه بذلك فهلا أفردتموه بالعبادة واستدللتم بالبدأة على العودة** ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ ؟

ثم ذكروا بربوبيته سبحانه وملكه السماوات السبع والعرش، **فاعترفوا إلى اعترافهم بما تقدم وإقرارهم بملكه لما ذكر وقدرته وقهره.** ولو سبقت لهم سعادة لكان تذكرهم لذلك يؤثر خوفهم من عذابه، فلما لم يقع ذلك منهم، قيل لهم ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧] ثم ذكروا بعظيم سلطانه تعالى، وعلو قهره لجميع الموجودات، وكونها في قبضته، وأنه لا حكم لأحد عليه تعالى، فقال ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨] **ثم ذكر اعترافهم بهذا** في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٩] فلما تم تقريرهم على جميع ما تقدم مما ذكروا به، **واعترافهم بكل ذلك**، ولم يعقبهم إقرارهم ولا اعترافهم الإيمان والانقياد، كانوا كمن فقد عقله أو سحر، فاختل نظره وعقله، فقيل لهم: كيف تسحرون ما بالكم أنى تستحرون؟ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[المؤمنون: ٩١- ٩٢] فقد وضح تناسب هذا كله، وتبين التحامه»[١].

الوجه السادس: أن هذه الطريقة طريقة أهل الأهواء في الأخذ بالمتشابه وترك المحكم، فقد انتزعوا وجهاً ضعيفاً من دلالة (السين) للاستشهاد به على الشبهة، وتركوا الوجه الصحيح الذي يتفق مع عشرات النصوص الدالة على إقرار المشركين بالربوبية لله تعالى.

❖ ❖ ❖

الشبهة الثالثة: أن إقرار المشركين واعترافهم بأن الله هو الخالق الرازق منزل القطر من السماء. . . . إلى غير ذلك مما ذكره الله عنهم إنما هو قول باللسان لا يعتقدونه ولا يرون صحته، وقد احتجوا لذلك بدليلين:

الأول: قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧].

الثاني: قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾ [التوبة: ٨].

وهذا الاحتجاج ـ أعني الثاني ـ احتجاج يدل على إفلاس القوم إذ لم يجدوا ما ينصر قولهم إلا هذه الآية، وهي واضحة في دلالتها على أن المشركين إذا قدروا عليكم لا يرحموكم، فلا تغتروا بما يظهر من ألسنتهم في حال ضعفهم، فإن قلوبهم تبغضكم، ويحبوا النيل منكم.

فالآية في علاقة المؤمنين بالمشركين عهداً وحرباً ومحبة وعداء، وليس كما زعم القبوري بأنها في الاعتراف لله بربوبيته.

على أن الآية عامة في جميع المشركين بما فيهم أهل الكتاب ـ ولا قائل بأنهم أنكروا ربوبية الله ـ بخلاف الآية الثانية فهي خاصة باليهود، قال النحاس:

---

(١) ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٧٠ - ٣٧١).

«ليس هذا تكريراً، ولكن الأول لجميع المشركين، والثاني لليهود خاصة»[(١)].

وأما الآية الأولى فقد اختلف المفسرون في المراد بالعهد والمقصودين به على عدة أقوال، قال ابن كثير: «وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه.

فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها وإتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم.

ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس، ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً.

وهذا اختيار ابن جرير ـ رحمه الله ـ وهو قول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم.

قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد ثبتت لهم صحته بالأدلة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨/ ٥٢).

وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق. وروي عن مقاتل بن حيان ـ أيضاً ـ نحو هذا، وهو حسن.

وإليه مال الزمخشري فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله .﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ .

وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ الآيتين.

ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به. وهكذا روي عن مقاتل بن حيان ـ أيضاً ـ حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره»[(١)] .

قلت: يشهد للقول الثاني قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وبهذا يتبين أن قول بعضهم ـ احتجاجاً بهذا الدليل ـ: «وكيف يتخيل ابن تيميه وأتباعه أن الكفار كانوا مؤمنين بالله موحدين به توحيد ربوبية، وهم قد وصفهم سبحانه بأنهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]؟!

فما هو هذا الميثاق، وهذا العهد؟

أليس هو العهد الأول في عالم الذر ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»[(٢)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٠).

(٢) كلمة هادئة في بيان خطأ التقسيم الثلاثي للتوحيد (ص ١٨).

انتقاء جر إليه التعصب المقيت للمذهب الفاسد.

ثم على القول بأن المراد بالعهد الميثاق الأول فليس في الآية حجة للقبوري؛ وذلك أن لفظ (الرب) إذا أفرد دخل فيه (الإله) كما أن العكس صحيح كما تقدم بيانه.

فالله أخذ عليهم الميثاق بأنه ربهم الخالق والملك المدبر والإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه لا شريك له. هذا معنى الميثاق الأول.

وبه يعلم أن قول القبوري: «فهل أخذ الله عليهم العهد الأول بعبارة: ألست بإلهكم» تهويل لا فائدة منه ولا طائل وراءه سوى ذر الدماء في أعين بسطاء الأتباع لحجب شمس الحقيقة عنهم.

ودلت النصوص على نقضهم هذا الميثاق بصرف العبادة لغير الله، فقالوا للرسل ـ لما دعتهم لوحدانية العبادة ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

وأما الربوبية فما استنكفوا عن توحيد الله بها، وقد ذكر القرآن عنهم هذا الاعتقاد بأكثر من أسلوب وفي مواضع كثيرة.

❖ ❖ ❖

الشبهة الرابعة: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٦].

احتج بهذا الآية بعضهم[1] على أن فيها دليلاً على عدم إقرار المشركين لله بربوبيته، والحقيقة أنه لا حجة فيها للمخالفين بل هي من حججنا عليهم

---

(١) التنديد بمن عدد التوحيد (ص ١١).

من وجوه:

الوجه الأول: أن النقاش الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين لم يكن في الرب وإثبات ربوبيته سبحانه وتعالى، وإنما كان في رسالة صالح وما أتى به من التوحيد، كما قال تعالى ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

الوجه الثاني: أن صالحاً عليه السلام احتج عليهم بربوبيته سبحانه وتعالى لإثبات وحدانيته في العبادة، فذكرهم بما من عليهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

ولو لم يكونوا أهل إقرار بربوبية الله لما احتج عليهم بها.

الوجه الثالث: أن نبي الله صالحاً ما بعث لقومه إلا لدعوتهم لألوهية الله كما قال ـ حين بعث إليهم ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣].

❖ ❖ ❖

القاعدة الثانية

القاعدة الثانية

أن المشركين كانوا يعبدون الله مع ما يعبدون من الآلهة

أولاً: شرح القاعدة:

تقدم: أن الله تعالى «بيّن أن الرسول ﷺ إذا سألهم عن مدبِّر هذه الأحوال، فسيقولون: إنه الله ﷻ .**وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به**، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام: إنها تقربنا إلى الله زلفى، وإنهم شفعاؤنا عند الله. وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فعند ذلك قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، يعني: أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان **شركاء لله في المعبودية**، مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر البتة»[1] قاله الرازي .

فالشركاء لله في المعبودية لا في الخلق والتدبير، حتى هؤلاء الشركاء جعلوهم مقهورين تحت ربوبية الله وفي تصرفه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «**ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم**: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]، **قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون**. قال: **فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي**، تقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٩/ ٩١)، ويراجع: (١٨/ ٢٨٨).

لك، **إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك**. المشركون كانوا يقولون هذا»[١].

ولهذا ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٦] ثم بين الله صنيعهم فقال: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وفعلهم هذا لاعتقادهم أن الآلهة ضعيفة فقيرة، والله غني، كما بين ذلك أئمة التفسير.

وحجوا إلى بيت الله الحرام، فإذا قضوا مناسكهم أقاموا بمنى وسألوا الله أمر الدنيا، ولم يطلبوا من أمر الآخرة شيئاً، كما ذكر الله تعالى - ذلك عنهم - في قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وبهذا فسر أئمة التفسير هذه الآية:

قال أبو بكر بن عياش: «كانوا يعني أهل الجاهلية يقفون، يعني: بعد قضاء مناسكهم، فيقولون: اللهم ارزقنا إبلًا، اللهم ارزقنا غنماً»[٢].

وقال أنس رضي الله عنه: «كانوا يطوفون بالبيت عراة فيدعون، فيقولون: اللهم اسقنا المطر، وأعطنا على عدونا الظفر، وردنا صالحين إلى صالحين»[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٨/ ١٣/ ٧٨) قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: سمعت ابن زيد... فذكره. وهذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢/ ٢/ ٢٩٩) قال: حدثنا أبو كريب، قال: سمعت أبا بكر بن عياش، فذكره.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢/ ٢/ ٢٩٩) قال: حدثنا تميم بن المنتصر، قال: أخبرنا إسحاق عن القاسم بن عثمان عن أنس، فذكره.

وكان تعظيمهم لله فوق تعظيم آلهتهم.

قال أوس بن حجر:

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله إن الله منهن أكبر[(١)]

ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: حلف بالله هؤلاء العادلون بالله جهد حلفهم، **وذلك أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وأصعبها وأشدها...**»[(٢)].

وصاموا واعتكفوا، وكانوا على كثير من شعائر الحنيفية.

وخلاصة دينهم: تعظيم الله وعبادته مع عبادة الآلهة، وبهذا كان إيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾، وإما إذا أفرد الله وحده بالعبادة كان منهم الكفر والتكذيب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ﴾ [غافر: ١٢] وقالوا - متعجبين -: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]. فاحتج عليهم جلَّ وعلا بإقرارهم بربوبيته، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال عكرمة: «أن تقولوا: لولا كلبنا لدخل علينا اللصُّ الدارَ، ولولا كلبنا صاح في الدار، ونحو ذلك. **فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئا، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة**، فقال: **كما لا شريك لي في خلقكم** وفي رزقي الذي أرزقكم، **وملكي إياكم، ونعمتي التي أنعمتها**

(١) الأصنام (ص/ ١٧).

(٢) جامع البيان (٥/ ٧/ ٣١١).

عليكم = **فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة**، ولا تجعلوا لي شريكاً ونداً من خلقي، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم مني»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾: جملة في موضع الحال، أي: يعطي الناس ما يأكلونه مما أخرج لهم من الأرض: من حبوب وثمار وكلأ وصيد. **وهذا استدلال على المشركين بما هو مسلَّم عندهم؛ لأنهم يعترفون بأن الرازق هو الله، وهو خالق المخلوقات، وإنما جعلوا الآلهة الأخرى شركاء في استحقاق العبادة، وقد كثر الاحتجاج على المشركين في القرآن بمثل هذا**، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]»(٢).

❖ ❖ ❖

ثانياً: أدلة القاعدة:

تنوعت دلالة القرآن على هذه القاعدة، ونحن بمشيئة الله نذكر بعضها، ونجملها في أنواع:

النوع الأول: إخبار الله عنهم بأنهم يشهدون أن معه سبحانه آلهة أخرى.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ١/ ١٦٣) قال: حدثني محمد بن سنان قال: حدثنا أبو عاصم عن شبيب عن عكرمة.. فذكره.

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٥٨).

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

«فهذه الآية الكريمة أفادت أن المشركين يشهدون بأن الله إلههم، ولكنهم يقولون: إن معه آلهة أخرى. وهذه الشهادة منهم أكدت بالقسم وبأداة التأكيد (إنَّ)، وأكدت بـ(اللام)»(١).

فلفظ (مع) في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾: يدل على أنهم مقرون بربوبية الله وكذا بألوهيته، لكن جعلوا معه شركاء فيها يتوجهون إليهم كوسائط توصلهم إلى الله تعالى وترفع حاجاتهم وتلبي طلبهم بالشفاعة لهم.

هذا اعتقادهم ودينهم.

وجاء مثل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٥-٩٦]، وقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣].

والآيات كثيرة.

---

(١) هذه مفاهيمنا (ص/ ١٠٩).

النوع الثاني: الآيات التي فيها أنها يساوون الله وآلهتهم في العبادة عموماً، أو في بعض أنواعها كالمحبة.

كقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ـ ٩٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال أبو إسحاق الزجاج: «وقوله ﷻ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: فأَعْلَمَ أن بعد هذا البيان والبرهان تُتَّخذ من دونه الأنداد، وهي الأمثال، **فأبان أن من الناس من يتخذ نِدًّا يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يأتي** بشيء مما ذكرنا، **وعنى بهذا مشركي العرب**. وقوله ﷻ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ **أي: يُسَوُّون بين هذه الأوثان وبين الله ﷻ في المحبة**.

وقال بعض النحويين: يحبونهم كحبكم أنتم لله، **وهذا قول ليس بشيء، ودليل نقضه** قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ والمعنى: أن المخلصين الذين لا يشركون مع الله غيره هم المحبون حقا»[1] ا.هـ.

وبهذا قال ابن كيسان[2].

وقال العلامة أحمد بن علي المقريزي: «وأصله - أي الشرك في الإلهية والعبادة - الشرك في محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (١/ ٢٣٧).

(٢) ذكره عنه القرطبي في تفسيره (٢/ ١٣٧).

فأخبر سبحانه: أنه من أحب مع الله شيئاً غيره كما يحبه ـ فقد اتخذ نداً من دونه، **وهذا على أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله.**

وهذا هو «العدل» المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، **والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيُسوُّون بينه وبين غيره في الحب والعبادة. وكذلك قول المشركين ـ في النار ـ لأصنامهم:** ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ـ ٩٨].

ومعلوم قطعاً: أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم، فإنهم كانوا ـ كما أخبر الله عنهم ـ مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ.

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة...»(١).

وقال أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: «﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيم الله والخضوع له، أي: **يحبون الأصنام كما يحبون الله،** يعني: **يسوون بينهم وبينه في محبتهم**؛ لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه. وقيل: يحبونهم كحب المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] من المشركين لآلهتهم؛ لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد، فيفزعون إليه ويخضعون له»(٢).

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص/ ٤٦-٤٧).

(٢) تفسير النسفي (١/ ١٠٦).

وقال الشربيني: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المشركون، ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره، ﴿أَندَادًا﴾ أي: أصناماً يعبدونها، ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ **بالتعظيم والخضوع** ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي: كحبهم له، كما قال الزجاج: **يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله، فسووا بين الله والأصنام في المحبة**، أو يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله»[1].

وقال سليمان الجمل في حاشيته على «تفسير الجلالين»: «قوله: (أي كحبهم له) أي: **يسوون بين حبهم وحب الله**، فالمصدر مضاف للمفعول، والفاعل محذوف.

فإن قيل: العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كمحبة الله؛ وذلك لأنه بضرورة العقل يعلم أن هذه الأوثان أحجار لا تسمع ولا تعقل، **وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً**، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فمع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكون حبهم لتلك الأوثان كحبهم لله، وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فكيف يعقل الاستواء في الحب؟

فالجواب: أن المراد كحب الله في الطاعة لها والتعظيم، كما أفاده المصنف، **والاستواء في هذه المحبة لا ينافي ما ذكرتموه**»[2].

النوع الثالث: الآيات التي فيها وصف حالهم بأنه إذا دعي الله وحده: كفروا، واشمأزوا من هذه الدعوة، وولوا مدبرين، وإذا أشرك به آمنوا.

كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ

---

(١) السراج المنير (١/ ١١٠).

(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (١/ ١٣٢).

تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

قال ابن جرير - في تفسير آية الزمر -: «يقول تعالى ذكره: **وإذا أفرد الله** جل ثناؤه بالذكر، فدعي وحده، وقيل: لا إله إلا الله = **اشمأزت قلوب الذين** لا يؤمنون بالمعاد والبعث بعد الممات، وعنى بقوله: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾: نفرت من توحيد الله، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يقول: **وإذا ذكر الآلهة** التي يدعونها من دون الله **مع الله**، فقيل: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى= إذ الذين لا يؤمنون بالآخرة **يستبشرون بذلك ويفرحون**»[(١)] ا هـ المراد.

وقال ـ في تفسير آية غافر ـ: «وفي هذا الكلام متروك اسْتُغْنِي بدلالة الظاهر من ذكره عليه، وهو: فأُجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، هذا الذي لكم من العذاب أيها الكافرون ـ ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، **فأنكرْتُم أن تكون الألوهية له خالصة**، وقلتم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: ٥].

﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾، يقول: **وإن يُجْعَلْ لله شريك تُصَدَّقوا** من جعل ذلك له، ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾. يقول: فالقضاء لله العلي على كل شيء، الكبير الذي كل شيء دونه متصاغرٌ له اليوم»[(٢)].

وقال الواحدي: «قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب. ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ **نكرتم وحدانيته** ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ **تصدقوا ذلك الشرك**....»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٢٤/ ١٠).

(٢) المصدر السابق: (١٢/ ٢٤/ ٤٨).

(٣) تفسير الواحدي (٢/ ٩٤٢).

وقال القرطبي: «و﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: وُحِّد الله وحده، ﴿كَفَرْتُمْ﴾ وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، **وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله»**[(١)] ا.هـ.

وبمعنى الآيتين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الصفة التي ذكرها الله عن المشركين نجدها في كثير من عباد القبور، قال العلامة محمود بن عبدالله الألوسي: «وقد رأينا كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين: يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم، ويطلبون منهم، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم واعتقادهم فيهم، ويعظمون من يحكي لهم ذلك، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده، ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل، وسرد ما يدل على مزيد عظيمه وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة، وينسبونه إلى ما يكره.

وقد قلت يوماً لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات وينادي: يا فلان! أغثني ـ فقلت له: قل يا الله!، فقد قال سبحانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فغضب، وبلغني أنه قال: فلان منكر على الأولياء.

وسمعت عن بعضهم أنه قال: الولي أسرع إجابة من الله عز وجل. وهذا من الكفر بمكان، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان»[(٢)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٥/ ١٩٥).

(٢) روح المعاني (٢٤/ ١١) وعنه: ابنه نعمان خير الدين الألوسي في جلاء العينين =

النوع الرابع: الآيات الآمرة بإخلاص الدين والعبادة لله .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: فاعبدوا الله أيها المؤمنون له، **مخلصين له الطاعة غير مشركين به شيئاً مما دونه**. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ولو كره عبادتكم إياه مخلصين له الطاعة الكافرون المشركون في **عبادتهم إياه** الأوثان والأنداد»(١).

وقال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥] ـ: «﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ يقول: هو الحي الذي لا يموت.... ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود بحق تجوز عبادته وتصلح الألوهية له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته، فادعوا الله أيها الناس مخلصين له الدين، مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهية، لا تشركوا في عبادته شيئاً سواه، من وثن وصنم، ولا تجعلوا له نداً ولا عدلاً»(٢).

وقال ـ عند قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ـ: «يعني: ونحن لله مخلصو

= (ص ٤٨٩)، وحفيده محمود شكري في غاية الأماني (٢/ ٣١٤ - ٣١٥).

(١) جامع البيان (١٢/ ٢٤/ ٤٩).

(٢) المصدر السابق: (١٢/ ٢٤/ ٨١).

العبادة والطاعة، لا نشرك به شيئاً ولا نعبد غيره أحداً، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل...»[١].

«ولفظ [الشرك] يدل على أن المشركين كانوا يعبدون الله، ولكن يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام»[٢].

قال السمعاني: «الإشراك هو الجمع بين الشيئين في معنى، **فالإشراك بالله هو أن يجمع مع الله غير الله فيما لا يجوز إلا لله**»[٣].

فإذا جاء النهي عنه بعد الأمر بعبادة الله مع أنه مقتضاها، دلَّ على أن المشركين خلطوا عبادته بعبادة غيره.

قال النووي ـ تعليقاً على قول النبي ﷺ: «**الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً**» ـ: «وأما قوله ﷺ «**لا تشرك به**» فإنما ذكره بعد العبادة؛ **لأن الكفار كانوا يعبدونه** تعالى في الصورة، ويعبدون معه أوثاناً يزعمون أنها شركاء، فنفى هذا، والله أعلم»[٤].

قال العلامة الألوسي: «.... مقتضى كونهم مشركين **أنهم يعبدونه سبحانه ـ أيضاً ـ لكن عن طريق الإشراك**، بل قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كما قص سبحانه عنهم، **يقتضي أنه جل مجده المعبود الحقيقي عندهم**، وقد يقال: إن الشارع أسقط مثل هذه العبادة عن درجة الاعتبار، فهم غير عابدين الله جل وعلا شرعاً، بل قيل: إنهم غير

---

(١) المصدر السابق: (١/ ١/ ٥٧٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٥٤).

(٣) تفسير القرآن (٢/ ١٢١).

(٤) شرح مسلم (١/ ١٦٢).

عابدين لغة ـ أيضاً ـ؛ لأن العبادة لغة: غاية الخضوع والتذلل، ولا يتحقق ذلك مع الشركة، ولو على الوجه الذي زعموه، فتأمل»[(١)].

النوع الخامس: أن الرسل في براءتهم من معبودات المشركين يستثنون رب العالمين، مما يدل على أنهم يعبدونه مع ما يعبدون.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

قال شهاب الدين القرافي: «فاستثناء الرب تعالى فيها من المعبودين، وذلك قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ **وهم كانوا يعبدون الله مع غيره من الأصنام؛ لأنهم كانوا مشركين لا جاحدين لله تعالى**، فلا يكون الاستثناء من غير الجنس»[(٢)] ا.هـ.

وقال في موضع آخر ـ عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ ـ: «كان قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام **يعبدون الله ويعظمونه كما كانت العرب**، ولكن تعبد الأصنام معه والكواكب، فلذلك حسن الاستثناء، ويكون متصلاً على هذا...»[(٣)].

وقد تقدم لنا قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال القرطبي: «﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء متصل؛ **لأنهم عبدوا الله**

---

(١) روح المعاني (١٥/ ١١٥).

(٢) الاستغناء في أحكام الاستثناء (ص/ ٥١٢، ٥١٥).

(٣) المصدر السابق: (ص/ ٤٤٠، ٤٤١).

مع آلهتهم»[١].

وقال ابن عاشور ـ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ـ: «استثناء من (ما تعبدون) و(ما) موصولة، أي: من الذين تعبدونهم، **فإن قوم إبراهيم كانوا مشركين مثل مشركي العرب**»[٢] ا.هـ.

قلت: ولذا أمر الله عباده المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم والذين معه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال المناوي ـ تعليقًا على حديث عباده: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار» ـ: «(من شهد أن لا إله إلا الله) أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر إفراد؛ لأن معناه الألوهية منحصرة في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه، وليس قصر قلب؛ **لأن أحداً من الكفار لم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٩]»[٣].

❖ ❖ ❖

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٢).

(٣) فيض القدير (٦/ ١٥٩ ح٨٧٧٢).

ثالثاً: العلماء الذين نصوا على القاعدة:

١ـ الإمام حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﷺ.

أخرج البخاري في «صحيحه» من طريق سعيد بن جبير قال: أمرني عبد الرحمن بن أبزى قال: سل ابن عباس عن هاتين الآيتين ما أمرهما؟ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٣] و﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] فسألت ابن عباس، فقال: لما أنزلت التي في الفرقان، قال مشركوا أهل مكة: قد قتلنا النفس التي حرَّم الله، **ودعونا مع الله إلهاً آخر**، وقد أتينا الفواحش. فأنزل الله ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية. فهذه لأولئك. وأما التي في النساء: الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل فجزاؤه جهنم، فذكرته لمجاهد، فقال: إلا من ندم».

فقوله ـ عن المشركين ـ: (ودعونا مع الله إلها آخر) صريح في أنهم يدعون الله ويشركون معه في الدعاء غيره[1].

٢ـ أبو العالية الرياحي (ت ٩٣هـ) قال ـ في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ـ: «كل آدمي قد أقرَّ على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده، **فمن أشرك في عبادته**، فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص له العبودية، فهو الذي أسلم طوعاً»[2].

٣ ـ العلامة الحافظ المفسر أبو عبد الله عكرمة القرشي مولاهم البربري الأصل (ت ١٠٤ هـ).

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٦٥ ح٣٨٥٥).

(٢) انظر: تخريجه (ص ٣٧) من هذا الكتاب.

وقد تقدم قوله[١].

٤ ـ المفسر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ).

وقد تقدم لنا نص كلامه[٢].

٥- أبو جعفر محمد بن حبيب بن أبي أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥هـ) قال: «وكانت هذه الأصنام كلها في بلاد العرب، **تعبد مع الله** ﷻ، **ولا إله إلا هو. . .**»[٣] **ا.هـ المراد.**

٦ ـ إمام المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ).

تقدم كلامه[٤].

٧ـ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السّري الزجاج البغدادي (ت ٣١١ هـ).

تقدم كلامه[٥].

٨- إمام المتكلمين أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي (ت ٣٣٣هـ).

تقدم كلامه، وفيه: «**كانوا** - يعني المشركين -**يقرون أنه خالق السموات والأرض، وأنه أعظم من كل شيء، لكنهم يشركون غيره في عبادته، ويقولون** ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] **وإلا كانوا يقرون بالعظمة والجلال، فإذا سألوا** ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ١٩] **فإنك إذا**

---

(١) انظر: (ص ١٣٣ - ١٣٤) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص ١٣١ - ١٣٢) من هذا الكتاب.

(٣) المحبر (ص ٣١٥).

(٤) انظر: (ص ١٣٩، ١٤١) من هذا الكتاب.

(٥) انظر: (ص ١٣٦) من هذا الكتاب.

قلت لهم ذلك يقولون هم أيضاً»[١].

وقال - في تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦] -: «وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: **بل جعلوا لله شركاء في العبادة** بعدما علموا أنهم لا يملكون نفعاً إن عبدوها، ولا ضراً إن تركوا العبادة لها.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: خَلَقَ هؤلاء الأصنام التي عبدوها وأشركوها في ألوهيته، كخلق الله، فتشابه عليهم خلقه من خلق الأصنام، أي: عرفوا أنها لم تخلق شيئاً كما خلق الله، **فكيف أشركوا هذه الأصنام في عبادة الله وألوهيته؟ وهم كانوا قد أقروا أن الله هو خالق كل شيء**»[٢].

وقال - في تفسير قوله ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨] -: «فإن كان قولهم هذا للأصنام التي عبدوها، فذلك في تسميتهم آلهة **وجعلهم العبادة لها، يسوّونها برب العالمين في التسمية والعبادة**، وإن كان قولهم هذا للشياطين، فهو في إتباعهم أمرهم ودعاءهم الذي دعوهم، وإلا لا أحد من الكفرة يقصد قصد عبادة الشيطان أو يسميه إلها، ولكن على ما ذكرنا من متابعتهم أمرهم.

وفي حرف ابن مسعود ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ إذ كنا نُشْركُكم برب العالمين. وقال بعضهم: إذ كنا نُطيعُكُم كما نطيع رب العالمين. وقال بعضهم: نَعِدلُكُم برب العالمين. وبعضه قريب من بعض»[٣].

---

(١) انظر: (ص ٢٣) من هذا الكتاب.

(٢) تأويلات أهل السنة (٢/ ٦٢٥).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٣٠- ٥٣١).

٩ ـ المؤرخ مطهر بن طاهر المقدسي (توفي بعد ٣٥٥ هـ).

قال: «**ثم تتابع الناس على عبادة الأوثان:**

فمنهم: **من يجعلها وسيلة وذريعة إلى الله** - عز وجل -.

ومنهم: من استحسن ذلك لمشاكلة أفضل الصور.

ومنهم: من يعبدها تقليداً حتى عبد قومٌ النارَ، وقومٌ الشمسَ، وقوم الماءَ، وقوم الشجرَ، وقوم النسرَ، وقوم الفهدَ، وقوم البشرَ، وقوم الملائكةَ، وقومٌ النجومَ، وقومٌ الحجرَ.

وفي الجملة كلهم يعبدون مع الله غيره إلا المسلمين وصنفاً من اليهود»[١].

١٠ - الثقة النحوي أبو محمد الحسن بن محمد بن أحمد بن كيسان الحربي (ت ٣٥٨ هـ).

قال القرطبي: «وقال ابن كيسان والزجاج ـ أيضا ـ: معنى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ **أي: يسوّون بين الأصنام وبين الله تعالى في المحبة**»[٢].

١١ ـ الفقيه الكبير أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (ت: ٤٥٠هـ).

قال - بعد ما ذكر خلاف العلماء في اشتقاق اسم (الإله) على وجهين ـ: «وعلى كلا الوجهين يكون الحالف بالإله منعقد اليمين في الظاهر والباطن وإن كان من أهل الملل؛ لأن جميع أهل الملل ليس لهم إله غير الله، **وإن كان من غير أهل الملل من عبدة الأصنام** انعقد به اليمين في الظاهر، وكان في الباطن موقوفاً على إرادته؛ **لأنهم يجعلون هذا الاسم مشتركاً بين الله**

---

(١) البدء والتاريخ (٤/ ٢٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢/ ١٣٧).

تعالى وبين أصنامهم التي يعبدونها»[١].

١٢ـ أبو عبد الله محمد بن عمر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ).

قال: «أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية»[٢].

١٣- العلامة شيخ القراء علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالصمد السخاوي الشافعي (ت ٦٤٣هـ).

قال - في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف: ٢٧] -: «وكانوا يعبدون الله مع أوثانهم»[٣].

١٤- العلامة المفسر الفقيه أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي القرطبي (ت ٦٧١هـ).

قال - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] فأقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم. وقد مضى في غير موضع»[٤].

١٥ـ العلامة الحافظ الفقيه أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ).

تقدم كلامه[٥].

١٦ـ العلامة الحافظ الأصولي أبو العباس أحمد بن أبي العلاء إدريس

---

(١) الحاوي (١٥/ ٢٥٧).

(٢) تقدم نص كلامه كاملاً. انظر: (ص ١٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٠٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٦/ ٤٣).

(٥) انظر: (ص ١٤٢) من هذا الكتاب.

ابن عبد الرحمن الصنهاجي القرافي المالكي (ت ٦٨٤ هـ) صاحب «الفروق».

تقدم كلامه[١].

١٧ ـ الفقية الأصولي شجاع الدين هبةالله أحمد بن معلى بن محمود شجاع التركستاني الحنفي (ت: ٧٣٣هـ).

قال: «والإشراك ينتظم على الأوجه الثلاثة إذ الإشراك هو التسوية.

فالمجوس ـ لعنهم الله ـ حيث أثبتوا اثنين كان ذلك تسوية في الذات.

ومشركوا العرب حيث عبدوا الأصنام، وكان ذلك تسوية منهم بين الله تعالى وبين الأصنام، وكذلك إشراك اليهود ومن تابعهم من المجسمة تسوية منهم بين الله تعالى وبين البشر.

وقد نزه الله تعالى نفسه عن كل أنواع الشرك بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]، وبقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، [يونس: ١٨]، وبقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]»[٢].

وقال ـ أيضاً ـ: «وأما قولهم: (لا شريك له) فقد أرادوا بذلك نفي أنواع الشرك التي هي كفر، وهي: الشرك في الذات، **ثم الشرك في تسمية الألوهية واستحقاق العبادة**، ثم الشرك في الوصف.

وهذه الأنواع منفية عن الله تعالى، فالشرك في الذات فعل المجوس، فإنهم أثبتوا للعالم صانعين أحدهما خالق الخير، والآخر خالق الشر.

وأما الشرك في الألوهية واستحقاق العبادة، فهو صنيع مشركي العرب؛ فإنهم أشركوا مع الله تعالى ما عبدوا من الأصنام في استحقاق العبادة وتسمية

---

(١) انظر: (ص ١٤٣) من هذا الكتاب.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٥).

الألوهية مع إقرارهم بالتوحيد في الذات والتخليق على ما أخبر الله تعالى عنهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وأما النوع الثالث، وهو الإشراك في الصورة والجسم وسائر صفات المحدثين، فهو كقول اليهود في الباري تعالى إنه على مثال صورة البشر واستقراره على العرش، وتابعهم على ذلك المشبهة والجعدية والمجسمة والكرامية حتى وصفوه بالأعضاء والجوارح»(١).

١٨ـ العلامة المؤرخ أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي (ت٨٤٥ هـ).

تقدم كلامه(٢).

١٩ - العلامة القاضي أبو اليمن مجيرالدين عبدالرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي (ت ٩٢٧هـ).

قال: «قوله ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ **بالتوحيد** وقلتم ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ **معبودكم** ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ **تصدقوا ذلك المشرك** ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] لا لتلك التي كنتم تشركونها معه **في الألوهية**»(٣).

٢٠ـ عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي القاهري الشافعي (ت١٠٣١هـ).

وتقدم نقل كلامه(٤).

---

(١) المصدر السابق (٣٣- ٣٤).

(٢) انظر: (ص ١١٥ – ١١٦) من هذا الكتاب.

(٣) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ١٠٣).

(٤) انظر: (ص ١٤٤) من هذا الكتاب.

٢١ - عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد الحضرمي الشافعي (ت ١١٣٢ هـ).

فقد قال: «الصنف الثامن ..دعوى المُشركين وأهل الكتاب :وهم المشركون الذين يدعون مع الله إلهاً آخر، تعالى عما يقولون، وعمّا يدّعون علوّاً كبيراً.

وهم أصناف: منهم: المشركون، ومنهم: المعطّلون والجاحدون، إلى غير ذلك.

وكلهم في ضلالة وظلمات بعضها فوق بعض، غير أن البعض منهم أشد ضلالة وكفرا، وأكثر بهتاناً وافتراءً، وليس لأحدٍ منهم حجّة ولا برهان بوجه من الوجوه .

القول في دعوتهم إلى الله وإلى توحيده، والإقرار له سبحانه بالألوهيّة والربوبية من غير شريك له في ذلك ولا منازع.

قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾ [النساء:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال تعالى :﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون:١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء:

٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وإذا كان هذا التشديد العظيم الهائل، والوعيد الفظيع الشنيع، **في حق من يدعو مع الله إلهاً آخر، ويشرك به سواه في الألوهية، مع أنه يُقِرُّ ويعترف لله بالألوهية والربوبية**؛ فكيف يكون الحال، وعظيم الوبال والنكال في حق من ينكر أنه ليس للعالم إله من المعطلِّة، أو يقول: إن له إلهاً غير الله تعالى وتقدس عن قوله وافترائه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والأنعام والبهائم، بل والنباتات والجمادات مقرَّة ومعترفة وشاهدة لخالقها وموجدها بالألوهية والوحدانية والربوبية، ولو كانت تنطق لأعربت عن ذلك وأفصحت به، قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨] إلى قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

ولما كانت العرب قد أُعطيت من التمييز، وأُيِّدت من المعقول بما لم يؤيَّد به غيرُها من الأمم **لم يصدر** عنها الإنكار لوجود الحق سبحانه وتعالى؛ **بل أقرت بوجوده، وبكون الخالق لكل شيء والرازق له**، كما حكى الله ذلك عنها في غير ما آية من كتابه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن

فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥] **إلى غير ذلك من الآيات المصرِّحات بما ذكرناه عن مشركي العرب.**

ويبين ذلك ما حكى الله عنهم في قوله تعالى -أنهم قالوا فيما أشركوا به من دون الله-: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] **أي: أنهم جعلوها وسائل ووسائط، يقصدون بعبادتهم التقرّب إلى الله فأخطأوا في ذلك، ولكنهم أقرُّوا بوجود الحق وبكون الخالق لهم ولكل شيء، وأنهم إنما عبدوا ما عبدوه من الأصنام لتكون وسائل لهم عنده، ومقرِّبات لهم إليه؛ وكانوا -أعني مشركي العرب -يرجعون إلى الله في الشدائد، وكشف المهمات والمصائب، ولا يطلبون ذلك، ولا يسألونه إلا منه، كما أخبر الله بذلك في كتابه عنهم** في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣] أي: تتضرعونَ وَتستغيثون.

ولما قال رسول الله ﷺ لبعضهم: «كم لكم من إلهٍ؟» قال: عشرة. فقال عليه الصلاة والسلام: «إلى أيِّهم ترجع عند الشدائد؟» فقال: إلى الله. فقال: «أسلم يا فلان، فإنه ليس لك من إله غير الله»[1]... الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام لآخر وهو يدُّله على الله: «هو الذي إذا ضلّت راحلتك وأنت بأرض فلاة فدَعَوْتَهُ ردَّها عليك، وإذا أصابك عامُ سَنة فدعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لك». وما أحسب أن أحداً يعقل إلا وهو متألِّه إلى إله، تقضي عليه بذلك فطرته التي فطره عليها، وتشهد له بربوبيته خِلْقَتُهُ التي خلق عليها، أصاب في ذلك

---

(١) انظر: (ص ٤٣).

من أصاب، وأخطأ من أخطأ، وما من إله إلا الله العزيز الحكيم.

فمصنوعاته سبحانه، ومخلوقاته ومبتدعاته التي ملأ بها أرضَه وسمواتِه، شاهدة له بالألوهية، وناطقة له بالوحدانية، وقد أجاد وأحسن القائل الذي يقول:

أيا عجباً كيف يَعصي الإلهَ ... أم كيف يجحدهُ الجاحدُ
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أثرٌ شاهدُ
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ

ولما دُعِي أصحاب الكهف إلى عبادة غير الله سبحانه وتعالى، وأن يعترفوا بالربوبية للعبد المربوب، الذي ليس بأهل لذلك أنكروا ولم يُقِرُّوا، ولم يعترفوا، لما قذف الله في قلوبهم من النور، وألقى فيها من التصديق والإيمان به تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] إلى قوله تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٨]»[١].

٢٢ـ العلامة محمود بن عبد الله الألوسي (ت ١٢٧٠هـ).

تقدم كلامه[٢].

٢٣ـ العلامة المفسر محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ).

تقدم كلامه[٣].

❖ ❖ ❖

(١) الدعوة التامة والتذكرة العامة (ضمن سلسلة كتب الإمام الحداد) (ص ١٩٩ - ٢٠٢).

(٢) انظر (ص ١٤٢ - ١٤٣) من هذا الكتاب.

(٣) انظر (ص ١٤٤) من هذا الكتاب.

رابعاً: فوائد القاعدة:

١ـ أن المشركين كانوا على بقية من بقايا الملة الإبراهيمية، وكانوا يسمون أنفسهم الحنفاء، وكانوا يعبدون الله تعالى ببعض العبادات: كالصلاة والحج والصوم والاعتكاف، ويعظمون الله بأفعال تعظيمية كالسجود.

ودليل الصلاة: ما رواه عبادة بن الصامت، قال: قال أبو ذر: يا بن أخي! صليت سنتين قبل مبعث النبي ﷺ. قال: قلت: فأين كنت توجه؟ قال حيث وجهني الله...[١].

ودليل الحج: حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]»[٢].

وحديث جبير بن مطعم، قال: أضللت بعيراً لي فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت رسول الله ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة، فقلت: والله إن هذا لمن الحمس، فما شأنه ها هنا؟ وكانت قريش تعد من الحمس[٣].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٤/ ١٩٢٣ ح٢٤٧٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» (٨/ ١٨٦ح٤٥٢٠ - الفتح).

وأخرجه مسلم، كتاب الحج، باب في الوقوف (٢/ ٨٩٣ ح١٢١٩).

(٣) أخرجه مسلم (ح١٢٢٠).

ولذا أنزل الله تعالى في إبطال ما أحدث الحمس من ترك الوقوف بعرفة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ كما قالت عائشة رضي الله عنها.

وكانوا يفيضون من المزدلفة بعد طلوع الشمس، فخالفهم رسول الله ﷺ فأفاض منها قبل طلوع الشمس، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثَبير، وأن النبي ﷺ خالفهم، ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس»[١].

وهم في غالب مناسكهم على بقايا من ملة إبراهيم، وقد حفظ لنا شعر أبي طالب عم نبينا ﷺ صفة حجهم في لاميته[٢]، حيث قال:

أَعُوذُ بربَّ الناسِ مِنْ كُلِّ طاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أو مُلِحٍّ بِبَاطِلِ
وَثَورٍ ومن أَرْسَى ثَبِيراً مَكَانَهُ ... وَرَاقٍ لِبِرٍّ في حِرَاءَ ونَازِلِ
وَبِالبَيْتِ حَقِّ البَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ ... وبالله إن الله ليس بغافِلِ
وبالحَجَرِ المُسْوَدّ إذ يَمْسَحُونَه ... إذا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحى والأصائِل
ومُوطِىءِ إبراهيمَ في الصَّخرِ رَطْبَةً ... عَلى قَدَمَيْه حافِياً غَيْرَ ناعِلِ
وأشواطٍ بين المَرْوَتَينْ إلى الصَّفَا ... وما فيهما من صورة وتماثل
ومَنْ حَجَّ بيتَ اللهِ من كُلِّ راكب ... ومِنْ كُلِّ ذِي نَذْر ومِنْ كُلِّ راجِلِ
وبالمَشْعَرِ الأَقْصَى إذا عَمَدوا له ... إلالاً إلى مُفْضَي الشراج القوابل
وتَوْقافِهم فوقَ الجبالِ عَشِيَّةً ... يُقِيمون بالأَيْدِي صُدورَ الرَّواحلِ
وليلةِ جَمْعٍ والمنازِلِ من مِنى ... وهل فوقَها مِن حُرمةٍ ومنازِلِ

---

(١) رواه البخاري. برقم (١٦٨٤).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٨ - ٢٥٩ ط. دار المعرفة) والبداية والنهاية (٤/ ١٣٥ -١٤٢).

وجَمْعٍ إذا ما المُقْرِباتُ أَجَزْنَه سِراعاً كما يَخْرُجْنَ مِن وَقْعِ وابلِ
وبالجمرةِ الكُبرى إذا صَمَدوا لها يَؤُمُّون قَذْفاً رأسَها بالجنادلِ.

ودليل الصوم: حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: «من شاء صامه ومن شاء تركه»(١).

وجاء عن ابن عمر نحوه(٢).

ودليل الاعتكاف: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. قال: «أوف بنذرك»(٣).

وكانوا يتطهرون ويغتسلون من الجنابة، وكان فيهم الزكاة، وقرى الضيف، والاهتمام بابن السبيل، وحمل الكَلِّ، والصدقة على المساكين، ونصرة المظلوم، وصلة الأرحام، والإعانة على نوائب الحق.

والذبح في الحلق.

وكانوا يحرمون المحارم كالأم والبنت والأخت، وكان فيهم كثير من شعائر ملة إبراهيم كالختان، وغير ذلك(٤).

قال المؤرخ مطهر بن طاهر المقدسي - عند كلامه على شرائع أهل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (٢/ ٧٩٢ ح١١٢٥).
(٢) أخرجه مسلم (ح١١٢٦).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف ليلاً (ح ٢٠٣٢ - الفتح).
(٤) انظر: بلوغ الأرب (٢/ ٢٨٦) و المفصل في أحوال العرب (٦/ ٣٣٦) والملل والنحل (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٠ ط. المكتبة العصرية).

الجاهلية -: «كان فيهم من كل ملة ودين، وكانت الزندقة والتعطيل في قريش، والمزدكية والمجوسية في تميم، واليهودية والنصرانية في غسان، والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم.

واتخذ بنو حنيفة إلهاً من حيس وعبدوه دهراً ثم أصابتهم مجاعة، فأكلوه، فقال بعضهم[(١)]:

أَكَلَت حَنِيفَةُ ربَّها ... زمنَ التقَحُّم والمَجاعَة
لم يَحْذَرُوا من ربهم ... سُوء العَواقِبِ والتَّباعة

وقال آخر:

أكلت ربَّها حنيفةُ من جُو ... ع قديم بها ومِنْ إعْواز

وكان في مشركيهم بقية من دين إسماعيل عليه السلام كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك.

وأحدثوا أمر (الحُمْس) من قريش فكان لا يخرجون من الحرم، ولا يقفون مع الناس بعرفات، ويقولون: نحن آل الله، ولا نخرج من حرمه.

وكان الرجل من الغرباء إذا قدم مكة لا يطوف في الثوب الذي قارف فيه الذنب، فإن أصاب من ثياب الحمس طاف فيه، وإن لم يصب طاف الرجل بالنهار عرياناً، والمرأة بالليل عريانة.

وكانت الحمس لا يَسْلَئُون السمن، ولا يأقطون إلا قط، ولا يأكلون اللحم أيام الموسم.

وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها، ويقولون لا ينبغي أن يحول بيننا وبين السماء شيء.

---

(١) لسان العرب (١/ ٥٨٩ - مادة تبع).

وكانوا يُحَرِّمون من النساء ما حرمه الله - عز وجل - في القرآن إلا امرأة الأب، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

وكانوا يبحرون البحيرة، ويسيبون السائبة، ويصلون الوصيلة، ويحمون الحامي، ويستقسمون بالأزلام، ويُقَرِّبون القربان، وغير ذلك مما هو مذكور في أخبارهم وأشعارهم، فأبطل الله - عز وجل - بأحكام الإسلام أكثرها.

وكانوا يقولون أن روح الميت تخرج من قبره وتصير هامة، فتقول: اسقوني، اسقوني، ومن ثم قال ذو الأصبع:

يا عَمْرُو إن لم تدعْ سبي ومنقصتي: أضربك حتى تقول الهامة اسقوني.

ومنهم من كان يؤمن بالبعث والنشور بعد الموت، ويزعم أن من عقرت مطيته عند قبره حشر عليها. وفيه يقول جريبة:

واحمِلْ أباك على بعيرٍ صالحٍ ويقي البقية أنه هو الأقرب»[(١)].

٢ـ أن دعوة الأنبياء تقتضي إفراد الله تعالى بالعبادة وجعلها خالصة له دون من سواه.

ووجه هذه الفائدة: أن المشركين كانوا يقرون لله بالربوبية، وكانوا يعبدونه غير إنهم يجعلون له شريكاً في العبادة، ولذا إذا دُعُوا إلى إفراد الله بالعبادة اشمأزوا ونفروا وولوا على أدبارهم نفورًا، وإذا ذُكِر معه شريك آمنوا.

قال أبو منصور الماتريدي: «كان بعث الرسل جميعاً إلى قومهم بالدعاء إلى توحيد الله، **وجعل العبادة له، والنهي عن عبادة الأوثان دونه**، كقوله ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويكون قوله

---

(١) البدء والتاريخ (٤/ ٣١ - ٣٣).

﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كقوله ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ واحداً.

والطاغوت، قال بعضهم: كل من عُبِدَ دون الله فهو طاغوت.

وقال الحسن: الطاغوت هو الشيطان. أضيفت العبادة إليه، بقوله ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]؛ لأن من يعبد دونه يعبد بأمره، فأضيفت لذلك إليه»(١).

وقال - أيضاً -: «ذكرنا أن الرسل بأجمعهم - صلوات الله عليهم -، وإنما بعثوا ليدعوا الخلق إلى وحدانية الله **والعبادة له، إذ لا معبود سواه، يستحق العبادة من الخلق**»(٢).

٣ ـ أن التوحيد لا يتحقق بتعظيم الله وعبادته إذا لم يفرد بالعبادة وينفى عنه الشريك فيها.

قال الماتريدي: «قيل قوله تعالى ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩] أي: وحدوا الله، سَمَّوَا التوحيد عبادة؛ لأن العبادة لا تكون ولا تصح إلا بالتوحيد فيها لله خالصاً»(٣).

٤- أن (الإله) هو المستحق للعبادة، وليس القادر على الاختراع أو الخلق.

ووجه هذه الفائدة: أن المشركين كانوا يقرون بالرب الخالق المدبر، ولو كان المراد بـ (الإله) القادر على الاختراع - كما يقوله بعض المتكلمين - لما حصل نزاع بينهم وبين نبينا ﷺ؛ إذ هو قدر لا يخالفون في إثباته لله

---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ٨٤ - ٨٥).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٥٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٤٨).

تعالى، وإنما وقع النزاع منهم لما قيل لهم ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ فدل على أن النزاع وقع بينهم في المعبود الذي يستحق العبادة، وليس في الخالق.

قال الماتريدي: «وأما (الله) فهم يُسَمُّون كل معبود إلها. وعلى ذلك سموا الأصنام التي كانوا يعبدونها آلهة، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] فيسمون الله إلها لما هو المعبود عندهم، ورجعت عبادتهم الأصنام إلى الله حين زعموا ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ كانوا يطلبون بعبادتهم الأصنام القربة إلى الله»(١).

وقال - أيضاً -: «سموها آلهة لأنهم كانوا يعبدونها، وكل معبود عند العرب إله، لأن الإله هو المعبود، وقد رأوا تسمية كل معبود إلهاً، لذلك سموها آلهة، وإن عرفوا أن ليست لهذه الأشياء ألوهية حقيقة، وأن الألوهية لله»(٢).

وقال - أيضاً -: «فكل معبود عندهم يسمونه إلهاً»(٣).

٥- أن معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله.

ووجه هذه الفائدة من القاعدة: أنها دلت على تعدد المعبودات عندهم، ورفضهم لكلمة التوحيد، لدلالتها على معبود واحد مع إقرارهم لله تعالى بالخلق والرزق والتدبير، كما دلت عليه القاعدة الأولى.

---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ٢٠٣).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٩٠).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٨٨).

قال الماتريدي: «وقوله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] هو المعبود في لسان العرب، ويسمي العرب كل معبود إلهاً، كأنه يقول: لا إله، ولا معبود يستحق العبادة إلا هو»[١].

وقد تقدم كلام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] قال: «﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ يدل على أن معنى الإله ما يصح أن تدخله الإضافة، **فلو كان معنى الإله: القادر، لصار المعنى: وقادركم قادر واحد، ومعلوم أنه ركيك، فدل على أن الإله هو المعبود**»[٢].

٦- أن المراد بإخلاص الدين لله الذي أمرت به الرسل، هو جعل العبادة لله وحده ولا يشرك معه غيره.

ووجه هذه الفائدة: أن النزاع بين المشركين والرسل في العبادة وصرفها لغير الله؛ فإخلاص العبادة والدين لله، يعني: جعل العبادة لله وحده لا شريك له.

قال الماتريدي: «وقوله تعالى ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥] أي: ادعوه بإخلاص الدين له. ثم يحتمل قوله ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ وجهين:

أحدهما: أي أعبدوه مخلصين له العبادة، ولا تشركوا فيها غيره من نحو ما كانوا يعبدون الأصنام دونه رجاء الشفاعة وتقريبهم إليه **.أخلصوا العبادة والدين.**

والإخلاص هو التصفية له .

والثاني: ادعوه على حقيقية الدعاء له والتسمية؛ كأنه يقول - والله أعلم -: ادعوه وسموه إلهاً، لا تدعوا، ولا تُسمَّوا غيراً إلهاً لأنهم كانوا يُسمُّون،

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٥٦).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٤/ ١٩٣).

ويدعون الأصنام التي عبدوها آلهة»[١].

فتبين من كلام الماتريدي: أن إخلاص الدين الذي أرسلت به الرسل هو جعل العبادة لله، وأن لا يجعل له شريك فيها، وليس هو فقط تسمية غير الله إلهاً، كما يزعم القبوريون.

وهذا الذي ذكرت عن الماتريدي أكده في مواضع أخرى، فمن ذلك:

قوله - في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الحجر: ٩٥ - ٩٦] - : «قوله ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أي: يزعمون أن ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إما في التسمية، **وإما في العبادة**»[٢].

وقال - أيضاً -: «قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] أي: لا تسموا مع ألوهية الله تعالى أحداً دون الله إلهاً، **أو يقول: لا تعبدوا دون الله إلهاً آخر**، أي: معبوداً آخر، **فإنه لا يستحق دون الله أحدٌ العبادة**، والله أعلم»[٣].

وبَيَّن في موضع آخر أن السجود عبادة لا يُشْرَكُ مع الله فيه أحد، فقد قال: «وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨] أي: ما يُسجد فيه، وما يُسجد به.

فما يُسْجَدُ فيه، هي: البقاع.

وما يُسْجَدُ به، هي: الجوارح.

فكأنه يقول: إن البقاع التي يُسجد فيها، **والأعضاء التي يُسجد بها لله**

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٥٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٦٥).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٨٥).

تعالى؛ لأنه هو الذي خلقها وأنشأها، **والمساجد التي بنيت فإنما تُبنى لعبادة الله تعالى وليدعى فيها، فلا تشركوا غيره في العبادة والدعاء**»(١).

فلم يشترط الماتريدي في جعل العبادة شركاً اعتقاد الربوبية فيمن صرفت له العبادة، خلافاً لما يقوله القبوريون، ولذا لما عَرَّف الماتريدي العبادة، قال: «هي الاستسلام والخضوع له والشكر له، ولا يجوز ذلك لغيره، لسوى الله»(٢).

٧ـ أن الشرك ليس هو الجحود بالله تعالى فقط، أو إنكار ربوبيته فقط، أو جعل جميع العبادة أو بعضها لغير لله فقط.

بل هو أدق من ذلك.

وهو: صرف أي عبادة من العبادات ولو واحدة لغير الله تعالى.

٨ ـ أن الشرك قد يقع فيه من هو معظم لله عابد له، يصلي ويصوم ويحج، إذا صرف عبادة من العبادات لغير الله تعالى.

وهذا مبسوط في كتب الفقه في «باب المرتد».

❖ ❖ ❖

خامساً: الشبه والاعتراضات على القاعدة:

الشبهة الأولى: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

---

(١) تأويلات أهل السنة (٥/ ٢٨٢).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٤٦).

ووجه الشبهة: أنه نفى عبادتهم لما يعبد، مما يدل على أنه لا يعبدون الله مع ما يعبدون من الآلهة.

والجواب عن هذه بأحد وجهين:

الوجه الأول: أن (ما) والفعل في تأويل مصدر، والمعنى: لا أعبد مثل عبادتكم عبادة الإشراك، ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التوحيد.

الوجه الثاني: أن العبادة تأتي في القرآن على معنيين:

الأول: على معناها اللغوي، تطلق على كل معبود إذا قصدت العبادة ولو لم تكن مع التوحيد، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فقد استثناه مما يعبدون، فدل على أنهم كانوا يعبدون الله، وكذلك قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فاستثناه أيضاً.

الثاني: العبادة الشرعية، وهي تقوم على التوحيد الخالص، وهي التي نفاها هنا في قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾.

والنفي هنا متجه إلى العبادة الشرعية التي تقوم على التوحيد الخالص. ونفي العبادة بهذا المعنى لا ينافي وقوع العبادة منهم بالمعنى الأول.

وهذا وجه حسن، ذكره العلامة عبد الله الغنيمان(١).

❖ ❖ ❖

الشبهة الثانية: أن المشركين كانوا يعبدون، ولكن كانوا يعبدون الأصنام، ولم يعبدوا الله تعالى، وقد أخبر الله تعالى عنهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ

---

(١) انظر: تعليقه على «شرح القواعد الأربع» للزميل الشيخ محمد الحنين (ص ٢٣).

صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] والمكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق.

والجواب من وجوه:

١ ـ دلت الآية بمنطوقها على أن أولئك القوم كانوا يصلون، وقد اختلف العلماء في المراد بالآية على عدة أقوال لخصها أبو حيان، فقال: «فتلخص في معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: ما ظاهره أن الكفار كانت لهم صلاة وتعبد، وذلك هو المكاء والتصدية.

والثاني: أنه كانت لهم صلاة ولا جدوى لها ولا ثواب، فجعلت كأنها أصوات الصدا حيث لها حقيقة.

والثالث: أنه لا صلاة لهم، لكنهم أقاموا مقامها المكاء والتصديه»(١).

قلت: ظاهر القرآن يتوافق مع الأول، وليس ببعيد الثاني، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت، قال: قال أبوذر: يا بن أخي! صليت سنتين قبل مبعث النبي ﷺ. قال قلت: فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله...(٢).

٢ ـ أن صلاتهم هذه كانت لله، ولو كانت للأصنام لبين ذلك، خاصة أن مساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب الذي نزل بهم يوم بدر أو لعدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته.

قال ابن عطية: «لما نفى الله ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٨٦).

(٢) تقدم تخريجه. انظر: (ص ١٥٦) من هذا الكتاب.

يقول: وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده؟! فقطع الله هذا الاعتراض بأن قال: «وما كان صلاتهم إلا المكاء والتصديه»(١).

ومعلوم أن الخطأ في صرف العبادة لغير الله أشد انحرافاً من الخطأ في صفتها وهيئتها، فلو كان واقعاً منهم في هذه الصلاة لبينه الله وذكره.

٣ ـ أن ابتدعهم في كنه الصلاة وهيئتها لا يخرجهم عن كونهم يعترفون بالله ويعظمونه ويتقربون إليه، وهم في هذا الابتداع أشبه ببعض طوائف المتصوفة في تقربهم إلى الله بالمحرمات، وقد ألمح إلى هذا بعض العلماء.

قال البقاعي: «ومما يجب أن يعلم أن هؤلاء لم يذمهم الله؛ لأنه أعلى الذم، **بل ذمهم لكونهم اتخذوا العبادة لعباً لينبه بذلك على ذم من أشبههم في ذلك**، فعمد إلى ما هو مباح في أصله فاتخذه ديناً، فكيف إذا كان مكروهاً أم كيف إذا كان حراماً؟!

فقبح الله قوماً ادعوا أنهم أعرضوا عن الدنيا ثم اتخذوا الطبول والغنى والتصدية شعارهم ثم ضربوا به حتى فعلوه في المساجد، وزادوا على فعل الجاهلية الرقص الذي ابتدعه قوم السامري لما عبدوا العجل، فأخذوا أنواعاً من أفعال أنواع من الكفرة، وجعلوها عادتهم وشعارهم وديانتهم، فلقد انتهكوا حرمات الشريعة وبدلوها واستهانوا بها واسترذلوها»(٢).

❖ ❖ ❖

---

(١) المحرر الوجيز (٦/ ٢٩٣ - ط. قطر).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ٢١٤).

القاعدة الثالثة

القاعدة الثالثة
أن المشركين عندما جعلوا مع الله آلهة
إنما أرادوا منها الشفاعة والقربة عند الله

أولاً: شرح القاعدة:

لمَّا صرف المشركون العبادة لغير الله لم يريدوا من أولئك الشركاء إلا أن يكونوا وسائط بينهم وبين الله يرجون شفاعتهم عند الله، فهم صالحون - في نظرهم - لهم جاه عند الله ومكانة عالية.

وهذا سرُّ اللجوء إليهم في طلب الحاجات وتفريج الكربات.

ولم يكن القوم يعتقدون في هؤلاء الوسائط استقلالية التأثير في النفع والضر فضلاً عن اعتقاد ربوبيتهم.

قال قتادة: «كانوا إذا قيل لهم: من ربكم وخالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله. فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده»(١).

ويعتقدون أن هؤلاء الشفعاء الوسائط مربوبون مقهورون تحت تصرف الله، وهذا الاعتقاد كانوا يهتفون به حال طوافهم بالبيت، فيقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

إذاً فعبادة الشركاء ليست مقصودة لذاتها، ولكن لينالوا بها القرب والشفاعة عند من أقروا له بالربوبية وأفردوه بها، بل وأخلصوا له العبادة في الشدائد.

فهذا هو مبتغى القوم ومطلبهم من الوسائط.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤ / ٤٤٩).

وهو الأمر العظيم والقضية الكبرى التي وقع النزاع فيها بين الرسل وأقوامهم.

ومن هنا تعددت أساليب القرآن في إبطال هذا المعتقد:

أ ـ فتارةً بنفي وجود شفيع دون الله يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]. وقوله: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

ب ـ وتارة بنفي الشفاعة في ذلك اليوم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

جـ ـ وتارة بعدم انتفاعهم بشفاعة الشافعين، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

د ـ وتارة ببيان أن الشفاعة لا تحصل إلا من بعد إذنه ﷻ للشافع ورضاه عن المشفوع، كقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله عز وجل: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ [يونس: ٣] .﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

وبين ﷻ أنه لا أحد مستثنى من هذا، فقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

و(كم) خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة في السموات، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله ورضاه(١).

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٣٣٧).

قال القرطبي: «هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتهم وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له»[١].

هـ ـ وتارة ببيان خذلان الشفعاء لهم يوم القيامة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. ولذا سيقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١].

و ـ وتارة ببيان حال الشفعاء وفزعهم من التقدم بين يدي الله تعالى بالقول: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨]. وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ -٢٣]. وقوله: ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [النبأ: ٣٧].

ز ـ وتارة ببيان أن الشفاعة ملك لله رب العالمين: كما قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣ -٤٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧ / ٦٨).

وهذه الأساليب لا تعارض بينها، فالآيات التي جاءت في نفي الشفاعة يوم القيامة أو الشفيع أو عدم نفعه = أوردت لإبطال معتقد المشركين الذين ظنوا أن الشفاعة عند الله كالشفاعة عند غيره من المخلوقين.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] إخبارٌ من الله تعالى بأن النذارة بالقرآن لا ينتفع بها إلا من تخلى عن اتخاذ شفعاء عند الله في دار العمل، وعلّق رغبته ورهبته وسؤاله وطلبه بمن له الملك كله.

والآيات التي أثبتت الشفاعة بينت أنها تقع بعد تحقق شرطين، وأكد هذا ببيان حال الشفعاء وفزعهم من التقدم بين يدي الله تعالى.

ووقوعها بهذين الشرطين لا يخرجها عن كونها ملكا لله تعالى وحده، يمنُّ بها على من يشاء من عباده.

قال السويدي: «ومن تأمل بعين الاستبصار علم أن المقصود بنفي الشفاعة نفي الشرك، وهو أن لا يعبد إلا الله، كما قال سبحانه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ولا يدعى غير الله، كما قال سبحانه ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ولا يسأل غيره، ولا يتوكل على غيره، لا في شفاعة ولا في غيرها.

فكما أنه ليس للمؤمن أن يتوكل على أحد في أن يرزقه، وإن كان الله تعالى يأتيه برزقه بأسباب، كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله تعالى في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة بشفاعة وغيرها مما لم يأذن الله سبحانه به.

فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقاً، ما كان فيها شرك، وتلك منفية مطلقاً.

والشفاعة المثبتة ما تكون بعد الإذن يوم القيامة، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضى من أهل التوحيد والإخلاص، فهذا الشفاعة من التوحيد،

ومستحقها أهل التوحيد.

فمن كان موحداً مخلصاً قطع رجاءه عن غير الله تعالى، ولم يجعل له ولياً ولا شفيعاً من دون الله سبحانه»[(١)].

❖ ❖ ❖

ثانياً: أدلة القاعدة:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك يا محمد صفتهم من دون الله الذي لا يضرهم شيئاً ولا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ يعني: **أنهم كانوا يُعْبدون رجاء شفاعتهم عند الله**، قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ يقول: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض، وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السموات ولا في الأرض، **وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند الله**، فقال الله لنبيه ﷺ: قل لهم: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما، وذلك باطل لا تعلم حقيقته وصحته، **بل يعلم الله أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد ولا تنفع ولا تضر**، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ

---

(١) العقد الثمين (صـ٢٧٨ - ٢٧٩ ط. دار ابن حزم).

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيهاً لله وعلواً عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وافترائهم عليه الكذب»[(١)].

وقال ابن جزي الكلبي: «قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ الضمير في ﴿يَعْبُدُونَ﴾ : **لكفار العرب**، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ : هي الأصنام.﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ **كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم** .﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ **ردٌّ عليهم في قولهم بشفاعة الأصنام**، والمعنى: أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة لله الذي هو عالم بما في السماوات والأرض، وكل ما ليس بمعلوم فهو عدم محض ليس بشيء، فقوله: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتَهكُّم، أي: كيف تُعَلِّمون الله بما لا يعلم»[(٢)].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ الآية. الضمير في ﴿يَعْبُدُونَ﴾ **عائد على الكفار من قريش** الذين تقدمت محاورتهم، و: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هي الأصنام، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ **هو مذهب النبلاء منهم.**

فأمر الله تعالى نبيه أن يقررهم ويُوَبِّخهم: أهم يعلِّمُون الله بأنباء من السماوات والأرض لا يعلمها هو؟! وذكر السماوات ؛ **لأن من العرب من يعبدون الملائكة والشِعْرى**، وبحسب هذا حسن أن يقول ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ .

وقيل: ذلك على تجوز في الأصنام التي لا تعقل. وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر. وذلك لهم

---

(١) جامع البيان (٧/ ١١/ ٩٨).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٦٦).

لازم من قولهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ »(١).

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: لهؤلاء العادلين بربهم الأنداد يوم القيامة: **ما نرى معكم شفعاءكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة**. وقد ذُكِر أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، لقيلِه: إن اللات والعُزَّى يشفعان له عند الله يوم القيامة.

وقيل: **إن ذلك كان قول كافة عبدة الأوثان**. ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدي: أما قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ فإن المشركين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدون الآلهة؛ **لأنهم شفعاء، يشفعون لهم عند الله**، وأن هذه الآلهة شركاء لله»(٢). ا.هـ المراد.

وقال الماتريدي: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ **إنهم كانوا يجعلون لله شركاء في عبادته وألوهيته، ويقولون**: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، **ويقولون** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، يقول الله تعالى ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ لله في عبادتكم، **وزعمتم أنهم شفعاؤكم عند**

---

(١) المحرر الوجيز (٩/ ٢١).

(٢) جامع البيان (٩/ ٤١٦ - ط. التركي).

الله، بلِ شُغلوا هُمْ بأنفُسِهِم، يخبر عن سفههم وقِلَّةِ نظرهم منهم»[١].

قال الواحدي: «قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يعبدوا الأصنام **على أنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده....»**[٢].

وقال أبو محمد بن عطية ـ في كلامه على الآية ـ: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمْ﴾ الآية، توقيف على الخطأ في عبادة في الأصنام وتعظيمها. قال الطبري: وروي أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه قال سوف تشفع له اللات والعزى .**ومن كان من العرب يعتقد أنها تشفع وتقرِّب إلى الله زلفى** ويرى شركتها بهذا الوجه، **فمخاطبته بالآية متمكن، وهكذا كان الأكثر**. ومن كان منهم لا يقر بإله غيرها فليس هو في هذه الآية»[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قال ابن جرير الطبري: «وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَولَّونهم ويعبدونهم من دون الله، **يقولون لهم**: ما نعبدكم أيُّها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى؛ قربةً ومنزلةً، **وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا.**

وهي فيما ذكر في قراءة أُبي (ما نعبدكم) وفي قراءة عبد الله ﴿قَالُوا مَا نَعْبُدهُم﴾ وإنما حسن ذلك؛ لأن الحكاية إذا كانت بالقول ـ مضمراً كان أو

---

(١) تأويلات أهل السنة والجماعة (٢/ ١٤٩).

(٢) تفسير الواحدي (١/ ٣٦٦).

(٣) المحرر الوجيز (٦/ ١١٢).

ظاهراً ـ جُعِلَ الغائب أحياناً كالمخاطب، ويُتْرَكُ أخرى كالغائبِ، وقد بينت ذلك في موضعه فيما مضى»[١].

قال أبو إسحاق الزجاج: «ومعنى إخلاص الدين هاهنا: عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا جرى تثبيتاً للتوحيد ونفياً للشرك، ألا ترى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] أي: فَأَخْلِصْ أنت الدين، ولا تتخذ من دونه أولياء، فهذا كله يُؤَكِّدَ مخلصاً له الدين. وموضع ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، وخبرهم محذوف في الكلام دليل عليه، **المعنى**: والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، **والدليل على هذا** أيضاً قراءة أُبَيٍّ: (ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله زلفى)، هذا تصحيح الحكاية، المعنى: يقولون لأوليائهم: ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله زلفى. وعلى هذا المعنى، يقولون: ما نعبدهم، أي يقولون ـ لمن يقول لهم لِمَ عبدتموهم ـ: ما نعبدهم إلا لِيُقَرِّبُونا إلى الله زلفى. أي قُرْبَى. ثم أَعْلَمَ ﷻ أنه لا يهدي هؤلاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، ثم أَعْلَمَ ـ جل وعز ـ أنه تعالى عن هذه الصفة، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وفي هذا دليل أن الذين اتخذوا من دونه أولياء، قد دخل فيهم من قال: عيسى ابن الله ـ جل الله وعز عن ذلك ـ، **ومن قال: العُزَيْرُ ابن الله**. ثم بَيَّنَ ـ جل وعز ـ ما يدل على توحيده بما خلق ويعجز عنه المخلوقين، فقال:

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٥٦ ط. التركي).

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:]»[(١)].

قال الشربيني: «﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله، ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ **وهم كفار مكة**، اتخذوا الأصنام، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الذي له معاقد العز ومجامع العظمة ﴿زُلْفَىٰ﴾ **وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم**: من ربكم ومن خلقكم ومن خلق السموات والأرض؟ **قالوا**: الله .**فيقال**: فما عبادتكم لهم؟ **قالوا**: ليقربونا إلى الله زلفى، أي: قربى، وهو اسم أقيم مقام المصدر، **كأنهم قالوا: إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً حسناً وسهلاً وتشفع لنا عند الله تعالى**»[(٢)] **ا.هـ المراد.**

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٤].

ووجه الدلالة من وجوه:

الأول: نص القرآن على أنهم اتخذوهم شفعاء.

الثاني: بيان أن هذه الآلهة لا تملك شيئاً ولا تعقل.

الثالث: أثبت أن الشفاعة ملك لله تعالى.

ولو لم يكن اعتقاد المشركين أن الآلهة تقربهم عند الله وتشفع لهم لما صح إثبات وجه من هذه الوجوه على حدة فكيف باجتماعها.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: أتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهتهم التي **يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله في حاجاتهم**.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٤/ ٣٤٤- ٣٤٥).

(٢) السراج المنير (٣/ ٤٣١).

وقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: **قل يامحمد لهم: أتتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون**، ولو كانوا لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ولا يعقلون شيئاً ؟! قل لهم: إن تكونوا تعبدونها لذلك، وتشفع لكم عند الله، فأخلصوا عبادتكم لله، وأفردوه بالألوهية ؛ فإن الشفاعة جميعاً له، لا يشفع عنده إلا من أذن له ورضي له قولاً، وأنتم متى أخلصتم له العبادة فدعوتموه شفَّعكم...»[١].

قال ابن جزي الكلبي: «قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ (أم) هنا بمعنى بل، وهمزة الإنكار، **والشفعاء هم الأصنام وغيرها** ؛ لقولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا﴾ دخلت همزة الاستفهام على (واو) الحال، تقديره: يشفعون وهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون.

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالكها، فلا يشفع أحد إليه إلا بإذنه، **وفي هذا رد على الكفار في قولهم: إن الأصنام تشفع لهم**»[٢].

وقال البيضاوي: «قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لعله رد لما عسى يجيبون به، **وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون وهي تماثيلهم**. والمعنى: أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه، ولا يستقل بها»[٣].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢١٦ - ٢١٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٤٢٦).

(٣) تفسير البيضاوي (٥/ ٧٠).

تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير. ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: **يا محمد لهؤلاء الزاعمين: إن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم**: أن الشفاعة لا تنفع إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه»[(١)].

وقال العليمي: «وقوله ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي: بل **اتخذ قريش** ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من غير إذنه ﴿شُفَعَآءَ﴾ والهمز إنكار عليهم، **لاعتقادهم شفاعة الأصنام حيث** قالوا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]»[(٢)].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

ووجه الدلالة: أن الله تعالى نفى الشفاعة عن الآلهة المزعومة، ولو لم يكونوا صادقين في اعتقادهم أنها تشفع لكان تكذيبهم في دعواهم أولى من نفي نفعها وملكها للشفاعة.

٦ ـ ومن الأدلة التي يستأنس بها القصة المشهورة بقصة الغرانيق، والتي خلاصتها:

أن المشركين عندما تلا النبي ﷺ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩- ٢٠] سجدوا[(٣)] وذلك أنهم سمعوا: (تلك الغرانيق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٦١).

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦ / ٧٦).

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ (٨ / ٦١٤. الفتح) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس».

العلى، وإن شفاعتهن تُرتجى)[1].

وهذه القصة اختلف العلماء في صحتها، فذهب إلى صحتها: الإمام ابن تيمية والحافظ ابن حجر، وضعفها: أبو بكر البيهقي وأبو بكر ابن العربي والقاضي عياض والعيني والشوكاني والألباني، ومع ذلك لم يستنكر أحد منهم ما تضمنته القصة من أن المشركين يريدون شفاعة الآلهة ـ مع حرصهم على دفعها وإبراز كل ما هو مستنكر فيها ـ إنما استنكروا ما هو مستنكر حقا، ويجب دفعه، وهو: أن يجري الكلام على لسان رسول الله ﷺ، وحتى من صححها كالحافظ فإنه يدفع هذا الأمر، فقد قال: «وإذا تقرر ذلك ـ يعني صحتها - تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: (ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى) فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس

وأخرج من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف».

(١) رويت هذه القصة عن ثلاثة من التابعين مرسلة بأسانيد صحيحة.

وقال الحافظ ابن حجر - بعد أن ناقش تضعيف ابن العربي والقاضي عياض -: «وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذ كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض». فتح الباري (٨/ ٤٣٩).

انظر: رسالة العلامة الألباني الموسومة بـ«نصب المجانيق لقصة الغرانيق» (ص/ ٤ - ١١).

منه، وكذا سهوا إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته»[١].

إذاً: فإذا كان الحافظ يستنكر هذا القدر، فكيف يوجهها؟

قلت: ذكر الحافظ ابن حجر عدة وجوه آخرها ما استظهره القاضي عياض ورجحه، وقال عنه: وهذا أحسن الوجوه. وهو: أن الشيطان هو الذي ألقى ذلك في سكتة النبي ﷺ بين الآيتين محاكياً نغمة النبي ﷺ، وأشاع ذلك المشركون عنه ﷺ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك. قال: ابن حجر ـ عقب هذا القول ـ: «ويؤيده ما تقدم في صدر الكلام عن ابن عباس من تفسير ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بتلا. وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل، وقال قبله: إن هذه الآية نص في مذهبنا في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه. قال: ومعنى قوله ﴿فِىٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] أي: في تلاوته، فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنته في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، فهذا نص في أن الشيطان زاده في قول النبي ﷺ لا أن النبي ﷺ قاله. قال: وقد سبق إلى ذلك الطبري لجلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر فصوب على هذا المعنى وحوم عليه»[٢].

والخلاصة: أن عدم استنكار العلماء ـ المصححين والمضعفين ـ لما ذكرت = يدل على أن اعتقاد المشركين في آلهتهم القربة والشفاعة عند الله أمر مُسَلَّمٌ به، لا ينازعون فيه.

❖ ❖ ❖

(١) فتح الباري (٨/ ٤٣٩).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٤٤٠).

ثالثاً: العلماء الذين نصوا على القاعدة:

نصَّ على القاعدة جمع من كبار المفسرين منهم:

١ ـ الإمام شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ).

قال - في تفسير قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] -: «**قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير**»[(١)].

٢ ـ المفسر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ).

قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ ـ: «قالوا: هم شفعاؤنا عند الله، وهم الذين يقربونا إلى الله زلفى يوم القيامة للأوثان، والزلفى: القُرَب»[(٢)].

٣- العلامة أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ).

قال رحمه الله -: «وقوله ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ [مريم: ٨١] يقول: ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة»[(٣)].

٤ ـ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠).

قال ـ رحمه الله ـ: «وأما قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾

---

(١) أخرج ابن جرير في تفسيره (١٢ / ٢٣ / ١٩١) قال: حدثنا محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، فذكره. وهذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢ / ٢٣ / ١٩٢) قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فذكره.

(٣) معاني القرآن (٢/ ١٧١).

[البقرة: ٢٥٥] يعني بذلك: من ذا الذي يشفع لمماليكه إن أراد عقوبتهم، إلا أن يخليه ويأذن له بالشفاعة لهم، **وإنما قال ذلك تعالى ذكره؛ لأن المشركين قالوا: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى**، فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السموات وما في الأرض مع السموات والأرض ملكاً، فلا ينبغي العبادة لغيري، فلا تعبدوا الأوثان **التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى**، فإنها لا تنفعكم عندي، ولا تغني عنكم شيئاً، ولا يشفع عندي أحد لأحد إلا بتخليتي إياه، والشفاعة لمن يشفع له من رسلي وأوليائي وأهل طاعتي»[١].

وقد جاء نحو هذا المعنى في أكثر من موضع في تفسيره[٢].

٥ ـ العلامة النحوي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج (ت٣١١ هـ).

تقدم كلامه[٣].

٦ ـ إمام المتكلمين والمذهب الأشعري أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٦ هـ).

قال ـ رحمه الله ـ : «اعلموا أرشدكم الله أن الذي مضى عليه سلفنا، ومن اتبعهم من صالح خلفنا: أن الله بعث محمداً ﷺ إلى سائر العالمين، وهم أحزاب متشتتون، وفرق متباينون منهم كتابي... وفلسفي... وبرهمي... ودهري... وثنوي... ومجوسي... **.وصاحب صنم يعتكف عليه ويزعم أن له رباً يتقرب بعبادة ذلك الصنم إليه**، لينبههم جميعاً على

---

(١) جامع البيان (٣/ ٣/ ٨).

(٢) انظر: (ص ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠ - ١٨١) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ١٧٩ - ١٨٠) من هذا الكتاب.

حدثهم ويدعوهم إلى صحة توحيد المحدث لهم...»[١].

٧- إمام المتكلمين أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي الحنفي (ت: ٣٣٣هـ).

قال - في تفسير قوله تعالى ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧]: «وذلك أنهم - والله أعلم -، **كانوا يعبدون الأصنام رجاء أن يكونوا لهم شفعاء**، فأخبر أن ليس لهم من عذاب الله مانع يمنع ذلك عنهم، كقولهم. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]»[٢].

وقال - أيضاً -: «وقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦] قال بعضهم: هذا في الأئمة والرؤساء منهم **حين عبدوا الأصنام والأوثان، وقالوا**: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، **وقالوا**: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] **ونحو ذلك من القول**؛ يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في **عبادتهم بأنهم يكونون شفعاء عند الله** ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ظنوه. وقال بعضهم: هذا في الأتباع والعوام، ليس في الأئمة...»[٣].

وله كلام تقدم نقله سابقاً[٤].

٨ ـ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ).

قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦] ـ: «في هذا تنبيه

---

(١) رسالة الثغر (ص ٣٤ - ٣٥).

(٢) تأويلات أهل السنة (٢/ ٤٧٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٨٠).

(٤) انظر: (ص ١٧٧ - ١٧٨) من هذا الكتاب.

لهم وتوبيخ؛ **لأنهم قالوا:** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فأخبر الله جل وعز أن الملائكة صلوات الله عليهم الذين هم أفضل الخلق عندالله جل وعز وأكثرهم عملاً بالطاعة لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله عزوجل ورضاه، **فكيف تشفع الأصنام لهم**»(١).

٩ - المؤرخ مطهر بن طاهر المقدسي (توفي بعد ٣٥٥ هـ).

قال - عند كلامه على دلائل (إثبات البارئ وتوحيد الصانع)-: «وقول فارس هرمز وإيزد ويزدان، ويزعمون أن عبادتهم النار يقرب إلى البارئ - عز وجل - لأنها أقوى الإسطقسات وأعظم الأركان، **كما قال مشركو العرب في عبادتهم الأوثان:** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ولا يجوز أن يكون غير هذا حالة من يعبد شيئاً من دون الله؛ لأنه يعلم أن معبوده من خشب أو حجر أو نحاس أو ذهب أو شيء من الجواهر غير خالقه ولا صانعه ولا مدبر أمره ولا محوله»(٢).

١٠- الإمام الزاهد أبو عبدالله محمد بن عبدالله، الإلبيري المالكي، المعروف بـ ابن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ).

قال - رحمه الله في تفسير قوله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] -: «زعموا **أنهم يتقربون إلى الله بعبادة الأوثان**؛ لكي يصلح لهم معايشهم في الدنيا، وليس يقرون بالآخرة، قال مجاهد: قريش يقولونه للأوثان، وما قبله يقولونه للملائكة ولعيسى ابن مريم والعزير»(٣).

---

(١) إعراب القرآن (٤/ ١٨٤).

(٢) البدء والتاريخ (١/ ٦٢).

(٣) تفسير ابن أبي زمنين (٤/ ١٠١).

وقال - في تفسير قوله تعالى ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ [الزمر: ٤٣]- : «أي: قد **اتخذوهم ليشفعوا لهم**، زعموا ذلك لدنياهم ليصلحها لهم، ولا يقرون بالآخرة»(١).

١١ ـ المفسر الواعظ أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت ٤٢٧هـ).

قال – عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النجم: ٢٤] ـ : «اشتهى، وهم الكفار، **وزعموا أن الأصنام تشفع لهم عندالله**، يعني: أتظنون أن لهم ما يتمنون شفاعة الأصنام ليس كما ظنوا أو تمنوا، بل لله الآخرة والأولى يعني الدنيا»(٢).

١٢ـ العلامة المفسر أبو الحسن على بن أحمد الواحدي الشافعي (ت ٤٦٨هـ).

تقدم كلامه(٣).

١٣ ـ أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار المروزي السمعاني الشافعي (ت ٤٨٩ هـ).

فقد قال ـ في تفسير آية الكرسي ـ: «وقوله ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **لأنهم زعموا أن الملائكة والأصنام يشفعون لهم**، فقال ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ يمكنه الشفاعة إلا برضاه»(٤).

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١١٤).

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ١٤٧).

(٣) انظر: (ص ١٧٨) من هذا الكتاب.

(٤) تفسير القرآن (١/ ٢٥٨ ط. الوطن).

وقال ـ أيضاً ـ: «وقوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] فإن قال قائل: كيف قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وهم لا يؤمنون بالبعث؟ الجواب: **أنهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله في مصالح معايشنا في الدنيا**»[١].

١٤ ـ الحسين بن محمد بن المفضل المعروف الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ).

قال: «الصنم: جُثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب، **كانوا يعبدونها متقربين به إلى الله**»[٢].

١٥ـ أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ).

وسيأتي كلامه[٣].

١٦ـ أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ).

ذكر أن العرب تعتقد في آلهتها أنها تشفع وتقرب إلى الله زلفى، وذكر أن الأكثر منهم على هذا[٤]، وقال - في موضع آخر -: «**هو مذهب النبلاء منهم**»[٥].

١٧ ـ شيخ شافعية اليمن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٥٨هـ).

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٧٢).

(٢) المفردات (ص/ ٤٩٣- مادة صنم).

(٣) انظر: (ص ٢٣٠ – ٢٣١) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ١٧٨) من هذا الكتاب.

(٥) انظر: (ص ١٧٦) من هذا الكتاب.

قال ـ رحمه الله ـ: «أن عبدة الأصنام أكثرهم ليسوا قدرية، **بل يقرون أن الله خلقهم**، وبذلك أخبر الله عنهم، **وإنما يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله. . .**»[١].

١٨ - الأمير العلامة أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميري اليمني الزيدي (ت ٥٧٣ هـ).

قال: «الأوثان جمع وثن، وهي حجارة كانت تعبد من دون الله، **وكانوا يتقربون بعبادتها إلى الله** - عز وجل -، وقد ذكر الله ذلك في كتابه - عز وجل -، حيث يقول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[٢].

١٩ ـ فخر الدين محمد بن عمر الرازي الأشعري (ت ٦٠٦هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «ثم بين تعالى أن الرسول عليه السلام إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال، فسيقولون: إنه الله سبحانه وتعالى.

وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام **كانوا يعرفون الله ويقرون به، وهم الذين قالوا** في عبادتهم للأصنام إنها تقربنا إلى الله زلفى، وإنهم شفعاؤنا عند الله، **وكانوا يعلمون** أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر. . . .»[٣]. وقد تقدم هذا النص كاملاً.

وسيأتي له نص آخر[٤].

---

(١) الإنتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١/ ١٩٥).

(٢) الحور العين وتنبيه السامعين (صـ ١٣٣ - ١٣٤).

(٣) انظر: (ص ١٢) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٢٢٤) من هذا الكتاب.

٢٠ ـ إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوسي المالقي (ت: ٦١١هـ).

ذكر أصناف الشرك فجعلها أربعة، ومنها، الثاني، فقال: «والصنف الآخر من الشرك: **إثبات آلهة تقرب إليه من عبدها وعظمها. وهذا هو شرك عبادة الأوثان والملائكة**»(١).

٢١ - العلامة شيخ القراء علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السخاوي الشافعي (ت ٦٤٣هـ).

قال - في تفسير قوله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] -: «والمعنى: أنهم كانوا يعبدون الأصنام **ويرجون شفاعتها، وأنها تقربهم إلى الله**»(٢).

وقال: «وإنما قيل: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢] **رداً لما كانوا يعتقدونه من شفاعة الأصنام** ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨] **ونصرتها لهم** ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٤] ذلك بسبب استهانتهم بعذاب الآخرة»(٣).

وله نص آخر، سيأتي(٤).

٢٢ ـ عبدالحميد بن هبةالله بن محمد بن الحسين ابن أبي الحديد المعتزلي الرافضي (ت: ٦٥٥هـ).

---

(١) انظر: شرح السنوسي على الوسطى (ص ٢٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٣٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٣٥).

(٤) انظر: (ص ٢٣٣) من هذا الكتاب.

قال ـ عن مشركي مكة ـ: «كانوا في عبادة الأصنام مختلفين، **فمنهم**: من يجعلها مشاركة للبارئ تعالى، ويطلق عليها لفظة الشريك، ومن ذلك قولهم: في التلبية (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هولك، تملكه وما ملك).

ومنهم: من لا يطلق عليها لفظ الشريك، **ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه**، وهم الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[(١)].

٢٣ـ العلامة المفسر أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي القرطبي (ت٦٧١).

قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾، [الإسراء: ٦٧] ـ: «والمعنى في هذه الآية: **أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة**، وأن لها فضلاً، **وكل واحد منهم يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام**»[(٢)].

وله أكثر من نص في هذا المعنى[(٣)].

٢٤ ـ أبو الخير عبدالله بن عمر البيضاوي الشافعي (ت: ٦٩٢).

تقدم كلامه[(٤)].

---

(١) شرح نهج البلاغة (١/ ١١٩).

(٢) انظر: (ص ٣٠٠)، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ١٧٣، ٢٣٥) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ١٨١) من هذا الكتاب.

٢٥ـ العلامة أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧٠١هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «. . . . .كانوا يقولون: إن الملائكة وهذا الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم، **ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله**»[١].

وقال ـ في تفسير قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ـ: «كتعظيم الله والخضوع له، أي: يحبون الأصنام كما يحبون الله، يعني: يسوون بينهم وبينه في محبتهم؛ **لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه**»[٢].

٢٦ـ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ).

قال: «قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] هذه الجملة في موضع معمول قول محذوف، والقول في موضع الحال أو في موضع بدل من صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وقرأ ابن مسعود: قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ بإظهار القول، **أي يقول الكفار: ما نعبد هؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده.**

ويعني بذلك: الكفار الذين عبدوا الملائكة، **أو الذين عبدوا الأصنام**، أو الذين عبدوا عيسى أو عزير، **فإن جميعهم قالوا هذه المقالة. . . .**»[٣].

وقال ـ عند تفسير قوله: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤] ـ: «﴿وَعِدْهُمْ﴾ يعني: المواعدة الكاذبة من شفاعة الأصنام وشبه ذلك»[٤].

---

(١) تفسير النسفي (٤/ ١٨٩).

(٢) انظر: النص كاملاً (ص ١٣٧) من هذا الكتاب.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٤١٤).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٣٢٠).

وقال ـ في تفسير قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣] ـ: «أي: ما يشفع إليه أحد إلا بعد أن يأذن هو له في الشفاعة، **وفي هذا رد على المشركين الذين يزعمون أن الأصنام تشفع لهم**»[١].

٢٧ـ الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).

قال - رحمه الله -: «**غالب الأمم** كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره **من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى**»[٢].

وتقدم له نص آخر[٣].

٢٨ ـ سعدالدين مسعود بن عمر التفتازاني (٧٩١ هـ).

ذكر أصناف المشركين الذين يعتقدون وجود تأثير للكواكب ونحوها، فذكر منهم عُبَّاد الأصنام وأنهم لا يعتقدون فيها كونها مؤثرة مدبرة، فقال: «**وأما الأصنام فلا خفاء في أن العاقل لا يعتقد فيها شيئاً من ذلك**، قال: فلهم في ذلك تأويلات باطلة».

فذكر خمسة تأويلات، فقال عن التأويل الخامس: «**الخامس: أنه لمَّا مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله تعالى اتخذوا تمثالاً على صورته وعظموه تشفعاً إلى الله تعالى وتوسلاً**»[٤].

٢٩ ـ العلامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي (ت ٨٤٥هـ).

قال: «فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك، وهو

---

(١) المصدر السابق (٢ / ١٦٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٨٣ - سورة إبراهيم، آية ١٠).

(٣) انظر: (ص ١٨١ - ١٨٢) من هذا الكتاب.

(٤) شرح المقاصد (٤ / ٤١).

شرك عُبَّاد الأصنام، وعُبَّادِ الملائكة، وعُبَّاد الجن، وعُبَّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات، **الذين قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زُلْفَى، ويشفعوا لنا عنده، وينالُنا بسبب قُربهم من الله، وكرامته لهم: قُربٌ وكرامةٌ**، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة، والزُّلفى لمن يخدمُ أَعوانَ المَلِكِ وأقارِبَه وخاصَّته.

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تُبْطِلُ هذا المذهبَ وتردُّه وتقبِّحُ أَهْلَه، وتَنصُّ على أنهم أعداء الله تعالى، **وجميع الرسل** ـ صلوات الله عليهم ـ **متفقون** على ذلك من أولهم إلى آخرهم، **وما أَهْلَكَ اللهُ تعالى مَنْ أهلك من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أَجْلِه**»[(١)].

٣٠ ـ العلامة محمود بن أحمد العيني الحنفي (ت ٨٥٥ هـ).

قال ـ في شرح أثر عمر ﷺ في تقبيل الحجر الأسود ـ: «تكلم الشارحون في مراد عمر رضي الله تعالى عنه، بهذا الكلام، فقال محمد بن جرير الطبري: إنما قال ذلك؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي ـ ﷺ ـ: أن يظن الجهال بأن استلام الحجر هو مثل ما كانت العرب تفعله، فأراد عمرأن يعلم: أن استلامه لا يقصد به إلا تعظيم الله عز وجل، والوقوف عند أمر نبيه ﷺ وأن ذلك من شعائر الحج التي أمر الله بتعظيمها، وأن استلامه مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم الأصنام؛ **لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى**؛ فنبه عمر ﷺ على مخالفة هذا الاعتقاد، وأنه لا ينبغي أن يعبد إلا من يملك الضرر والنفع، وهو الله تعالى جل جلاله»[(٢)].

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٤٥ - ٤٦).

(٢) عمدة القاري (٩/ ٢٤٠).

٣١ ـ السيد الشريف علي بن محمد أبو الحسن الجرجاني (٨١٦ هـ).

قال ـ تعليقاً على كلام الإيجي (وأعلم أنه لا مخالف في هذه المسألة إلا الثنوية) ـ: «دون **الوثنية فإنهم لا يقولون** بوجود إلهين واجبي الوجود، **ولا يصفون الأوثان بصفات (الإلهية) وإن أطلقوا عليها اسم (الإله) بل اتخذوها على أنها تماثيل**: الأنبياء، أو الزهاد، أو الملائكة، أو الكواكب، **واشتغلوا بتعظيمها على وجه العبادة توصلاً بها إلى ماهو إله حقيقة...**»[1].

٣٢ ـ نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني النيسابوري (من علماء المائة التاسعة).

تقدم كلامه[2].

٣٣ ـ شيخ الفقهاء وإمام الشافعية في زمانه أبو يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري (٩٢٦ هـ).

قال: «قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

إن قلت: هذا يدل على أنهم معترفون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، فكيف عبدوا الأصنام؟

قلت: **كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام: عبادة الله والتقرب إليه، لكن بطرق مختلفة**، ففرقة قالت: **ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فعبدناها لتقربنا إليه تعالى**، كما قال حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) شرح المواقف (٨ / ٤٩).

(٢) انظر: (ص ١٤، ٢٣) من هذا الكتاب.

وفرقة قالت: الملائكة ذو جاه ومنزلة عند الله، فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة **ليقربونا إلى الله.**

وفرقة قالت: **جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى** كما أن الكعبة قبلة في عبادتهم.

وفرقة **اعتقدت: أن على كل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله**، فمتى عبد الصنم حق عبادته، **قضى الشيطان حوائجه بأمر الله** وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله»[١] ا.هـ

٣٤ - العلامة القاضي أبو اليمن مجير الدين عبدالرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي (ت ٩٢٧هـ).

وقد ذكرت كلامه في موضعين[٢].

٣٥ـ العلامة الفقيه محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي المالكي (ت ٩٤٢ هـ).

قال ـ عندما ذكر أنواع الشرك ـ: «... وشرك في العبادة كعبادة غير الله والاعتماد عليه في نفع أو ضر، **وشرك بمعنى الشفاعة والتقرب كعبادة الأوثان مع اعترافهم بالصانع**، ولذا قالوا: هم ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[٣].

٣٦ـ العلامة الهمام محمد بن محمد الخطيب الشربيني القاهري الشافعي (ت ٩٧٧).

---

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٣٢٦).

(٢) انظر: (ص ١٨٢، ٢٣١) من هذا الكتاب.

(٣) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١ / ٢٧١).

تقدم كلامه[1]. وله نص آخر سيأتي لاحقاً[2].

٣٧ـ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت ٩٨٢هـ).

وسيأتي كلامه[3].

٣٨ ـ العلامة نور الدين أبو الحسن على بن محمد سلطان القاري الهروي المكي (ت ١٠١٤ هـ).

تقدم كلامه[4].

٣٩ - العلامة الزيدي أحمد بن محمد بن صلاح الحرازي الشرفي (ت ١٠٥٥ هـ).

تقدم نقل كلامه في القاعدة الأولى[5] من كتابه (شفاء صدور الناس بشرح الأساس).

وقال - في مختصره، المسمى: (عدة الأكياس في شرح معاني الأساس): «ومعنى الواحد في حقه المتفرد بصفات الكمال، **خلافاً للوثنية، وهم: عباد الأوثان، وهي الأصنام على اختلاف طبقاتهم لتقربهم إلى الله زلفى بزعمهم . . .**»[6].

---

(١) انظر: (ص ١٨٠) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص ٢٣٢) من هذا الكتاب.

(٣) انظر (ص ٢٨٤ - ٢٨٥) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٨٢، ٨٦) من هذا الكتاب.

(٥) انظر: (ص ٧٢ - ٧٣) من هذا الكتاب.

(٦) (١/ ١٥١).

٤٠ - الإمام الزيدي العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١٠٩٩ هـ).

تقدم كلامه[١].

٤١ ـ العلامة صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي (ت ١١٢٠هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة، وأن يظن بهم أن دفع الضر وجلب النفع منهم كرامة، **فهذا ظن أهل الأوثان ـ كما أخبر الرحمن ـ** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[٢].

٤٢ - عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد الحضرمي الشافعي (ت ١١٣٢ هـ).

فقد قال - عقب كلامه عن دعاء المشركين لله مع آلهة أخرى وإقرارهم له بالربوبية، وقد تقدم نقله[٣]-: «ويبين ذلك ما حكى الله عنهم في قوله تعالى - أنهم قالوا فيما أشركوا به من دون الله - ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أي: **أنهم جعلوها وسائل ووسائط يقصدون بعبادتهم التقرب إلى الله** فأخطأوا في ذلك، **ولكنهم أقروا بوجود الحق، وبكون الخالق لهم ولكل شيء**، وأنهم إنما عبدوا ما عبدوه من الأصنام **لتكون وسائل لهم عنده، ومقربات لهم إليه، وكانوا** - أعني مشركي العرب - يرجعون إلى الله في الشدائد،

---

(١) انظر: (ص ٩٦) من هذا الكتاب.

(٢) سيف الله على من كذب على أولياء الله (ص ٤٨).

(٣) انظر: (ص ١٥٢ – ١٥٥)، من هذا الكتاب.

وكشف المهمات والمصائب، **ولا يطلبون ذلك ولا يسألون إلا منه**، كما أخبر الله بذلك في كتابه عنهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] أي: تتضرعون وتستغيثون»[1].

٤٣ ـ العلامة المحقق محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت ١١٨٢هـ).

وسيأتي كلامه[2].

٤٤ ـ العلامة المحقق حسين بن مهدي النعمي التهامي (ت ١١٨٧هـ).

وسيأتي كلامه[3].

٤٥ ـ العلامة أبو المعالي محمد أفندي السويدي البغدادي الشافعي (ت ١٢٣٧ هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «**وكانوا أيضاً ـ يعني المشركين ـ يتخذون آلهتهم شفعاء لهم، تقربهم إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله**، كما قال سبحانه عن صاحب يس، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٢- ٢٣]، **فكان جل أحوال المشركين مع آلهتهم التوكل عليهم، والالتجاء إليهم بشفاعتهم؛ ظنا منهم أنها نافعة عنده تعالى لهم**، فرد الله تعالى عليهم، وأبان معتقدهم المُسَئوَّلَ لديهم، فأخبرنا سبحانه في كتابه أن الشفاعة كلها بجميع أنواعها له»[4].

---

(١) الدعوة التامة والتذكرة العامة (ضمن سلسلة كتب الإمام الحداد ٢ صـ ٢٠٢).

(٢) انظر: (ص ٢٢١) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٢٣٣) من هذا الكتاب.

(٤) العقد الثمين (ص ٢٧٦ - ٢٧٧).

٤٦ ـ العلامة المحقق محمد بن علي الشوكاني الصنعاني (ت ١٢٥٠هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «وقد تقرر أن شرك المشركين الذين بعث الله إليهم خاتم رسله ﷺ لم يكن إلا **باعتقادهم أن الأنداد التي اتخذوها تنفعهم وتضرهم وتقربهم إلى الله، وتشفع لهم عنده**، مع اعترافهم بأن الله سبحانه هو خالقها وخالقهم، ورازقها ورازقهم، ومحييها ومحييهم، ومميتها ومميتهم...»[(١)].

٤٧- العلامة الفقيه محمد أمين بن عمر عابدين الحنفي (ت ١٢٥٢هـ).

وسيأتي كلامه[(٢)].

٤٨ ـ العلامة المفسر محمود بن عبد الله الألوسي (ت ١٢٧٠هـ).

تقدم كلامه[(٣)].

٤٩ ـ المحدث محمد بن ناصر الحازمي الحسني التهامي (ت ١٢٨٣هـ).

سيأتي كلامه[(٤)].

٥٠ ـ العلامة المحقق ذهبي العصر عبدالرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني (ت ١٣٨٦ هـ).

قال ـ في جوابه على سؤال وضعه عنوانا: ما الذي كانوا ـ يعنى كفار قريش ـ يرجونه من الملائكة؟ـ: «قد تقدم الكلام على توحيدهم وعلى تحاشيهم أن يقولوا لله ولد ذكر كيلا يلزمهم الإشراك في الملك والتدبير، **وعرفت من ذلك أنهم لا يثبتون للملائكة شيئاً من التصرف**، وهذا بخلاف

(١) الدر النضيد (ص ٦٨).

(٢) انظر: (ص ٣٤٦) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ١٤٢) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٢٢٦) من هذا الكتاب.

أكثر الأمم التي عبدت الملائكة كاليونان والمصريين القدماء، فإنهم يثبتون التصرف للملائكة حتى يذكروا في أساطيرهم أن الآلهة تتحارب وتتغالب، وعلى هؤلاء ومن يلزمه مثل قولهم أقام الله تعالى البرهان بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٣]، **فأما العرب فكانوا يقولون ما قص الله تعالى عنهم** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، أي: بالشفاعة ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] **ولهذا كثر في القرآن مناقشتهم في الشفاعة، وكانوا مع ذلك مرتابين في هذه الشفاعة حتى إذا وقعوا في شدة نسوها وفزعوا إلى دعاء الله وحده**، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧]»[1].

٥١ - الشيخ محمد أحمد مصطفى المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤ هـ).

قال - رحمه الله -: «**الوحدانية في العبادة ألا يعبد سواه، وهذه نتيجة لازمة لكونه وحده خالق الكون** وخالق كل شيء وخالق الإنسان، وكل شيء في هذا الوجود يسبح بحمده، **ولقد كان المشركون يقرون بأن الله خالق السماوات والأرض، ولكنهم يعبدون الأوثان زاعمين أنها تقربهم إلى الله، أو أنها الواسطة إليه، ثم نسيت الواسطة وبقيت العبادة**، وقد قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۝٢٥ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن

(١) عقيدة العرب (ص ١٨٢ ضمن مجموع رسائل للمعلمي).

دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

ويقول سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

فهؤلاء المشركون فصلوا اللازم عن الملزوم، فإن انفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين يقتضي ألا يعبد سواه، ووحدانية ذاته وصفاته، وأنه ليس كمثله شيء يقتضي ألا يعبد سواه؛ لأنه لا يعبد إلا من انفرد بالوجود الكامل وعلا عن الشبيه والنظير»(١).

❖ ❖ ❖

رابعاً: فوائد القاعدة:

١ ـ أن طوائف أهل الإشراك الذين اتخذوا الأصنام آلهة لا تعتقد في آلهتهم التأثير المطلق أي النفع والضر الإستقلالي.

وقد تقدم كلام التفتازاني في ذلك(٢).

٢ ـ أن سبب إشراكهم واتخاذ الوسائط والشفعاء اعتقادهم عدم أهليتهم لعبادة الله بلا واسطة. كما تقدم في كلام زكريا الأنصاري.

قال عبد الرحمن بن مهدي ـ وذُكر عنده أن الجهمية ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: الله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا ـ فقال: «قد هلك قوم من وجه التعظيم، فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل

---

(١) العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن (صـ ٦٤ - ٦٥).

(٢) انظر: (ص ١٩٥)، وسيأتي (ص ٢٨٣) من هذا الكتاب.

رسولاً. ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. ثم قال: **هل هلكت المجوس إلا من جهة التعظيم؟ ! قالوا: الله أعظم من أن نعبده، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا.** فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»(١).

وقال الماتريدي - بعد أن بَيَّن أن المشركين لم يعتقدوا في الأوثان وغيرها مما عبدوا بأنها آلهة في الحقيقة، وسيأتي كلامه هذا قريباً -: «ثم إن الذي حملهم على عبادة ما عبدوا من دون الله وجهان:

أحدهما: **لما لم يروا أنفسهم تصلح لعبادة الإله العظيم**، أو تقدر على القيام بخدمته عبدوا هذه الأشياء **رجاء أن تقربهم عبادة هؤلاء إلى الله زلفى، وأن يكون هؤلاء شفعاءهم عنده**. وذلك ما رأوا في ملوك الدنيا: أن كل أحد يجد السبيل إلى خدمة ملك، أو يقدر على القيام بين يديه والخدمة له، يخدم من اتصل بالملك ومن عظم قدره ومنزلته عند الملك ليقربه ذلك المخدوم له إلى الملك إذا بدت له الحاجة أو الشفاعة . . .»(٢).

ثم ذكر الوجه الثاني.

والمقصود - هنا - الوجه الأول من كلام الماتريدي، وهو نص صريح في أن الوثنين عبدوا ما عبدوا من الألهة لما رأوا أنفسهم قاصرة من عبادة الإله الحق، فاتخذوا آلهة رجاء أن تقربهم إلى الإله الحق.

٣ ـ أن المشركين لم يريدوا من معبوداتهم إلا الشفاعة والقربة.

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٤٤٠).

(٢) تأويلات أهل السنة (٤/ ٢٩٠).

٤ ـ أنهم أرادوا من أولئك الوسائط والشفعاء أن يكونوا وسيلة للوصول إلى الإله الحق.

وقد تقدم كلام الجرجاني في هذا.

قال الماتريدي - في تفسير قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] -: «كأن فيه إضماراً: وقال الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وقال في موضع آخر: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] **عرفوا أن ما كانوا يعبدون من الأوثان وغيرها ليسوا بآلهة في الحقيقة، ولا لهم الألوهية حقيقة، وأن حقيقة الألوهية لله.** لكنهم سموها آلهة لأنهم كانوا يعبدونها، **وكل معبود عند العرب إله**؛ لأن الإله هو المعبود، وقد رأوا تسمية كل معبود إلهاً لذلك سموها آلهة، **وإن عرفوا أن ليست لهذه الأشياء ألوهية حقيقة، وأن الألوهية لله**»(١).

وقال الرازي: «اعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً.

فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع، وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله.

فأجاب الله تعالى بأن قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣].

وتقرير الجواب: أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام، **أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لهم.**

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٢٩٠).

والأول باطل؛ لأن هذه الجمادات، وهي الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئاً، فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها؟!

والثاني باطل؛ لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله فيكون الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره»[(١)].

٥ ـ مراعاتهم للمكانة والجاه فيمن اتخذوا واسطة بينهم وبين الله تعالى.

وبهذا يتبين بطلان مسلك القبوريين في تبريرهم الاستغاثة بغير الله بدعوى الجاه والمكانة.

٦ ـ بطلان مسلك القبوريين في تبريرهم الاستغاثة بغير الله بدعوى الكسب والتسبب.

ومرادهم بالكسب والتسبب: أن دعاء غير الله من الأموات والغائبين فيما لا يقدر عليه إلا الله، إنما هو طلب منهم على سبيل الكسب والتسبب، ومن الله تعالى على سبيل الخلق والإيجاد.

قالوا: هذا غاية ما يعتقد الناس في الأموات عند سؤالهم، أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء لا أنهم خالقون موجدون فكيف يكون ذلك شركاً؟!

وهذا المسلك في تبرير الاستغاثة بغير الله ظاهر البطلان، ووجه بطلانه: أن المشركين ما أرادوا من آلهتهم المسؤولة إلا التسبب لهم بالشفاعة عند الله.

وقد انجر دحلان خلف هواه مستميتاً في تقرير هذا الباطل حتى قال: «وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات، فإنهم بذلك الفرق يتوهم منهم أنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات، ونحن نقول ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، فهؤلاء

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٨٥).

المجوزون التوسل بالأحياء دون الأموات أو المعتقدون تأثير غير الله، وهم الذين دخل الشرك في توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات».

وقال ـ أيضاً ـ: «وأما الفرق بين الحي والميت كما يفهم من كلام هؤلاء المانعين للتوسل، فإن كلامهم يفيد أنهم يعتقدون أن الحي يقدر على بعض الأشياء دون الميت، فكأنهم يعتقدون أن العبد يخلق أفعال نفسه، فهو مذهب باطل.

والدليل على أن هذا هو اعتقادهم: أنهم يقولون إذا نودي الحي وطلب منه ما يقدر عليه فلا ضرر في ذلك، وأما الميت فإنه لا يقدر على شيء أصلاً.

وأما أهل السنة فإنهم يقولون الحي لا يقدر على شيء، كما أن الميت كذلك لا يقدر، والقادر حقيقة هو الله تعالى، والعبد ليس له إلا الكسب الظاهر باعتبار الحي، والكسب الباطني باعتبار التبرك بذكر اسم النبي ﷺ وغيره من الأخبار وتشفعهم في ذلك، والخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده لا شريك له»[(١)].

وهذا المسلك في تبرير الاستغاثة بغير الله تبطله القاعدة، قال العلامة الألوسي: «وقوله (على أنهم أرباب) يريد به أن دعاءهم ومسألتهم بطريق التسبب والشفاعة لا يضر.

ومن بلغت به الجهالة والعماية إلى هذه الغاية فقد استحكم على قلبه الضلال والفساد، ولم يعرف ما دعت إليه الرسل سائر الأمم والعباد، **ومن له أدنى نهمة في العلم والتفات إلى ما جاءت به الرسل يعرف أن المشركين من**

---

(١) الدرر السنية في الرد على الوهانيه (ص ٢٠).

كل أمة في كل قرن ما قصدوا من معبوداتهم وآلهتهم التي عبدوها مع الله تعالى إلا التسبب والتوسل والتشفع، ليس إلا!.

ولم يَدَّعوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله، ولا قاله أحد منهم سوى فرعون والذي حاج إبراهيم في ربه، وقد قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، فهم في الباطن يعلمون أن ذلك لله وحده.

قال تعالى - في بيان قصدهم ومرادهم بدعاء غيره - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ [الأحقاف: ٢٨] وقال ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فأخبر تعالى أنهم تعلقوا على آلهتهم، ودعوهم مع الله للشفاعة والتقريب إلى الله بالجاه والمنزلة، وأحبوهم مع الله محبة تأله وتعبد، لنيل أغراضهم الفاسدة، ولم يريدوا منهم تدبيراً ولا تأثيراً ولا شركة ولا استقلالاً، يوضحه: قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢] وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]، وقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ [النمل: ٦١].

فتأمل هذه الآيات وما فيها من الحجج والبينات تطلعك على جهل هذا العراقي وأمثاله، **وأنهم ما عرفوا شرك المشركين وما كانوا عليه من القصد والدين، ولم يعرفوا ما كان عليه أنبياء الله وأتباعهم من توحيد رب العالمين.**

وتأمل كيف استدل سبحانه وتعالى على توحيد إلهيته ووجوب عبادته وحده لا شريك له بما أقر به الخصم واعترف به من توحيد ربوبيته واستقلاله بالملك والخلق والتأثير والتدبير.

وهذه عادة القرآن دائماً يعرج على هذه الحجة؛ لأنها من أكبر الحجج وأوضحها، وأدلها على المقصود.

فسبحان من جعل كلامه في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة والجلالة والفخامة والدلالة والظهور. فأي شبهة بعد هذا تبقى للمماحل المغرور؟!»[١].

وهذا الجواب الإجمالي كاف في دحض هذا المسلك الجاهلي، وإذا أردنا مناقشته تفصيلاً فنقول:

أولاً: أنه مسلك جاهلي تذرع به كفار قريش في تبرير شركهم.

ثانياً: أن المشركين الجاهليين لم يعتقدوا في آلهتهم الاستقلال.

ثالثاً: «أن مجرد عدم اعتقاد التأثير والخلق، والإيجاد والإعدام، والنفع والضر إلا لله لا يبرئ من الشرك»[٢].

---

(١) فتح المنان (صـ٤٤٦ - ٤٤٧).

(٢) صيانة الإنسان (ص ٢١٠).

رابعاً: «أن مجرد كون الأحياء والأموات شركاء في أنهم لا يخلقون شيئاً وليس لهم تأثير في شيء لا يقتضي أن يكون الأحياء والأموات متساوين في جميع الأحكام حتى يلزم من جواز التوسل بالأحياء جواز التوسل بالأموات.

وكيف وليس معنى التوسل بالأحياء إلا التوسل بدعائهم، وهو ثابت بالأحاديث الصحيحة، وأما التوسل بدعاء الأموات فلم يثبت بحديث صحيح ولا حسن»(١).

خامساً: أن الأموات ليسوا من أسباب قضاء الحوائج.

سادساً: لو سلم أن الأموات سبباً لقضاء الحاجات لكان سبباً كونياً فحسب وليس سبباً شرعياً.

وليس كل ما كان سبباً كونياً جاز تعاطيه شرعاً، فمثلاً: السحر والكهانة سبب في بعض المطالب وهو محرم، وإن كان قد يقتل به كافراً، ويطلع بذلك على بعض أخبار أعداء الإسلام، وكذلك قتل المسافر قد يكون سبباً لأخذ ماله وهو محرم، والدخول في دين النصارى قد يكون سبباً لمال يعطونه وهو محرم، وشهادة الزور قد تكون سبباً لمال يؤخذ من المشهود له وهو محرم.

ودعاء الأموات والغائبين من هذا الباب، فقد يحصل أحياناً أن شيطاناً يتمثل للداعي، وقد يحصل له بعض مطالبه، لكن هذا كله منهي عنه لما ترتب عليه من الفساد الذي يغمر ما يظن فيه من المنفعة(٢).

وقد ذكر هذين الوجهين شيخ الإسلام، فقال: «نحن لا ننازع في إثبات ما أثبته الله من الأسباب والحكم، لكن من هو الذي جعل الاستغاثة

---

(١) المصدر السابق (ص ٢١٠ـ٢١١).

(٢) انظر: الرد على البكرى (ص ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٧٠).

بالمخلوق ودعاءه سبباً في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، ومن الذي قال إنك إذا استغثت بميت أو غائب من البشر نبياً كان أو غير نبي كان ذلك سبباً في حصول الرزق والنصر والهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، ومن الذي شرع ذلك وأمر به.

ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء والصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؟!

فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين:

إحداهما: أن هذه الأسباب لحصول المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والثانية: أن هذه الأسباب مشروعة لا يحرم فعلها، فإنه ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه»[1].

سابعاً: أن دعواهم عدم اعتقاد التأثير في المستغاث بهم فيه نظر؛ فإن أقوالهم وكتاباتهم شاهدة عليهم بضد زعمهم، فها هو أحد أئمة القبورية يقول: «ولا شك أن الأرواح لها من الانطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها، وتغيث من يستغيث بها، كالأحياء سواء بسواء، بل أشد وأعظم»[2].

ثامناً: قولهم: وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات، فإنهم بذلك الفرق يتوهم منهم أنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات.

قال العلامة السهسواني - رداً على هذا الكلام -: «هذا كلام تقشعر منه الجلود، أما يعلم هذا القائل الصنديد، والمتفوه العنيد، أن الفارقين بين

---

(١) الرد على البكرى (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٢) مفاهيم يجب أن تصحيح (ص ١٧٤).

الأحياء والأموات هم الذين يمنعون مما هو دون اعتقاد تأثير [غير] الله بمراحل ويصرحون بكونه شركاً؟! فكيف يتوهم منهم أنهم يعتقدون تأثير غير الله؟! سبحانك هذا بهتان عظيم»[(١)].

ويجاب عنه بوجوه[(٢)]:

أ ـ أن مناط الفرق بين الأحياء والأموات ليس اعتقاد التأثير للأحياء دون الأموات كما زعم هذا المتقوِّل على الموحدين، إنما مناطه ثبوت التوسل بالأحياء بالأحاديث الصحيحه دون الأموات.

ب ـ أن مجرد كون الأحياء والأموات شركاء في أنهم لا يخلقون شيئاً، وليس لهم تأثير في شيء لا يقتضي أن يكون الأحياء والأموات متساوين في جميع الأحكام حتى يلزم من جواز التوسل بالأحياء جواز التوسل بالأموات، وكيف وليس معنى التوسل بالأحياء إلا التوسل بدعائهم، وهو ثابت بالأحاديث الصحيحة، وأما التوسل بدعاء الأموات فلم يثبت بحديث صحيح ولا حسن.

جـ ـ أن قدرة الحي على بعض الأشياء دون الميت ثابت بالكتاب والسنة.

أما الكتاب:

فمنه: قول تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ [المائدة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ [هود: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

(١) صيانة الإنسان (ص ٢١١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢١٠، ٢٣٩، ٢٤٤).

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [النحل: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

وأما السنة:

فمنها: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون» متفق عليه.

ومنها: حديث عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطيع فعلى جنب» رواه البخاري.

ومنها: حديث سعد بن أبي وقاص قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة، فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «يسبح مائة تسبيحة فتكتب له ألف حسنة» رواه مسلم.

ومنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم.

«ولفظ الوسع والطاقة والقدرة والاستطاعة والقوة والملك بمعنى واحد، وإثبات مشيئة وعدم استواء الأحياء والأموات، وانقطاع العمل بعد الموت، وسلب العجز، مما يستلزم إثبات القدرة للحي وهو المطلوب»(١).

د ـ أن قدرة الحي على بعض الأشياء دون الميت لا تستلزم اعتقاد أن

---

(١) صيانة الإنسان (ص ٢٤٤).

العبد يخلق أفعال نفسه، والدليل الذي ذكره دحلان لا يثبت منه المطلوب، فإن مراد المانعين للتوسل بالقدرة الواقعة في قولهم الحي يقدر والميت لا يقدر قدرة الكسب لا قدرة الخلق.

هـ ـ أن إثبات الكسب ولو باطنياً للميت قول مخالف للنص الصريح، وهو قوله ﷺ «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث. . . .» فلا يعبأ به، على أن قدرة الحي على الكسب يعلم حدها بالمشاهدة، مثلاً: تعلم أن الحي يقدر على حمل الحجر.

و ـ أن التسوية بين الحي والميت كما يفهم من كلام هؤلاء فإن مؤداه الجبر، فإذا كان الحي لا يقدر على شيء كحال الميت الذي لا يقدر على شيء، فمؤاده أن العبد مجبور لا اختيار له، وهو مذهب باطل.

ز ـ أن التسوية بين الحي والميت مخالف لقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢].

قال العلامة عبدالله أبا بطين: «معنى ذلك: أنه لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الحي والميت، شبَّه المسلم بالحي والميت بالكافر، فلما كان معلوماً عند المخاطبين أن الحي والميت لا يستويان، يقول سبحانه فكذلك المؤمن والكافر، فمن سوَّى بين الحي والميت بقوله يطلب من الميت ما يطلب من الحي، فقد سوى بين ما فرق الله والناس بينهما، حتى المجانين يفرِّقون بين الحي والميت، فلو قصد مجنون بيت إنسان ليطعمه فوجده ميتاً وأهله عنده لعدل إلى الطلب من أهله الأحياء الحاضرين عنده ولم يلتفت إلى الميت»[(١)].

---

(١) تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس (ص ٨٢).

فتبين صحة ما ذهب إليه أهل السنة في التفريق بين الأحياء والأموات في الطلب، وبطلان مزاعم القبورية من أنه يلزمنا اعتقاد التأثير لغير الله تعالى.

والخلاصة أن حجة القبوريين في تبرير الاستغاثة بغير الله بدعوى الكسب والتسبب حجة ساقطة باطلة بالأدلة .

٧- بطلان احتجاج القبوريين بالمجاز العقلي في تبرير ما يفعله العاكفون على القبور من استغاثة بالأموات في جلب الخيرات أو دفع الملمات وغير ذلك.

ويراد بالمجاز العقلي: إسناد الفعل إلى غير فاعله لكونه ظرفاً أو سبباً له[١].

مثال الأول: قول القائل: «أنبت الربيع البقل» أي: أنبت الله البقل في وقت الربيع.

مثال الثاني: قول القائل: «بنى الأمير المدينة» أي: بنى المعماري المدينة بأمر الأمير ونفقته.

والمجاز العقلي من أعظم أسلحة القبوريين التي يشهرونها في وجوه الموحدين عندما ينكرون عليهم شركهم، فيقولون: عندما يقول الداعي: يا نبي الله اشفني واقض ديني، ويا فلان اعطني. فإنما أراد أن النبي أو فلاناً سبب لحصول مراده، وأن الفاعل هو الله وحده لا شريك له؛ ومعنى الكلام: اشفع لي في الشفاء وادع لي بقضاء الدين، إذ لا يعقل أن موحداً يريد من الميت أمراً على سبيل الاستقلال[٢].

---

(١) البلاغة الواضحة (ص/ ٢٠٠)، التعريفات (ص/ ٢٠٢).

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح (ص/ ١٨٥).

ويجاب عن هذه الشبهة: بأن هذا هو عين اعتقاد المشركين كفار قريش، فهم يرون أنهم إذا سألوا معبوداتهم الحاجات فإنما تحصل بشفاعتها لهم عند الله، وأن الله هو المعطي حقيقة، وله الاستقلال بالنفع والضر.

قال العلامة عبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين ـ عقب نقله كلاماً لابن تيمية ـ: «فليتأمل مريد نجاة نفسه ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يتبين له حقيقة الشرك الذي أرسل الله الرسل من أولهم إلى آخرهم ينهون عنه، وأنه الذي يسميه بعض الناس في هذه الأزمنة تشفعاً و توسلاً، **وبعض الضلال يسميه مجازاً**، يعني بذلك: أن استغاثتهم بالمقبوريين وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات على سبيل المجاز، وأن الله هو المقصود في الحقيقة، **وهذا معنى قول المشركين** ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] **لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم تدبر شيئاً من دون الله** وإنما يستجلبون النفع، ويستدفعون الضر بجعلهم وسائط بينهم وبين الله الذي بيده الضر والنفع، **ولهذا يخلصون لله الدعاء في الشدائد** لاعتقادهم أن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً من دون الله، وأنها لا تضر ولا تنفع»(١).

وهذا الجواب الإجمالي كافٍ لمن نور الله بصيرته.

وأما الجواب تفصيلاً فمن وجوه (٢):

الوجه الأول: أن أئمة البلاغة صرحوا: أنه ليس كل شيء يصلح أن

---

(١) الرد على البردة (ص ٣٧٤ - ٣٧٥).

(٢) انظر: هذه مفاهيمنا (ص/ ١١٦-١٢٨) ودعاوى المناوئين (ص/ ٢٧٣) والشرك في القديم والحديث (٣/ ١٢٢٧).

يستعمل ويتعاطى فيه المجاز العقلي بسهولة، بل أنكر بعضهم وجود المجاز العقلي في الكلام.

قال شيخ البلاغة القزويني: «واعلم أنه ليس كل شيء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز العقلي بسهولة، بل تجدك في كثير من الأمر تحتاج إلى أن تهيئ الشيء وتصلحه له...» ثم قال: «وأنكر السكاكي وجود المجاز العقلي في الكلام»[1] ا.هـ

الوجه الثاني: أن هناك فرقاً بين قول المجازيين: «أنبت الربيع البقل» وبين قول القبوريين، فالأول خبر، والثاني طلب، وليس كل ما جاز إخباراً جاز طلباً، والدليل على هذا الفرق: أنه يصحُّ أن يقال: أنبت الربيع البقل. ولا يصحُّ أن يقال: يا ربيع أنبت البقل.

الوجه الثالث: عند القول بعدم الفرق بين قول المجازيين وقول عباد القبور، نقول لهم: هل كلُّ ما صحَّ مجازاً صحَّ شرعاً أم لا ؟

فإن قالوا بالأول، قلنا: لزمكم أن يُسلِّم قضاة المسلمين وحكامهم لمن قال: عيسى ابن الله أو عزير ابن الله، إذا قال: أردت أن عيسى ابن أمة الله، أو كان بإرادة الله، ونحو هذه التفاسير.

وكم في هذه التفاسير من استعلاء للزنادقة ورفعة للفجرة والكفرة، وهذا اللازم كاف في بطلانه.

وإن قالوا بالثاني، قلنا: قد وافقتمونا.

الوجه الرابع: أن العاكفين على القبور والمنطرحين على عتباتها لا يعرفون المجاز ولم يسمعوا به، ومن سمع به لم يَدرْ بخاطره معناه. وقد تقرر

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة (ص/ ٣٧، ٣٨).

عند القائلين بالمجاز أنه لابد فيه من قصد المتكلم وإرادته له.

الوجه الخامس: أن من يتكلم بهذا يغالط مغالطة مكشوفة، فإن ما يصدر من عباد القبور من العكوف على القبر ورفع الصوت بالعويل وإظهار الفاقة والمسكنة والاضطرار = يعلم يقيناً أنها أقوال صدرت ممن يعتقد تأثير صاحب القبر.

قال العلامة النعمي التهامي: «**ومن عجيب ما أتته العامة من طرائف هذا الباب وغرائبه الفاحشة**، التي زعم ذلك المخادع القائل (إنها مجرد توسل وعبارة موهمة) ما شاهدناه بالمعاينة مكتوباً على راية مشهد من المشاهد: (هذه راية البحر التيار، فلان بن فلان، به أستغيث وأستجير، وبه أعوذ من النار...) وإلى هذا اللفظ زيادة تركتها؛ لأني لا أستثبتها الآن، وهي من هذا النمط المستطرف.

ومن عجيب طرائفهم في هذا الباب: قول بعضهم من قصيدة، وهي شيء يقشعر منه الجلد، وإنما حكيناه لما زعم شيوخهم المخادعون: إنها عبارة موهمة بمنزلة لغو اليمين.

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي ... يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته ... وأنت لي ملجأ من حادث الدهر
امدد بمواد اللطف منك وكن ... لي الكفيل بكشف الضر ونيل الظفر
وامنن علي بتوفيق وعافية ... وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا أكف الظالمين إذا ... امتدت بسوء وأمر مؤلم نكر
فإني عبيدك الراجي لودك ما ... آمله يا صفي السادة الغرر
وقد مددت يد الرجوى على ثقة ... مني لنيل الذي أملت من وطري

انتهى المراد نقله منها.

فلا ندري: أي معنى اختص به الخالق بعد هذه المنزلة من كيفية مطلب أو تحصيل مأرب؟!

وماذا أبقى هذا المشرك الخبيث لخالقه من هذا الأمر؟!

فإن كان هذا أو ما يعطى شيئاً منه «عبارة موهمة بمنزلة لغو اليمين» فعلى السفسطة السلام.

فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون كل ما عبدوه من دون الله لشيء من هذا ولا لما هو أقل منه!!»[(١)].

وقال العلامة المفسر الألوسي: «ولا أرى أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب ويسمع النداء، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير أو دفع الأذى وإلا لما دعاه، ولما فتح فاه»[(٢)].

الوجه السادس: لو استطعنا حمل كل هذه الأقوال وتأويلها، فماذا نصنع بالأفعال الصريحة: كالسجود للعتبات والانطراح عليها، والنذور والهدايا لها، والذبائح والقرابين المقدمة لها !!

٨ ـ أن طلب الشفاعة لا يكون إلا من الله، وطلبها من غيره شرك يحرم الشخص منها.

وقد ذكر الماتريدي أن المشركين زعموا أنهم على التوحيد، وإنما يريدون من الآلهة القربي والشفاعة، فجاءت دعوة الأنبياء لبيان أن هذا هو الشرك.

قال أبو منصور الماتريدي - في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا

---

(١) معارج الألباب في مناهج الحق والصواب (ص ١٩٦ - ١٩٧).

(٢) روح المعاني (٦/ ١١٦).

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾ [الروم: ٣٥] -: «قال بعضهم ﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ بل أنزلنا عليهم سلطانا حججاً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي: **يبين ويُعْلِمُهُمْ أن الذي هم عليه شرك، ليس بتوحيد؛ لأنهم كانوا يقولون: إنا على التوحيد، وإنما نعبد هذه الأصنام** ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونحوه فيقول: بل أنزل عليهم ما يبين ويعلم أن **ذلك شرك، وليس بتوحيد**»(١).

قال العلامة الصنعاني: «وبهذا يعرف أن المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان ولم يعبدوها، ولم يتخذوا المسيح وأمه، ولم يتخذوا الملائكة شركاء لله تعالى لأجل أنهم أشركوهم في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم **بل أتخذوهم لأنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما قالوه،** فهم مقرون بالله في نفس كلمات كفرهم، **وأنهم شفعاء عند الله**، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ [يونس: ١٨] **فجعل الله تعالى إتخاذهم للشفعاء شركاً، ونزه نفسه عنه**؛ لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها، ولا يغنون عنهم من الله شيئاً؟!»(٢).

وقال العلامة السويدي: «إذا تبين هذا **فالمشركون قد كانت عبادتهم لآلهتهم هذا الالتجاء والرجاء والدعاء؛ لأجل الشفاعة معتقدين أنها المقربة لهم، فبسبب هذا الاعتقاد والالتجاء أريقت دماؤهم واستبيحت أموالهم.**

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٥٠).

(٢) تطهير الاعتقاد (ص ٣١ - ٣٢).

وقد أرسل ﷺ بل جميع الرسل بكلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله لِيَعْدِلَهُمْ عما هم عليه من الضلالات والجهالات، وأوجب عليهم إفراد الحق سبحانه بالألوهية التي من أعظم خَوَاصِّها هذا الالتجاء والرجاء، وألا يجعلوا الألوهية لغيره من نبي مرسل أو ملك مُقَرَّب، وقد تعبدهم الله تعالى باعتقاد هذا التوحيد، والعمل بمقتضى هذه الكلمة المشتملة على التجريد والتفريد، اللذين هما حقيقة التوحيد، **فهذا الإلتجاء بطلب الشفاعة ورجائها عبادةٌ لا تصلح إلا لله عز وجل، و من صِرْفِ حَقِّ الله، وإنها شرك الأولين**»[1].

٩ ـ أن طلب الشفاعة والقربة هو العبادة.

كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣] فسمّاهم آلهة، مع أنهم لم يريدوا منهم إلا الشفاعة.

وهذه فائدة عظيمة، يُرَدُّ بها على دعوى عباد القبور بالفرق بينهم وبين الجاهلين، بأن الجاهلين عبدوهم، بينما نحن طلبنا منهم الشفاعة والقربة.

فإن قال الخرافي: فرق بيننا وبين المشركين فهم عبدوا الآلهة ونحن لا نعبد الصالحين إنما نطلب منهم الشفاعة والقربة فقط.

قلنا: هذا تفريق باطل، بل لا وجود له إلا في ذهن الخرافي ولا وجود له خارج ذهنه ؛ لأن مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الكفر ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى، والتنقص لازم له ضرورة شاء أم أبى، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله لا وجود له في الخارج، وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم، فإن الدعاء عبادة، بل هو مخ

---

(١) العقد الثمين (ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة، فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى[(١)].

١٠ ـ أن من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم؛ كَفَرَ إجماعاً.

قال البهوتي: «من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم كَفَرَ إجماعاً؛ لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[(٢)]. ا.هـ

وقال الشوكاني: «قال ابن القيم في (شرح المنازل) في باب التوبة: وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويغضبون لمنتقص معبوديهم من المشائخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدٌ ربَّ العالمين.

وقد شاهدنا هذا نحن، وعُيِّرنا منهم جهرة، ونرى أحدهم قد اتخذ ذكر معبوده على لسانه إن قام وقعد وإن عثر وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده، **وهكذا كان عُبَّاد الأصنام سواء.**

وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذها من البشر، قال الله تعالى - حاكياً عن أسلاف هؤلاء - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: ٣]، **وهكذا حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقرِّبه إلى الله تعالى**، وما أعزَّ من تخلَّص من هذا!

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٢٧٦).

(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/ ١٦٨).

بل ما أعز من لا يعادي من أنكره! **والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك.**

وقد أنكر الله ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له. ثم ذكر الآية التي في سورة سبأ، وهي قوله تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] وتكلم عليها»[(١)]

١١ ـ أن ما يفعله عبَّاد القبور ـ من هذه الأمة ـ عند الأضرحة والقبور نظير ما يفعله المشركون في الجاهلية.

وقد نص على هذا المعنى: أبو شامة، والفخر الرازي، وأبو الوفاء ابن عقيل.

قال الرازي ـ عند كلامه على اختلاف العلماء في كيفية اتخاذ المشركين للشفعاء، فذكر ستة أقوال منها الرابع، فقال ـ: «ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى.

ونظيره في هذا الزمان: اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله»[(٢)].

ومن المناسب أن نشفع كلام الرازي بكلام الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «لقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض، **ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة**، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك.

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (ص ١١٤ - ١١٥).

(٢) التفسير الكبير (١٧/ ٦٣)، وسيأتي النص كاملاً (ص ٢٨١ - ٢٨٣) من هذا الكتاب.

إنما يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه، ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها، **ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة ـ وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ـ ليست عبادة لها في ذاتها، إنما هي زلفى وقربى لله كي تشفع لهم عنده وتقربهم منه !.**

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها، إلى هذا التعقيد والتخريف، فلا الملائكة بنات الله، ولا الأصنام تماثيل للملائكة، ولا الله سبحانه يرضى بهذا الانحراف، ولا هو يقبل فيهم شفاعة، ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق.

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول.

وإنا لنرى اليوم في كل مكان «عبادة» للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقرباً إلى الله بزعمهم وطلباً لشفاعتهم عنده.

وهو سبحانه يحدد الطريق إليه، طريق التوحيد الخالص الذي لا يلتبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطوري العجيب»[1].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي (ت ٥١٣هـ): «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم.

قال: **وهم عندي كفار بهذه الأوضاع**، مثل: تعظيم القبور وإكرامها

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٣٧)، وانظر: هذه مفاهيمنا (ص/ ١٠٥).

وإلزامها بما نهى الله الشرع من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يامولاي افعل لي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، **وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى**»[(١)]. ا. هـ

قال الحازمي اليماني (ت ١٢٨٣هـ): «فإن قلت: إن هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع، والخير والشر بيده، وإنما استغاثوا بالأموات قصداً لإنجاز ما يطلبونه من الله عز وجل.

قلت: **وهكذا كانت الجاهلية** فإنهم يعلمون أن الله سبحانه هو الضار النافع، وأن الخير والشر بيده، **وإنما عبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى**، كما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز»[(٢)]. ا. هـ

وسيأتي في كلام أبي شامة تشبيه ما يعظمه القبورين بـ (ذات أنواط)[(٣)]

١٢ ـ أن المشركين في الجاهلية يريدون بالإله ما يريده عبّاد القبور بالسيد والولي.

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب: «**وإنما يعنون** ـ يعني مشركي مكة ـ **(بالإله) ما يعنى المشركون في زماننا بلفظ (السيد)** فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله.

والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجهال: يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما

---

(١) صيانة الإنسان (ص/ ١٧١).

(٢) إيقاظ الوسنان (ص/ ٣٧-٣٨).

(٣) انظر: (ص ٢٧٦) من هذا الكتاب.

يعبد من دون الله والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

فإذا عرفت أن جُهال الكفار يعرفون ذلك، **فالعجب ممن يدعي الإسلام، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهالُ الكفار**، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني.

والحاذق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله.

فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله»[1].

وقال العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن ـ موضحاً كلام الإمام محمد ـ «وإنما قال الشيخ إن المشركين الأولين يقصدون من لفظ (الإله) ما يقصده أهل زماننا بلفظ (السيد).

وهذا صحيح؛ فإن (السيد) عند أكثر المشركين في هذه الأزمان هو الذي يُدعى ويُستغاث به في الشدائد، ويُرجى للنوازل، ويحلف باسمه، ويُنحر له على وجه التعظيم والقربة.

وبعضهم يطلق على ذلك اسم (الولي)، كما هو في اصطلاح كثير من أهل مصر.

وبعضهم يسمي هذا المعنى (السر)، فيقول: فلان فيه سر، ومن أهل السر.

وهذا مشهور معروف، والاصطلاحات تُحدَّثُ واللغات تختلف. والفقهاء أطلقوا الأحكام المترتبة على المعاني والمقاصد، وإن اختلفت

---

(١) كشف الشبهات (ص ٢٧ – ٢٨).

الأسماء وتغيرت اللغات في باب البيع والنكاح والردة والقذف والشهادة والحكم بالإسلام، فيمن قال: صبأت ونحوه. وإن لم يحسن أن يقول: أسلمت، كما حكم ﷺ في بني جذيمة. والحكم أشهر من أن يذكر، وسياق كلام الفقهاء يطول»[١].

١٣ ـ أن تعظيم المشركين لله جل وعلا أكبر وأعظم من تعظيم الآلهة التي تقربهم إلى الله[٢].

وهذا ظاهر في اتخاذهم وسطاء يقربونهم إلى الله، قال أبو منصور الماتريدي - في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] -: «يشبه أن يكون سؤالهم إلها يعبدونه لا على الكفر بربهم والتكذيب لرسوله، ولكن لما لم يروا أنفسهم أهلاً لعبادة الله والخدمة له لما رأوا في الشاهد أنه لا يخدم الملوك إلا الخواص لهم والمقربون إليهم، ومَنْ بَعُدَ منهم يَخْدِمُ خَواصَّهُم.

فعلى ذلك هؤلاء سألوا موسى إلهاً يعبدونه لما لم يروا أنفسهم أهلاً لعبادة الله والخدمة له لتقربهم عبادة تلك الأصنام إلى الله.

ويَخْرُجُ ذلك مخرج التعظيم لله والتبجيل لا على الكفر وصرف العبادة عنه إلى غيره. وكذلك كان عادة العرب أنهم يعبدون الأصنام لتقربهم عبادَتُها إلى الله زلفى.

وكذلك ما ذُكر في بعض القصة أن فرعون كان يتخذ لقومه أصناماً يعبدونها لتقربهم عبادة تلك الأصنام إليه زلفى.

---

(١) منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس (ص ٣١٣ - ٣١٤).

(٢) انظر: (ص ٣٤١) من هذا الكتاب.

فعلى ذلك سؤال هؤلاء لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ والله أعلم.

أو كان سؤالهم ذلك لما لم يروا في الشاهد أحداً يَخْدِم إلا لحاجة تقع له إلى ذلك، فرأوا أن الله يتعالى أن يعبد، ويخدم للحاجة؟ ويخدمون القادة والرسل، ويعبدونهم لما رأوا أنهم ينالون من النعم وأنواع المنافع من الرؤساء والكبراء. لذلك كانوا يخدِمُونَهُم.

وأما أهل التوحيد فإنهم لا يرون العبادة لغير الله؛ لأنه ما من أحدٍ وإن بَعُدَت منزلَتُهُ ومحَلُهُ، إلا وآثار نِعَم الله عليه ظاهرة، حتى عرف كُلُّ أحدٍ حتى لو بُذل له جميع حطام الدنيا، أو أُوعد بكل أنواع الوعيد ليترك الدين الذي هو عليه ما ترك البتة»[١].

فهذا كلام الماتريدي صريح في أن المشركين اتخذوا الآلهة لتقربهم إلى الله، وأن ذلك خرج مخرج التعظيم والتبجيل لله تعالى، ونص في موضع آخر على أن المشركين كانوا يقرون أنه سبحانه خالق السموات والأرض، وأنه أعظم من كل شيء[٢].

وسيأتي نص العز بن عبدالسلام على أن المشركين يعظمون الله فوق تعظيم الأصنام[٣].

❖ ❖ ❖

(١) تأويلات أهل السنة والجماعة (٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠).

(٢) انظر: (ص ٢٣) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٣٤١) من هذا الكتاب.

خامساً: الشبه والاعتراضات على القاعدة:

الشبهة الأولى: أن هذا لم يكن اعتقاد المشركين الذي يعتقدونه في قرارة أنفسهم، إنما يلجأون إليه إذا أفحموا، وربما احتج بعض القبورين بقوله تعالى - في ختام الآية الكريمة - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣].

وخلاصة الشبهة: أن المشركين يكذبون في مقولتهم هذه.

والجواب يقال: إنَّ تكذيبهم متجه إلى زعمهم أن الآلهة تشفع، وليس إلى اعتقادهم أن الآلهة تشفع، ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: أن هذا قول غريب لا يعرف من قال به من أئمة المفسرين، بل كلهم على أن هذا القول: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كان اعتقاد المشركين حقاً.

قال ابن جرير الطبري - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] -: **هذا توبيخ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والملأ من قريش وغيرهم، الذين كانوا يقولون:** ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقال الله ﷻ لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضائي، فكيف من دونهم؟ **فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم**»[١].

وقال البغوي: «قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾

---

(١) جامع البيان (٢٢ / ٥٧).

[الزمر: ٣] لا يرشد لدينه من كذب، فقال: إن الآلهة لتشفع، وكفى باتخاذ الآلهة دونه كذباً وكفراً»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «قوله: ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ في قوله: إن الآلهة تشفع»[(٢)].

وقال العليمي: «قوله ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ في أن الآلهة تشفع له أو تقربه»[(٣)].

فتبين من هذا أن الكذب في دعواهم أن آلهتهم تشفع لهم، وليس في أنهم يعتقدون ذلك، فالكذب ليس متجها لاعتقادهم، وإنما لزعمهم وقوع الشفاعة من آلهتهم.

وهذا متقرر عند العلماء، ولذا جاء في بعض تفاسيرهم لآيات وصف المشركين بالجهل وعدم العلم، أن المراد شفاعة الآلهة، أي لا يعلمون أن الآلهة لا تشفع لهم. ومن ذلك:

قول الماتريدي - في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥] -، قال: «ثم قوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوه: - فذكر الأول والثاني ثم قال - **الثالث**: أن يكون قوله - ههنا -﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن عبادتهم الأصنام لا تقربهم إلى الله زلفى، ولا تشفع لهم؛ **لأنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام رجاء أن تُزْلِفَهُمْ إلى الله، ورجاء أن يكونوا لهم شفعاء عند الله بقولهم** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] **وقولهم**﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ

(١) معالم التنزيل (٤/ ٧١).

(٢) زاد المسير (٧/ ١٦٢).

(٣) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٦/ ٥١).

زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[١].

الوجه الثاني: أنه جاء في بعض القراءات، وهي قراءة أبي بن كعب (ما نعبدكم).

قال القرطبي: «وفي حرف أُبي (ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله زلفى) ذكره النحاس»[٢].

وهذا خطاب بينهم وبين الآلهة.

قال ابن جرير: «والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولونهم ويعبدونهم من دون الله، **يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى**، قربة ومنزلة، **وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا**، وهي فيما ذكر في قراءة أبي (ما نعبدكم)...»[٣].

الوجه الثالث: أن آية يونس بمعنى آية الزمر. قال الشربيني: «﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الأصنام التي نعبدها ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] **ونظيره: قوله تعالى ـ إخباراً عنهم ـ** ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقيل: إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، **وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله**.

قال الرازي: **ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر** على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٧٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٥/ ١٥٢).

(٣) جامع البيان (١٢/ ٢٣/ ١٩١).

ا.هـ ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار[١]»[٢]. ا.هـ المراد

الوجه الرابع: لو لم يكن هذا اعتقادهم لما حَسُنَ الاحتجاج عليهم بالأمم السابقة الذين يعتقدون هذا الاعتقاد ثم لم تنفعهم آلهتهم ولم تشفع لهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧، ٢٨].

قال علم الدين السخاوي: «﴿مَا حَوْلَكُمْ﴾ **يا أهل مكة** ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ والمراد: أهل القرى؛ لقوله ﴿لَعَلَّهُمْ﴾.

القربان: ما تقرب به إلى الله، **أي**: **اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله**، وأحد مفعولي ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ الهاء المضمرة، تقديره: اتخذوه. والثاني ﴿ءَالِهَةً﴾ و﴿قُرْبَانًا﴾ حال، **والمعني**: **فهلا منعتهم آلهتهم التي اتخذوها شفعاء من الهلاك** ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم في الموقف»[٣].

قال النعمي: «والقربان: ما يتقرب به إلى المعبود، كما هو معروف. وفسره به في الكشاف والقاموس وغيرهما.

وإنما قيل للآلهة: (قرباناً) لما أنها غير مقصودة لذواتها. ألا تراه يقول في

---

(١) تعقيب الشربيني لا محل له؛ لأنه وإن وجدت طائفة من معظمي القبور لا يصل تعظيمها للقبور إلى درجة تعظيم المشركين لآلهتهم فإن السواد الأعظم من معظمي القبور قد وصل تعظيمهم للقبور إلى نفس الدرجة، بل منهم من زاد عليهم درجة بل درجات كما سيتبين في القاعدة الخامسة، وعلى كل فالشربيني يسلم للرازي في أصل كلامه.

(٢) السراج المنير (٢/ ١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٣٨).

غير هذا الموضع: (شفعاء) ويحكي ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[١].

قال ابن جرير: «**وهذا احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه،** يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئاً أو تنفعكم عند الله، **كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها لتقربكم إلى الله زلفى،** لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعت عنهم العذاب إذا نزل أو **لشفعت لهم عند ربهم، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم** ولكنها ضرتهم ولم تنفعهم»[٢].

الوجه الخامس: أن الله قد بين بطلان دعواهم أن الآلهة تقربهم عند الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢ ـ ٤٣].

قال الفخر الرازي: «في تفسيره وجهان:

الوجه الأول: أن المراد من قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضاً، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع، وقد شرحناه في سورة الأنبياء في تفسير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فلا فائدة في الإعادة.

الوجه الثاني: أن الكفار كانوا يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال الله: **لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها ـ أيضاً ـ قربة إلى الله تعالى وسبيلاً إليه** ولطلبت لأنفسها المراتب العالية والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة،

---

(١) معارج الألباب (ص ٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) جامع البيان (١٣ / ٢٦ / ٢٩).

فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله، فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله»(١).

قلت: الثاني هو قول أئمة السلف كابن جرير ـ رحمه الله ـ ولم يذكر غيره، وأسنده إلى قتادة. قال قتادة. «قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢] يقول: لو كان معه آلهة إذن لعرفوا له فضله ومرتبته ومنزلته عليهم، فابتغوا ما يقرِّبهم إليه»(٢).

وقال القرطبي ـ عقب قول قتادة ـ: «**والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى**، فإذا اعتقدوا في الأصنام: أنها محتاجه إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة»(٣).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: **لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدونه، ويتقربون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة**، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه»(٤).

وأما دليل التمانع فهو دليل صحيح لانكارة فيه، إنما النكارة في حمل آية

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٢١٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٤/ ٦٠٣ط. التركي) قال: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة فذكره.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٠/ ١٧٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٩/ ١٥ت: مصطفى السيد محمد).

الأنبياء والإسراء عليه، وقد بينت وجه هذه النكارة في موضع آخر، والله أعلم.

الوجه السادس: أن القرآن تعددت أساليبه في تقرير الاعتقاد الحق في الشفاعة ودحض اعتقاد المشركين فيها، مما يدل على أنها عقيدة راسخة لديهم في تبرير شركهم.

❖ ❖ ❖

الشبهة الثانية: أن شركهم لم يكن محصوراً في طلب الشفاعة والقربة، وإنما كان كفرهم متعدد الاتجاهات بإدعاء الولد لله، وجعل النبي ﷺ ساحراً، وإنكار ما جاء به من الشرائع والأحكام[1].

وقال بعضهم: إنهم لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا: الملائكة بنات الله.

وهذه الشبهة شبهة قديمة أجاب عنها علماء الإسلام من وجوه:

١ـ أن اتخاذ آلهة تدعى ويرجى منها الشفاعة عند الله كفر مستقل، كما أن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل.

٢ ـ أن الله تعالى فرق بين الكفرين كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وكما في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٣ ـ أن الذين كفرهم الله بإتخاذ اللات وهو رجل صالح لم يقولوا إنه ابن الله.

---

(١) كشف الستور عما أشكل من أحكام القبور (ص ٢٨ـ٢٩).

٤ ـ أن العلماء من المذاهب الأربعة وغيرهم ذكروا في باب حكم المرتد نواقض كثيرة، ولم يقل أحد من هؤلاء العلماء باشتراط اجتماع جميع النواقض أو أكثر من ناقض في الشخص لتكفيره، بل يكفي ناقض واحد لكفر الشخص وللحكم بردته.

❖ ❖ ❖

القاعدة الرابعة

القاعدة الرابعة

أن النبي ﷺ بعث في قوم متفرقين في معبوداتهم، وجميعهم عاملهم معاملة واحدة ودعاهم إلى الإسلام ولم يفرق بينهم

أولاً: شرح القاعدة:

بعث الله نبيه محمداً ﷺ في قوم متفرقين في معبوداتهم، فمنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الأجرام والكواكب العلوية، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، وجميع هؤلاء كَفَّرهم ودعاهم إلى الإسلام ولم يفرق بينهم، فمن لم يستجب قاتله حتى يدخل في دين الله تعالى.

ثانياً: أدلة القاعدة:

١ـ دليل عبادة الملائكة:

ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان، وما يعبدون من دون الله **من الملائكة والإنس والجن**»(١) **ا.هـ المراد.**

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٤١٥).

في عبادتهم من عبدوا من دون الله من **الملائكة وغيرهم**، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو **عيسى والعزير والملائكة**»[(١)].

وقال جلال الدين المحلي: «قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره من **الملائكة وعيسى وعزير والجن**»[(٢)].

ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل **الملائكة** الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون **الأنداد التي هي على صورهم** ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦] وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٢٤).

(٢) تفسير الجلالين (ص ٧٣٨- ط. دار السلام).

[النساء: ١١٧ ـ ١١٨] قال الله عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٢] أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢] أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً»(١).

وقال ابن عطية ـ في تفسير الآية ـ: «وإذا قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة، قالت الملائكة: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عما فعل هؤلاء الكفرة، ثم برؤوا أنفسهم بقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يريدون البراءة من أن يكون لهم رضى أو علم أو مشاركة في أن يعبدهم البشر، ثم قرروا أن البشر إنما عبدت الجن برضى الجن وبإغوائها للبشر، **فلم تنف الملائكة عبادة البشر إياها**، وإنما قررت أنها لم تكن لها في ذلك مشاركة، ثم ذَنَّبتِ الجن.

وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن بطاعتهم إياهم وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم، **فهذا نوع من العبادة**، وقد يجوز أن كان في الأمم الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها»(٢).

وبهذا يتبين أن مقولة الملائكة (بل كانوا يعبدون الجن) لا تنفي وقوع البشر في عبادتهم، كما تقدم، وقد نص عليه غير واحد، منهم:

البغوي فقد قال: «فإن قيل لهم: كانوا يعبدون الملائكة، فكيف وجه قوله: ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، قيل: أراد الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، **فهم**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٠).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٢٤).

كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة»[١].

وقال السمعاني: «فإن قيل: كيف يصح قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ وهم عبدوا الملائكة؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أنه قال: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ لأن الجن هم الذين زينوا لهم **عبادة الملائكة**. والمراد من الجن الشياطين.

والقول الثاني: أنهم صوروا صور الجن، وقالوا: هؤلاء الملائكة فاعبدوهم»[٢].

وقال النسفي: «قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبدت، فيعبدون بعبادتها، أو صورت لهم الشياطين صورة قوم من الجن، **وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها**»[٣].

٢ ـ دليل عبادة الأنبياء:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهذه الآية نص على أن من الناس من عبد عيسى وأمه عليهما السلام.

ومما استدل به في هذا الموضع قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠].

جاء في كتب التفسير عن سبب نزول الآية ما رواه ابن عباس، قال: قال

---

(١) معالم التنزيل (٣/ ٥٦١).

(٢) تفسير السمعاني (٤/ ٣٣٨).

(٣) تفسير النسفي (٤/ ٢٠٦).

أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ ـ أو كما قال ـ: فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني» ـ أو كما قال ﷺ ـ فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩][(١)].

وهذا النص يدل على أن منهم من عبد عيسى عليه السلام.

٣ ـ دليل عبادة الصالحين:

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال ـ قبل هذه الآية ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥) - ومن طريقه الطبري في جامع البيان (٥/ ٥٢٤ - ط التركي)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٥) - قال: حدثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس. فذكره مرفوعاً.

وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة محمد بن أبي محمد ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف. (٤ / ٢٦ت ٨١٢٩) وقال ابن حجر في «التقريب»: مجهول. (ت ٦٢٧٦).

ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

ووجه الدلالة: أن هؤلاء المدعوين هم يبتغون إلى ربهم القربة ويرجون رحمة الله ويخافون عذابه، فهم عباد صالحون.

قال الثعالبي: «هذه الآية ليست في عبدة الأصنام، وإنما هي في عبدة من يعقل كعيسى وأمه وعزير وغيرهم، قاله ابن عباس ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ثم أخبر تعالى أن هؤلاء المعبودين يطلبون ويرجون رحمته»(١).

وقال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على المشركين، وقد ذكرنا أن المشركين كانوا يقولون: ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى، **فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله، وهم الملائكة.**

ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة، واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل، والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ **وليس المراد الأصنام**؛ لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وابتغاء **الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام ألبتة.**

إذا ثبت هذا، فنقول: إن قوماً عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم، وقيل: إنها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيراً، وقيل: إن قوماً عبدوا نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن، وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية»(٢).

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٣٤٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٠/ ١٨٤-١٨٥).

وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يقول: يبتغي المدعوّون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفة؛ **لأنهم أهل إيمان به**، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾: أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة ﴿وَيَرْجُونَ﴾ بأفعالهم تلك ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ ﴿وَيَخَافُونَ﴾ بخلافهم أمره ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿كَانَ مَحْذُورًا﴾ مُتَّقى.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، غير أنهم اختلفوا في المدعوين:

أ - «فقال بعضهم: هم نفر من الجن»[(١)].

ثم أسند هذا القول إلى: ابن مسعود وقتادة.

قال ابن مسعود - في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ -: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فأنزلت: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[(٢)].

---

(١) جامع البيان (١٤ / ٦٢٧ - ط التركي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٨ / ٣٩٧) برقم (٤٧١٤) قال: حدثني عمرو بن علي حدثنا يحيى حدثنا سفيان حدثني سليمان عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم».

وقد تابع يحيى عبدُ الرحمن وهو ابن مهدي.

أخرجه مسلم قال: حدثني أبو بكر بن نافع العبدي حدثنا عبد الرحمن به، ولفظه: «كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس

وقال قتادة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قال: «قوم عبدوا الجن، فأسلم أولئك الجن، فقال الله تعالى ذكره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ »(١).

بعبادتهم. فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

وتابع سفيان جماعة:

١ - عبد الله بن إدريس، أخرجه مسلم (٤ / ٢٣٢١) برقم (٣٠٣٠) قال: حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس به.

٢ - شعبة، أخرجه البخاري (٨ / ٣٩٨) برقم (٤٧١٥) قال: حدثنا بشر بن خالد أخبرنا محمد بن جعفر عن شعبة به.

وأخرجه مسلم قال: وحدثنيه بشر بن خالد به.

وتابع أبا معمر عبدُالله بن عتبة.

أخرجه مسلم (٤/ ٢٣٢١) قال: وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي، حدثنا حسين عن قتادة عن عبد الله بن معبد الزماني عن عبد الله بن عتبة به، ولفظه: «نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٩) قال: حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قوم عبدوا الجن، فأسلم أولئك الجن، فقال الله تعالى ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ وهذا إسناد صحيح مسلسل بثلاثة من ثقات صنعاء.

وتابع محمد بن ثور عبدُ الرزاق، أخرجه الطبري (١٤/ ٦٣٠) قال: حدثنا الحسن، قال: ثنا عبد الرزاق به، ولفظه: «قال: كان أناس من أهل الجاهلية يعبدون نفراً من الجن، فلما بعث النبي ﷺ أسلموا جميعاً، فكانوا يبتغون أيهم أقرب».

ب ـ «وقال آخرون: بل هم الملائكة».

ثم أسنده إلى ابن مسعود، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قال ابن مسعود: «كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة، يقال لهم: الجن، ويقولون: هم بنات الله، فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ معشر العرب ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ »[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الملائكة تبتغي إلى ربهم الوسيلة ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا﴾ قال: **وهؤلاء الذين عبدوا الملائكة من المشركين**»[2].

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٣٠) قال: حدثني الحسين بن علي الصدائي، قال: ثنا يحيى بن السكن، قال: أخبرنا أبو العوام، قال: أخبرنا قتادة عن عبد الله بن معبد الزماني عن عبد الله بن مسعود. وهذا إسناد رجاله ثقات، عدا أبي العوام عمران بن داود القطان، في حفظه ضعف، واللائق به ما قال البخاري: «صدوق يهم» ومثله يخشى منه عند المخالفة، وقد قال الدارقطني: «كان كثير المخالفة والوهم».
قلت: وقد أتى في مرويه هذا عن قتادة ما لم يروه غيره، فقال: «يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن» وهذا مخالف لرواية حسين عن قتادة، ولفظه: «نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون. . .».
قال الحافظ ابن حجر: وأما ما أخرجه الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود. . . فذكره، ثم قال: «فإن ثبت، فهو محمول على أنها نزلت في الفريقين، وإلا فالسياق يدل على أنهم قبل الإسلام كانوا راضين بعبادتهم، وليست هذه من صفات الملائكة» الفتح (٨/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٦٣٠) قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب، =

جـ ـ «وقال آخرون: بل هم عزير وعيسى وأمه».

ثم أسنده إلى ابن عباس ومجاهد.

قال ابن عباس في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: «**عيسى وأمه وعزير**»(١).

وقال مجاهد: «﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾: **عيسى ابن مريم وعزير والملائكة**»(٢).

= قال: قال ابن زيد... فذكره. وهذا إسناد صحيح.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣٠) قال: حدثني يحيى بن جعفر، قال: أخبرنا يحيى بن السكن، قال: أخبرنا شعبة عن إسماعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: «عيسى وأمه وعزير».
وقد تابع يحيى بن السكن أبو النعمان الحكم بن عبد الله العجلي، أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣١) قال: حدثنا محمد بن المثنى قال: ثنا أبو النعمان به، ولفظه: «عيسى ابن مريم وعزير» فلم يذكر مريماً.
قلت: مدار الإسناد على إسماعيل السدي عن أبي صالح. وأبو صالح ضعيف، قال ابن عدي: «ولم أعلم أحداً من المتقدمين رضيه». انظر: تهذيب الكمال (٤/ ٧).
لكن تابعه إبراهيم النخعي.
أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣١) قال: حدثنا ابن حميد قال: ثنا جرير، عن معمر عن إبراهيم، قال: كان ابن عباس يقول - في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ -: هو عزير والمسيح والشمس والقمر.
وهذا مرسل، ومراسيل النخعي من أحسن المراسيل، لكن في السند ابن حميد، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٦٣١) قال: حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى. وقال: وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**وهذه الأقوال كلها حق؛ فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً** لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر.

والسلف ﵃ في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله ما معنى لفظ الخبز فيريه رغيفاً، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين.

فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوا، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه.

وهذا موجود في الملائكة والجن والإنس»[1].

واختار ابن جرير قول من فسرها بالجن أو الملائكة معللاً ذلك «أن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر عن الذين يدعوهم المشركون آلهة أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة في عهد النبي ﷺ، ومعلوم أن عزيراً لم يكن موجوداً على عهد نبينا ﷺ فيبتغي إلى ربه الوسيلة، وأن عيسى قد كان رُفع، وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجوداً حياً يعمل بطاعة الله ويتقرب إليه بالصالح من الأعمال، فأما من كان لا سبيل له إلى العمل، فبم يبتغي إلى ربه الوسيلة؟! فإذا كان لا معنى لهذا القول، **فلا قول في ذلك إلا قول من قال ما اخترنا فيه من التأويل أو قول من قال: هم الملائكة، وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل**»[2].

= كلاهما عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: عيسى ابن مريم وعزير والملائكة.

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة (ص ٢٨٤).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٦٣١ - ٦٣٢).

قال شيخ الإسلام ـ تعقيباً على كلام ابن جرير ـ: «وهذا الذي قاله إن كان صواباً فهو أبلغ في النهي عن دعاء المسيح وعزير وغيرهما من الأموات من الأنبياء والصالحين، **فإنه إذا كان الحي الذي يتقرب إلى ربه بالعمل لا يجوز دعاؤه، فدعاء الميت الذي لا يتقرب بالعمل أولى أن لا يجوز،** وإن كانت الآية تعم هذا وهذا، فهي دالة على ذلك فدلالتها ثابتة على كل تقدير.

والصحيح أنها تعم هؤلاء وهؤلاء؛ وذلك أن هؤلاء كانوا في حياتهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، وهو لم يقيد ذلك بزمن النزول بل أطلق.

وإذا قال القائل: آدم ونوح وإبراهيم وموسى يعبدون الله ولا يشركون به، علم أن المراد هذا دينهم، قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤] كان حكم النبيين بها قبل نزول الآية بدهر.

والعرب تقول: مضى حتى لا يرجونه، وشربت الإبل حتى يجيء البعير فيقول برأسه كذا. ومنه قراءة من قرأ: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] وهذا ماض، وقد قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: ٥٨] وهذا قد مضى قبل نزول القرآن، والفعل مضارع لأنه حكى حالهم الماضي، ولهذا تقول النحاة: هذا حكاية حال، كقوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨].

فإن قيل: المعروف في مثل هذا أن يقال: كانوا يفعلونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قيل: لكن إذا كان في الكلام ما يبين المراد لم يحتج إلى ذلك لا سيما إذا ذكر ماضٍ وحاضر وعمهم الخطاب فهنا يتعين حذف كان؛ لأن

المقصود الإخبار عن حال هؤلاء [الحاضرين و] الحاضرون لا يخبر عنهم بكان، كما تقول: المؤمنون من الأولين والآخرين يعبدون الله لا يشركون به.

والآية هنا قصد به التعميم لكل ما يدعى من دون الله، **وكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها، فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن**»[١].

٤ ـ دليل عبادة الأجرام والكواكب العلوية:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والآية دليل على أن من بعث إليهم النبي ﷺ فيهم من يعبد الشمس والقمر.

وفي العرب من يعبد الشعرى الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم: ٤٩] وهو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء.

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ يقول جل ثناؤه: وأن ربك يا محمد هو رب الشعرى. يعني بالشعرى: النجم الذي يُسَمَّى هذا الاسم، **وهو نجم كان بعض أهل الجاهلية يعبده من دون الله**. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[٢] ثم أسنده إلى جماعة، صرح بعضهم بعبادة العرب له، وهم:

ـ مجاهد، قال: «الكوكب الذي خلف الجوزاء، **كانوا يعبدونه**»[٣].

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة (ص ٢٨٥ - ٢٨٦).

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٨٥) قال: حدثني علي بن سهل، قال: ثنا مؤمل، =

ـ وقتادة، قال: «**كان حي من العرب يعبدون الشعرى**، هذا النجم الذي رأيتم»(١).

ـ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «**كانت تُعبدُ في الجاهلية**، فقال: تعبدون هذه وتتركون ربها! اعبدوا ربها. قال: والشعرى: النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء، يقال له: المِرْزَمُ» (٢).

ولذا خصه الله جل وعلا بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩].

قال القرطبي: «وإنما ذكر أنه رب الشعرى، وإن كان رباً لغيره؛ لأن **العرب كانت تعبده** فأعلمهم الله ـ جل وعلا ـ أن الشعرى مربوب وليس برب...»(٣).

وقد سبق العرب إلى عبادة الكواكب:

١ـ أهل الهند.

٢ ـ وقوم إبراهيم، وقد ذكر الله - جل وعلا- لنا في كتابه المناظرة التي جرت بينه وبين قومه بشأن الكواكب كما في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ

= قال: ثنا سفيان، عن خصيف، عن مجاهد.

قلت: خصيف هو ابن عبد الرحمن الجزري فيه ضعف، وبقية رجال الإسناد لا بأس بهم.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٨٦) قال: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة، فذكره. وهذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٨٦) قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد. وهذا إسناد صحيح.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٧٨).

لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩].

قال ابن كثير: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في **عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته،** ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهنّ إضاءة وأشرفهنّ عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة.

فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام، خلقها الله منيرةً لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال،

ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً، ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[(١)].

وعبد الكواكب قوم سبأ وهم حمير ملوك اليمن كما قص الله لنا خبرهم في سورة النمل.

والخلاصة أن من العرب الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ من عبد الكواكب.

٥ ـ دليل عبادة الأشجار والأحجار:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ١٩ـ٢١].

اللات والعزى ومناة أسماء آلهة للعرب.

«قال الواحدي وغيره: وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى، فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العزى، وهي تأنيث الأعز بمعنى العزيزة، ومناة من مَنَى الله الشيء إذا قدره»[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٥٦ - ١٥٧).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٠٧).

قال قتادة ـ في تفسير الآية ـ: «هي آلهة كان يعبدها المشركون، وكانت اللات لأهل الطائف، وكانت العزى لقريش، وكانت مناة للأنصار»(١).

وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الآلهة (اللات والعزى ومناة) على قولين:

القول الأول: أنها أوثان اشتهرت عند العرب وعظم اعتقادها فيها.

(اللات) تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس، والتخفيف هي القراءة المشهورة عندنا.

فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من لت يلت لتاً، وفسروه بأنه كان رجلاً يَلتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ : «كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج»(٢).

وعلى قراءة التخفيف فإن اللات مشتقة من الله أو من الإله (٣).

قال الإسماعيلي ـ تعليقاً على أثر ابن عباس ـ: «هذا التفسير على قراءة من قرأ اللات بتشديد التاء».

قلت ـ القائل ابن حجر ـ: «وليس ذلك بلازم، بل يحتمل أن يكون هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (٣٠٣٦) من طريق معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ (٨/ ٦١١)، قال: حدثنا سلم بن إبراهيم، حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس.

(٣) انظر: كلام ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٤٦). وانظر: - أيضاً - رسالة «عقيدة العرب في وثنيتهم» للعلامة المعلمي ضمن مجموع رسائل له (ص١٧٦).

أصله وخُفِّف لكثرة الاستعمال...»[١].

قال ابن كثير: «وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها...»[٢].

والصخرة هذه هي التي كان الرجل يلت السويق عليها، وهذا ما جاء عن ابن عباس، فقد قال: «إن اللات لما مات، قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها وبنوا عليها بيتاً»[٣].

وقال مجاهد: كان يلت السويق للحاج، فعُكِف على قبره[٤].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢٣).

(٣) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة - كما في فتح الباري (٨/ ٦١٢) - باللفظ المذكور.
وأخرجه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ١٢٥ - ١٢٦)، قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا فيلت سويقهم، وكان (ذا) غنم، فسميت صخرة اللات فمات، فلما فقده الناس، قال لهم عمرو: إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة...

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٤٧) قال: حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ قال: كان يلت السويق للحاج، فعكف على قبره.
وأخرجه الفراء في معاني القرآن (٣/ ٩٧ - ٩٨) قال: وحدثني القاسم بن معن عن منصور بن المعتمر عن مجاهد قال: كان رجلاً يلت لهم السويق، وقرأها: اللاتّ والعزى، فشدد التاء» وهذا إسناد صحيح.

وقال ابن جريج: «كان رجل من ثقيف يَلُتُّ السويق بالزيت، فلما توفي جعلوا قبره وثناً»[١].

ولا تعارض بين القولين، فمن قال إنها صخرة لم ينف وجود القبر، وكذا من قال إنه قبر لم ينف وجود الصخرة، والظاهر أنه قبر وعليه أو حواليه صخرة.

والمقصود بالعبادة والتعظيم أصالة القبر وصاحبه، ثم حصل التعظيم للصخرة تبعاً لكونها صارت قبلة له ودليلاً عليه [٢].

وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب، فهدماها، وجعلا مكانها مسجد الطائف[٣].

(والعزى): شجرات بين مكة والطائف، وهذا قول مجاهد.

وروي عن سعيد بن جبير: أنه حجر أبيض[٤]. والأول أشهر.

وقد بني عليه بناء وله سدنة وحجاب ويعظم كالكعبة، وتهدى له الهدايا، وكانت العرب تعبد له في الأسماء فيسمون (عبد العزى).

وقد بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها [٥]، وجعل يقول:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٢٦) إلى ابن المنذر.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص ١٧٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٤٩) قال: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد بن جبير. وهذا إسناد ضعيف.

(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ (٦/ ٤٧٤) برقم (١١٥٤٧) قال: أخبرنا علي بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكان بها العزى، فأتاها خالد، وكانت على ثلاث سمرات، =

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

(ومناة): قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، فعلى قراءة الجمهور اشتقاقها من منى يمنى، أي: صبّ ؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها يتقربون بذلك إليها.

وعلى القراءة الثانية يكون اشتقاقها من النوء، وهو المطر ؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء.

وقيل: هما لغتان للعرب [(١)].

(ومناة): صخرة، وقيل: صنم.

القول الثاني: أن المراد ـ باللات والعزى ومناة ـ الملائكة، التي أطلقوا عليها بنات الله.

وانتصر لهذا القول بقوة: العلامة المحقق عبد الرحمن المعلمي[(٢)].

واحتج له بسياق الآيات من وجوه:

١ـ ما تقرر في كلام النحاة من أن «أرأيت كذا» تتعدى إلى مفعولين:

= فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة - وهم حجبتها - أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزى، يا عزى. فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحتفن التراب على رأسها، فعَمَّمَها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى». وهذا إسناد أقل أحواله الحسن.

(١) فتح القدير (٥/ ١٠٨).

(٢) رسالة بعنوان (عقيدة العرب في وثنيتهم) مطبوع ضمن خمس رسائل للمعلمي (ص١٧٧-١٨١).

الأول منصوب، والثاني استفهام، ويكون له تعلق بالأول.

وعلى هذا جاء القرآن كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: ٦٨ـ ٦٩].

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾ [الواقعة: ٧١ـ٧٢].

ـ ففي هذه المواضع ترى الاستفهام متعلق بالمفعول الأول.

وكذلك هنا فالاستفهام مفعول رأيت الثاني [١]، وهو قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ متعلق بمفعول رأيت الأول (اللات والعزى ومناة) وعليه فتكون هذه الآلهة في نظرهم إناثاً.

وقد دل القرآن على أنهم جعلوا الملائكة إناثاً، وقالوا: بنات الله.

قال ابن جرير ـ في تفسير هذه الآية ـ: «سمّى المشركون أوثانهم بأسماء الله ـ تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ـ فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى، وزعموا أنهن بنات الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ، فقال ـ جل ثناؤه ـ لهم: أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله، ألكم الذكر»[٢].

قال المعلمي ـ تعليقاً على كلام ابن جرير ـ: «أقول: لعمر الله، لقد جرى على القاعدة التي سبق تحريرها، ولقد صدق: أن المشركين كانوا

---

(١) والذين قالوا المراد بـ(اللات والعزى ومناة) الأصنام قطعوا الاستفهام في الآية عما قبله، وجعلوا المفعول الثاني جملة محذوفة دل عليها السياق، تقديرها: ألكم الأحياء ولنا الجماد، أو نحو ذلك.

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٤٦).

يطلقون (اللات والعزى ومناة) على تلك الأوثان، ولقد صدق أنهم كانوا يقولون: اللات والعزى ومناة بنات الله، ولكن الشأن في المراد باللات والعزى ومناة في الآيات؟

فإن كانت هي تلك الجمادات فلم يكونوا يقولون: إنها بنات الله.

ولو قالوا ذلك لكانوا مجانين ألبتة، لا يستحقون أن يخاطبوا ولا يرسل إليهم رسول، [أو][1] لو قالوا ذلك: لكثر تبكيتهم في القرآن أكثر من تبكيتهم على قولهم الملائكة بنات الله.

ولو كان المراد ذلك، كان حق الكلام أن يقال: ألكم الأحياء وله الجمادات، أو نحو ذلك»[2].

٢ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. أي: لا وجود لها البتة، وإنما يوجد أسماؤها فقط، وهذا لا يتأتى في الأصنام، لأنها موجودة بذواتها.

٣ ـ أنه قدَّر أنهم سيقولون جواباً - على ما تقدم: «هي الملائكة، والملائكة موجودون»، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦].

٤ ـ أنه سبحانه وتعالى ختم مناقشتهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم: ٢٧].

فكادت تصبح الآيات نصاً قاطعاً في أن اللات والعزى ومناة جعلها المشركون أسماء للملائكة، مع زعم أنهم بنات الله.

---

(١) كذ بالكتاب، ولعل الصواب: (و).

(٢) عقيدة العرب في وثنيتهم (ص١٧٨- ١٧٩).

وكما ترى فالقول الثاني أقوى، ويدل عليه سياق الآيات، وقد مال إليه العلامة سليمان بن عبد الله، فقد قال - بعد أن ذكر القول الأول المشهور -: «وقال غيره: يجوز أن يراد اللات والعزى ومناة إناث...» ثم قال: «قلت: ما أقرب هذا القول إلى سياق الآية»[(١)].

وأقدم من أشار إليه: الإمام المفسر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقد ذكر آية النجم مع الآيات التي فيها أنهم جعلوا الملائكة بنات الله، وجعلها من نظائرها.

قال عبد الرحمن بن زيد: «جعلوا لله بنات، وجعلوا الملائكة لله بنات، وعبدوهم، وقرأ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٦-١٧]، وقرأ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

وقال: دعوا لله ولداً كما دعت اليهود والنصارى، وقرأ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ [البقرة: ١١٨] (والضيزى) في كلام العرب: المخالفة، وقرأ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [النجم: ٢٣]»[(٢)].

قال المعلمي: «فسياق الآيات يخالف هذا المعنى ـ أي أن المراد بالآلهة الأوثان ـ، وأما سائر المفسرين فاضطرب كلامهم اضطراباً شديداً، وأقرب ما رأيته ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد...»[(٣)] فذكره.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص ١٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٤) قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد... فذكره. وهذا إسناد صحيح.

(٣) عقيدة العرب في وثنيتهم (ص ١٧٩).

قلت: وقد ظهر لي وجهاً فيه جمع بين القولين، وهو أن يقال: أنهم أرادوا بالآلهة ـ اللات والعزى ومناة ـ الأصنام[١] غير أنهم اعتقدوا أن كل صنم موكل به ملك يلبي حاجاتهم ثم مع مرور الوقت صاروا يريدون بالآلهة الملائكة الموكلة بها فجاء سياق القرآن على هذا المعتقد. والله أعلم.

❖ ❖ ❖

ثالثاً: العلماء الذين نصوا على القاعدة:

١ ـ حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت ٦٨هـ).

قال ـ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦] ـ: «**كان أهل الشرك** يقولون: نعبد الملائكة وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني: **الملائكة والمسيح وعزيراً**»[٢].

وقال ـ تفسيراً لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] ـ: «عيسى وأمه وعزير»[٣].

٢ ـ الإمام الحجة أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الكوفي (ت: ٩٥هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «... ومن أطاع الشيطان في دينه وعمله فقد عبد

---

(١) التي هي تماثيل لأشحاص معينين، كما سيأتي إثباته.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١٤/ ٦٢٦) قال: حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد مسلسل بالعوفيين، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٦٣٠) قال: حدثني يحيى بن جعفر، قال: أخبرنا يحيى ابن السكن، قال: أخبرنا شعبة، عن إسماعيل السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس فذكره.

الشيطان؛ ألم تر أن الله قال للذين فرطوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم، فمنهم من أمرهم فاتخذوا **أوثاناً، أو شمساً، أو قمراً، أو بشراً، أو ملكاً**، يسجدون له من دون الله، ولم يظهر الشيطان لأحد منهم، فيتعبد له أو يسجد له، ولكنهم أطاعوه...»(١).

٣ـ حافظ العصر وقدوة المفسرين والمحدثين قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]: الآلهة. ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]: **الملائكة وعيسى وعزير** قد عبدوا من دون الله، ولهم شفاعة عند الله تعالى ومنزلة»(٢).

٤ـ إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] ـ: «... فذلك على جميع من كان تعبد قريش من دون الله يوم نزلت هذه الآية وغيرهم، وقد كان منهم من يعبد من دون الله الآلهة، **وكان**

---

(١) أخرجه ابن نصر في كتابه تعظيم قدر الصلاة من طريقين (برقم ٣٤٥، ٣٤٦) عن ابن لهيعة عن عطاء بن دينار الهذلي أن عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير... فذكره.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٦٦٢) قال: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة.

وأخرجه من طريق ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور.

وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٣) كلاهما عن معمر عن قتادة. وهذا صحيح ثابت عن قتادة.

منهم من يعبد من دون الله الملائكة وغيرهم»[(١)].

٥ ـ أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ).

تقدم نص كلامه[(٢)].

٦ - إمام المتكلمين أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي الحنفي (ت٣٣٣هـ).

قال - في تفسير قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان: ١٧] - «اختلف فيه، قال بعضهم: يحشر أولئك الذين عبدوا دون الله والمعبودين، وهم: **الملائكة؛ لأن من العرب من قد عبدوا الملائكة من دون الله**، كقوله - في آية أخرى - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبا: ٤٠ - ٤١].

وقال بعضهم: **هو عيسى**، يحشر بينه وبين من عبدوه؛ **لأنه قد عبد دون الله، فيقول له ما ذكر، وهو قوله** ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ١١٥].

وقال بعضهم: **يحشر الأصنام ومن عَبَدها**، ثم يأذن لها في الكلام، فيقول ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨- ٢٩].

ولو كان عيسى عليه السلام والملائكة لكانوا عالمين بعبادتهم إياهم غير

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٦٦٢).

(٢) انظر: (ص ١٧٩ - ١٨٠) من هذا الكتاب.

غافلين. دل ذلك أنها الأصنام التي عبدوها دون الله، وإياها يسألون.

وكل ذلك محتمل، إذ قد كان منهم ذلك كله، والله أعلم»[(١)].

وقال - في تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] -: «وقوله تعالى ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يُنطق الله جل جلاله **هذا الأصنام** يوم القيامة . . . . . . ويحتمل **الملائكة** أن يكونوا عليهم شهداء؛ **لأن فيهم من يعبد الملائكة**. . .»[(٢)].

٧ـ أبو المظفر منصور بن محمد المروزي السمعاني الشافعي (ت ٤٨٩ هـ).

قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الإسراء: ٥٧]-: «قرأ ابن مسعود: «أولئك الذين تدعون». وعنه أنه قال: **كان قوم من المشركين يعبدون قوماً من الجن فأسلم الجنيون** الذين كانوا يُعْبَدُون، وبقي هؤلاء على شركهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

معناه: إن الذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ والوسيلة، هي: الدرجة الرفيعة في الجنة.

وقيل: الوسيلة، كل ما يتوسل به إلى الله تعالى. أي: يتقرب.

وقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ، معناه: ينظرون أيهم أدنى وسيلة، وقيل: أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به.

وقيل: **الآية في عزير والمسيح** وغيرهما. وقيل: **الآية في الملائكة؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الملائكة**، والملائكة عبيد يطلبون إلى الله الوسيلة.

---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ٤٩٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٧٧).

وهذا في نفر من المشركين دون جمعيهم»[١].

٨ ـ أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشافعي الأشعري الشهرستاني (ت ٥٤٩هـ).

قال: «... **ومن العرب** من كان يميل إلى اليهودية، **ومنهم** من كان يميل إلى النصرانية، **ومنهم** من يصبو إلى الصائبة، ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول: مطرنا بنوء كذا، **ومنهم** من يصبو إلى الملائكة فيعبدهم بل كانوا يعبدون الجن، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله»[٢].

٩ ـ شيخ شافعية اليمن: يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٥٨ هـ).

قال: «وقد كانوا يعبدون **الجن والملائكة**»[٣].

١٠ - إمام المتكلمين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦ هـ).

فقد ذكر: أن المشركين جعلوا أصناماً للملائكة وعبدوها[٤]، وأصناماً على صور أنبيائهم وأكابرهم وعبدوها[٥].

وقد تقدم كلامه.

١١ - العلامة شيخ القراء علم الدين أبو الحسن على بن محمد السخاوي (ت: ٦٤٣هـ).

---

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٢٥٠ - ٢٥١).

(٢) الملل والنحل (٣/ ٢٢٣ - بهامش الفصل).

(٣) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١/ ٢٠١).

(٤) انظر: (ص ٢٤٦) من هذا الكتاب.

(٥) انظر: (ص ٢٢٤) من هذا الكتاب.

قال- في تفسير قوله تعالى ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢] -: «**الملائكة قد عبدوا، والمسيح قد عُبد،** فأخبر الله تعالى أن هذين المعبودين لا يستنكفان عن عبادته»[١].

وقال: «وجائز ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] يريد: المعبودين من **الملائكة والمسيح وعزير**. وعن الكلبي: يُنطق الله الأصنام ويسألها. **ويجوز أن يعم الجميع**، وإذا اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب العاقل»[٢].

١٢ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ).

قال ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ـ: «أي يقول الكفار: ما نعبد هؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده.

ويعني بذلك: الكفار الذين **عبدوا الملائكة**، أو الذين **عبدوا الأصنام**، أو الذين **عبدوا عيسى أو عزير**، فإن جميعهم قالوا هذه المقالة....»[٣].

١٣ ـ العلامة أبو المعالي علي أفندي السويدي الشافعي البغدادي العباسي (ت: ١٢٣٧).

قال ـ رحمه الله ـ: «أن الحاصل من متفرقات أقوالهم، أنه يجب إفراد الله تعالى بعبادته وتوحيده في معاملته؛ لأن الله سبحانه أرسل نبينا محمداً ﷺ داعياً إلى الله، ناهياً عن عبادة غيره، **وأنزل عليه كتاباً مبيناً، بَيَّن فيه أحوال**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٦٢٩).

(٣) انظر: (ص١٩٤) من هذا الكتاب.

المشركين، وما كانوا عليه من الشرك بإله العالمين، **وكان شركهم أن نصبوا أصناماً اعتقدوها مقربة لهم عند الله سبحانه، إمَّا لكونها** على صورة ملائكته، **وإما لكونهم** اعتقدوا أن الله تعالى قد شَرَّفَها بذواتها كما شَرَّفَ الكعبة، **وإما لكونها** صور أنبياء، **كما هو معلوم عند الناظرين السابرين لأحوال المشركين، أن منهم من عبد المسيح، ومنهم من عبد عزيراً، ومنهم من عبد أناساً صالحين**، كما قالوا في اللات، في قراءة من شَدَّدَ التاء، إنه كان رجلاً صالحاً يلت عندها السويق، فيطعمه للحجيج بمكة، وأنهم عبدوها مع الله سبحانه، **وقد كانت عندهم بقية من دين إبراهيم الخليل عليه السلام، فكانوا يحجون ويلبون ويستغفرون ويطعمون الطعام، ويستعملون أخلاق الكرام»**[١].

❖ ❖ ❖

رابعاً: فوائد القاعدة:

١ ـ أن المشركين الذين بعث فيهم رسولنا ﷺ كانوا مختلفين في معبوداتهم - وإن اتفقوا في هدفهم[٢] ـ فمنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الأنبياء كعيسى، ومنهم من عبد الصالحين كمريم واللات وصالحي الجن، ومنهم من عبد الأصنام... إلى غير ذلك.

٢ ـ أن النبي ﷺ عاملهم معاملة واحدة كما هو معلوم بالتواتر، فدعاهم جميعاً ومن لم يستجب منهم قاتله، ولو كان معبوده من عباد الله الصالحين أو أنبيائه المرسلين أو ملائكته المقربين.

---

(١) العقد الثمين (ص ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٢) وهو طلب القربة والشفاعة منهم عند الله، والوصول بهم إلى الخالق المتصرف في هذا الكون.

٣ ـ أنه لا فرق بين من طلب الشفاعة والقربة إلى الله من ولي من أولياء الله وبين من طلبها من عدو من أعداء الله، فكلاهما وقع في شرك ينافي التوحيد.

قال الشوكاني: «الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه، هو نوع من أنواع العبادة.

ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجراً أو شجراً أو ملكاً أو شيطاناً، كما كان يفعل ذلك في الجاهلية، **وبين أن يكون إنساناً من الأحياء أو الأموات**، كما يفعله الآن كثير من المسلمين.

وكل عالم يعلم هذا ويقرُّ به، فإن العلة واحدة، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد، وللحي كما يكون للميت.

فمن زعم أن ثمَّ فرقاً بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضرُّ أو ينفع، وبين من اعتقد في ميت من بني آدم، أو حي منهم أنه يضر أو ينفع، أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فقد غلط غلطاً بيناً، وأقر على نفسه بجهل كبير، فإن الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التَّقرُّب إلى غيره بشيء مما لا يتقرَّب به إلا إليه. ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكاً بالصنم والوثن والإله، ليس فيه زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد، كما يفعله كثير من المسلمين، **بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن، إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئاً يختص به سبحانه، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية أو أطلق عليه اسماً آخر فلا اعتبار بالاسم قط.**

ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به أهل العلم.

وقد علم كل عالم أن عبادة الكفار للأصنام لم تكن إلا بتعظيمها، واعتقاد أنها تضر وتنفع، والاستغاثة بها عند الحاجة والتقريب لها في بعض الحالات بجزء من أموالهم، **وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور**، فإنهم قد عظَّموها إلى حد لا تكون إلا لله سبحانه»[(١)].

٤ ـ بطلان مسلك القبوريين في دعواهم عدم جواز الإحتجاج على انحرافهم وضلالهم بالآيات التي نزلت في المشركين.

وهذه شبهة يرددها كثير من القبوريين[(٢)]. وحجتهم: أن هناك فرقاً بين من تقرب إلى الله وطلب الشفاعة من الأصنام كالمشركين، وبين من تقرب إلى الله وطلب الشفاعة من الصالحين[(٣)].

والقاعدة ترد عليهم.

ثم يقال لهم: إذا لم يكن الالتجاء بالقبور وسؤال أهلها والتضرع على أضرحتهم شركاً وكفراً = لم يكن سؤال الأصنام والتضرع عندها شركاً وكفراً.

---

(١) الدر النضيد (ص ٦٩ - ٧٠).

(٢) ولأهمية هذه الشبهة لدى القبوريين، فقد عقد فضيلة الشيخ الدكتور: عبد العزيز آل عبداللطيف في كتابه (دعاوى المناوئين) مبحثاً بعنوان: شبهة تنزيل آيات في المشركين على مسلمين (ص٢٢٧-٢٣٢) فناظره لترى مدى انحراف القوم.

(٣) ولهم حجة أخرى، وهي: أن المشركين يعتقدون التأثير في معبوداتهم، بخلاف القبوريين، فيقولون: نحن لا نعتقد التأثير في الصالحين.

ونقض هذه الشبهة بالقاعدة الأولى، وقد تقدم.

وغاية أمر من صرفها للأصنام والأوثان ـ على مفهوم القبورية ـ أن يكون كمن طلب القيام من مُقْعَد ظاناً أنه غير مقعد، وكمن طلب القراءة من أعمى ظاناً أنه مبصر، وكمن طلب من ميت حاجة ظاناً أنه نائم، وعلى هذا فلا يكون كفار قريش مشركين !!

وهذا لازم لكل قبوري، لا يستطيع الفرار منه إلا بالاعتراف ببطلانه مذهبه.

٥ ـ بطلان ما اعتمد عليه القبوريون في تبريرهم الاستغاثة بغير الله بدعوى كرامات الأولياء.

ووجه هذا: أن المشركين تقربوا إلى الله بأناس صالحين، قال ابن حجر: «وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك»[(١)].

فلو كانت هذه الحجة صالحة لما أنكر عليهم اتخاذهم شفعاء يقربونهم لله.

قال العلامة صُنْعُ الله بن صُنعِ الله الحلبي المكي الحنفي (ت: ١١٢٠ هـ): «وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة، وأن يظن بهم أن دفع الضر وجلب النفع منهم كرامة، فهذا ظن أهل الأوثان ـ كما أخبر الرحمن ـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»[(٢)].

وقال العلامة المقريزي: «**فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك**، وهو شرك عُبَّاد الأصنام، وعُبَّاد الملائكة، وعباد الجن، وعُبَّاد المشايخ الصالحين ـ الأحياء والأموات ـ **الذين قالوا: إنما نعبدهم**

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٦٩).

(٢) سيف الله على من كذب على أولياء الله (ص ٤٨).

ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم: قُربٌ وكرامةٌ، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تُبْطِلُ هذا المذهب وتَرُّده وتقبِّحُ أهْلَه، وتنصُّ على أنهم أعداء الله تعالى، **وجميع الرسل** ـ صلوات الله عليهم ـ **متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم**، وما أهلك الله تعالى من أهلك من الأمم إلا **بسبب هذا الشرك ومن أجله**»[١].

وهذا الذي ذكرنا حكاه ابن جرير الطبري عن جماعة – **في تفسير قوله** تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ـ فقال «قال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ **أقروا بأن الله هو الذي رزقهم**، ثم ينكرون ذلك بقولهم: **رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا**»[٢].

٦ ـ بطلان مسلك القبوريين في تبريرهم الشرك بغير الله بدعوى التبرك.

وذلك أن أهل الجاهلية ما عبدوا (اللات) وغيرها من الآلهة إلا من أجل البركة ـ وما عظموا أحجار الحرم إلا من أجل البركة.

قال العلامة ولي الله الدهلوي الحنفي (ت: ١١٧٦) ـ في أعمال أهل الجاهلية ـ: «ومنها: الحج لغير الله تعالى، **وذلك أن يقصد مواضع متبركة مختصة بشركائهم يكون الحلول بها تقرباً من هؤلاء**، فنهى الشرع عن ذلك، وقال النبي ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»[٣].

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٤٥).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٣٢٦).

(٣) حجة الله البالغة (١/ ٦٣).

وقال ـ تعليقاً على الحديث المذكور ـ: «**كان أهل الجاهلية يقصدون مواضع معظمة بزعمهم يزورونها ويتبركون بها**، وفيه من التحريف والفساد ما لا يخفى، فسد النبي ﷺ الفساد لئلا يلتحق غير الشعائر بالشعائر، ولئلا يصير ذريعة لعبادة غير الله، **والحق عندي أن القبر ومحل عبادة ولي من أولياء الله والطور كل ذلك سواء في النهي**، والله أعلم»(١).

وجاء في السنة صراحة ما يدل على أن مشركي العرب ابتغوا البركة من معبوداتهم، كما رواه أبو واقد الليثي رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنها السُّنَنُ، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلهم»(٢).

قال العلامة عبدالرحمن بن حسن: «وكان عُكُوْفُ المشركين عند تلك السدرة تبركاً بها وتعظيم لها»(٣).

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٢).

(٢) أخرجه معمر في الجامع (برقم٣٠٧٦٣ - مطبوع مع المصنف لعبد الرزاق) وأحمد في المسند (٥/ ٢١٨ ط. الميمنية) و(٣٦/ ٢٢٥ برقم ٢١٨٩٧، ٢١٩٠٠ ط. الرسالة) والترمذي (ح ٢١٨٠) والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ١٠٠برقم ١١١٢١) من طريق الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي فذكره مرفوعاً. وهذا إسناد رجاله ثقات، من رجال الصحيحين. وقد صحح الحديث الترمذي.

(٣) فتح المجيد (ص ١٥٩).

قال أبو شامة - عند كلامه على القسم الذي تعرف العامة والخاصة أنه بدعة -: «ومن هذا القسم - أيضاً - ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة: تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد، يحكي لهم حاكٍ: أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر...

فما أشبهها بـ (ذات أنواط) الوارد في الحديث»[1].

٧ ـ فساد مسلك القبوريين في تبرير دعاء غير الله بحياة الأنبياء والأولياء في قبورهم.

ووجه فساد هذا المسلك: أن من المشركين من كان شركهم بالتقرب إلى الله بأناس صالحين.

قال الشيخ محمد طاهر بن آصف الحنفي الماتريدي النقشبندي (ت: ١٤٠٧هـ) ـ بعد سرد أقوال المفسرين ـ: «**فاتفقت كلمتهم على أن المشركين [كانوا] يدعون العباد الصالحين ويتوسلون بهم**، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله...، **ويعطون** النذور لهم باعتقاد أنهم يقربونا إلى الله زلفى، **فكان شركهم** العبادة للمقبورين، والدعاء من الغائبين والأموات[2] أن أصحاب القبور يسمعون الدعاء والنداء، ويعلمون السر وأخفى، ويتصرفون في

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث (صـ ١٠١).

(٢) هكذا في الأصل، وهو ركيك، وبإضافة (واعتقادهم) تزول الركاكة.

الأموات كيف يشاؤون»[١].

❖ ❖ ❖

خامساً: الشبه والاعتراضات على القاعدة:

الشبهة الأولى: أن المشركين إنما تقربوا إلى الله بحجرة صماء.

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أنهم لم يتقربوا إلى الله بالأصنام فقط بل عبدوا الأنبياء والصالحين لتقربهم إلى الله، والعجب أنك ترى القبوريين يحتجون بحديث: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه»[٢]، فقد احتج به جماعة من القبوريين[٣]،

---

(١) البصائر (ص ١٠٦ ط. باكستان)، (ص ٣٠٥ ط. قطر) بواسطة كتاب: جهود علماء الحنفية في الرد على القبورية (١/ ٤١٤).

(٢) قال ابن القيم: هو من وضع المشركين عباد الأوثان. المنار المنيف (ص ١٣٩). وذكره الملا علي القاري في موضوعاته، وقال: «قال ابن القيم: هو من كلام عباد الأصنام الذين يحسنون ظنهم بالأحجار. وقال ابن حجر العسقلاني: لا أصل له» (ص ٦٦)، وحكم بوضعه العلامة الألباني في كتاب (السلسلة الضعيفة والموضوعة ح ٤٥٠).

(٣) منهم: حمد الله الداجوي الديوبندي في كتابه (البصائر لمنكري التوسل بأهل المقابر)، ومنهم: كفاية الله ابن القاضي أمان الله الديوبندي في كتابه (الذخائر لأهل البصائر)، انظر: جهور علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية/ للدكتور شمس الدين الأفغاني (٣/ ١٢٧٦ - ١٢٧٧).

وقال العلامة الخجندي: «فنشأ عن تلك البدع وضع الأحاديث المصنوعة التي صارت سبباً لشرك كثير من الجهلة، كقول الخواجة محمد بارسا خليفة الخواجة بهاء الدين النقشبند في كتابيه (فصول السنة) و(فصل الخطاب): قال رسول الله ﷺ: «إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا من أهل القبور...» انظر: الترجمة الخجندية (ص ٧٩).

وكأنهم يقيمون على أنفسهم من أنفسهم شاهداً عليهم بتعظيم الأحجار وأنهم على طريقة الجاهليين.

بل قد صرح بجواز ذلك وأنه ليس شركاً عظيم الرافضةِ القبوريةِ الخميني، حيث قال: «إن الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين على أساس كونه إلهاً، فإن ما دون ذلك ليس بشرك، ولا فرق في ذلك بين حي وميت، فطلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركاً»[١].

الوجه الثاني: أن المشركين عندما عبدوا الأصنام وتقربوا بها إلى الله ما أرادوا إلا ما جعلوا الأصنام رمزا عليه، فالأصنام ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي للدلالة على غائب يراد استحضاره حال العبادة، وأدلة هذا في الفصل التالي.

---

(١) كشف الأسرار (ص ٤٩).

فصل
في بيان اعتقاد العرب في الأصنام، وأنهم لم يتخذوها لذواتها، وإنما للدلالة بها على غائب يراد استحضاره حال العبادة

اتخذت العرب الأصنام على أنها تماثيل على صورة معبوداتهم التي تقربهم إلى الله، فهي صور على هيئة من اعتقدوا فيه المكانة من ملك أو نبي أو كوكب ونحوها، فسألوها باعتبار أنها نائبة منابه وقائمة مقامه، تُذَكِّر به وتَدُلُّ عليه.

فلاستحضاره وإنزاله منزلة الموجود اتخذوا الأصنام.

قال البيضاوي: «قوله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]، لعله رد لما عسى يجيبون به، **وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون، وهي تماثيلهم**»(١).

وزعم بعض الناس أن العرب عندما اتخذت الأصنام آلهة أرادت ذوات الحجارة الماثلة أمامهم، فهي مراد القوم ومنتهى مقصدهم وغاية أملهم(٢).

فما صنع باليد هو المراد، وما تَكَوَّن من تمر أو تراب هو الإله المقصود الشافع المقرب إلى الله.

---

(١) انظر: (ص ١٨١)، من هذا الكتاب.

(٢) قال الصابوني - تعليقاً على أثر ابن عباس في آية نوح -: «فهم في الحقيقة ما عبدوا الرجال الصالحين، وإنما عبدوا الأصنام التي سموها بأسمائهم، كما عبد المشركون من أهل مكة الأصنام التي كانت حول الكعبة، وعبدوا (اللات والعزى ومناة) وهي أسماء لأناس صالحين أيضاً، فهل نقول إن كفار مكة كانوا يعبدون الأوثان أم الرجال؟!». انظر: كتابه (كشف الافتراءات ص ١١٩-١٢٠).

وهذا الزعم يحرص القبوريون على القول به وتأكيده، ليوجِدوا فرقاً بينهم وبين الجاهلين الذين بعث فيهم رسولنا ﷺ.

والصحيح الأول، وهو الذي صرح به المفسرون وأهل الكلام والفقهاء وغيرهم.

قال أبو يحيى زكريا الأنصاري (٩٢٦ هـ): «قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ... إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

إن قلت: هذا يدل على أنهم معترفون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، فكيف عبدوا الأصنام؟

قلت: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه، لكن بطرق مختلفة.

ـ ففرقة قالت: ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فعبدناها لتقربنا إليه تعالى، كما قال ـ حكاية عنهم ـ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ـ وفرقة قالت: الملائكة ذو جاه ومنزلة عند الله، **فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله**.

ـ وفرقة قالت: **جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى**، كما أن الكعبة قبلة في عبادتهم.

ـ وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً **موكلاً بأمر الله**، فمن عبد الصنم حق عبادته، قضى الشيطان حوائجه **بأمر الله** وإلا أصابه الشيطان بنكبة **بأمر الله**»[1].

---

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٣٢٦).

وقال أبو الفتح الشهرستاني: «اعلم أن الأصناف التي ذكرنا مذاهبهم يرجعون آخر الأمر إلى عبادة الأصنام، **إذ كان لا يستمر لهم طريقة إلا بشخص حاضر ينظرون إليه ويعكفون عليه**، وعن هذا اتخذت أصحاب الروحانيات والكواكب أصناماً؛ **زعموا أنها على صورتها.**

وبالجملة وضع الأصنام حيثما قدر إنما هو على معبود غائب **حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائباً منابه وقائماً مقامه**، وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلا ما لا ينحت بيده جسماً ويصوره صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل وخالق الكل؛ إذ كان وجوده مسبوقاً بوجود صانعه، وشكله يحدث بصنعة ناحته.

لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله تعالى كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها، وعن هذا كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] **فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية والإلهية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب**»[(١)].

وقال الرازي - في تفسير آية يونس - قال: «واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين:

أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

والثاني: أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله» - فذكر أوجه تقرير فساد الأول - ثم قال: «وأما النوع الثاني: ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية، وهو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ **.فاعلم أن من الناس من**

---

(١) الملل والنحل (٢/ ٦١).

قال: إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى، فقالوا: ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى، **بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام**، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى.

ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام: إنها شفعاؤنا عند الله، وذكروا فيه أقوالاً كثيرة:

فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل إقليم من أقاليم العالم روح معين من أرواح عالم الأفلاك، **فعينوا لذلك الروح صنماً معيناً، واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح**، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح **يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته.**

وثانيها: أنهم كانوا يعبدون الكواكب، **وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى**، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب **وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها**. ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب.

وثالثها: أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات.

ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى.

ونظيره في هذا الزمان: اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله.

وخامسها: أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار، **فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صوراً أخرى.**

سادسها: لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى، وهو قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]»[١].

وحكى الرازي في موضع آخر على لسان المشركين عقيدتهم، فقال: «. . . فكأنهم قالوا: نحن لا نَشُك أن شيئاً منها ـ يعني الأصنام ـ ليس مثلاً لله تعالى ولا قريباً من أن يماثله، **وإنما صورنا هذه الأشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الأنبياء**، وقالوا: إنهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى، ويرد عليهم الأمر والنهي، وينهون إلى الله ما يصدر من عباده في أرضه، وهم بنات الله، **فاتخذنا صوراً على صور الإناث**، وسميناها أسماء الإناث. . . .»[٢].

وقال مسعود التفتازاني (٧٩١ هـ) ـ لما ذكر أصناف المشركين، واعتقادهم في تأثير معبوداتهم ـ: «أما عبدة الملائكة والكواكب فيمكن أنهم اعتقدوا كونها مؤثرة في عالم العناصر مدبرة لأمور قديمة بالزمان، **شفعاء العباد عند الله تعالى مقربة إياهم إليه تعالى**. وأما الأصنام، فلا خفاء في أن العاقل لا يعتقد فيها شيئاً من ذلك.

قال الإمام: فلهم في ذلك تأويلات باطلة. . . - فذكر أربع تأويلات، ثم قال - الخامس: أنه لما مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله تعالى **اتخذوا**

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٦٢ - ٦٣).

(٢) المصدر السابق (٢٨/ ٢٥٦).

تمثالاً على صورته وعظموه، تشفعاً إلى الله تعالى وتوسلا»[١].

وقال الحافظ ابن كثير: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية **التي هي على صور الملائكة السماوية** ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه...»[٢].

وقال أبو السعود ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]ـ: «عن النضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة يشفع لي اللات.

قيل: إنهم كانوا يعتقدون أن المتولي لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلاك، **فعينوا لذلك الروح صنماً معيناً من الأصنام**، واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عند الإله الأعظم مشتغلاً بعبوديته.

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الكواكب، **فوضعوا لها أصناماً معينة**، واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكب.

وقيل: **إنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام** ثم تقربوا إليها.

وقيل: **إنهم وضعوا هذا الأصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم**، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر يشفعون لهم عند

(١) شرح المقاصد (٤/ ٤١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٧ - سورة الأنعام، آية ٧٤ - ٧٩).

الله تعالى»[١].

وقال الألوسي: «ونسبة الشفاعة للأصنام، قيل: باعتبار السببية؛ وذلك لأنهم كما هو مشهور، **وضعوها على صور رجال صالحين ذوي خطر عندهم**، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادتها، فإن أولئك الرجال يشفعون لهم.

وقيل: إنهم كانوا يعتقدون أن المتولي لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلاك، **فعينوا لذلك الروح صنماً من الأصنام**، واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكب.

وقيل غير ذلك.

والحق: أن من الأصنام ما وضع على الوجه الأول، ومنها ما وضع لكونها كالهياكل للروحانيات»[٢].

وقال المعلمي اليماني: «فالعرب كغيرهم من الأمم إنما **اتخذوا الأصنام تماثيل أو تذاكير للملائكة** مع زعمهم أنهم إناث هن بنات الله، **وعظموها على نية التعظيم لمن جعلت تمثالاً أو تذكاراً له**، وطمعوا أن تعظيمهم لها يقربهم من الملائكة فيشفعوا لهم، كما جرت العادة أنك إذا رأيت صورة إنسان فاحترمتها فبلغه ذلك، شكره لك، وكذلك إذا خصصت شيئاً على أنه تذكار له ثم احترمته»[٣].

ودلائل هذا القول من المنقول ومن الواقع والعقل كثيرة، وإليك ذكرها:

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ١٣١ - ١٣٢).

(٢) روح المعاني (١١/ ٨٩).

(٣) عقيدة العرب في وثنيتهم (ص ١٨١- ضمن مجموع فيه خمس رسائل).

أولاً: الدلائل النقلية:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

ووجه الدلالة ـ تقدم ـ: أن هؤلاء المدعوين هم عباد صالحون يبتغون إلى ربهم القربة ويرجعون رحمته ويخافون عذاب.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١].

قال العلامة عبدالرحمن بن حسن: «وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١]، **وليست هذه الآية في الأصنام** كما يزعمه من لم يتدبر؛ لأن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ **لا يخبر به إلا عن العقلاء، ولأن الأصنام من الأخشاب والأحجار لا يحلها الموت**، فإنها لم تحلها الحياة حتى يحلها الموت، **ولأنها لا تبعث يوم القيامة** بعث الإنسان ليجزى بما كسبت يداه، **ولا يعقل منها شعور بهذ البعث حتى ينفيه الله عنها**، وقد قال تعالى ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ . **فهذه الآية فيمن يموت ويبعث كما لا يخفى على من تدبرها.**

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ **وهذا إنما يستعمل فيمن يعقل** كما لا يخفى على من له معرفة باللغة العربية، فالحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة»(١).

٣- قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) القول الفصل النفيس (ص ٣٦).

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

قال علم الدين السخاوي: «وإنما قال (من) و ﴿وَهُمْ﴾ لأنه أسند إليهم فعل العقلاء، وهو الدعاء والاستجابة .**ويجوز أن يراد: كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان، فغلب من يعقل**»(١).

٤ ـ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٧].

وقد تقدم بيان دلالتها على أن الآلهة المذكور هي الملائكة(٢).

٥ ـ أن النبي ﷺ بيّن أنهم اتخذوا أصناماً على هيئة وصور الأنبياء والصالحين.

أخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط. فدخل البيت، فكبر في نواحيه ولم يُصلِّ فيه»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٣٠).

(٢) انظر: (ص ٢٦٠، ٢٦٤)، من هذا الكتاب.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب من كبر في نواحي الكعبة (٣/ ٤٦٨ =

وفي رواية في الصحيح: «دخل النبي ﷺ البيت، فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم، فقال: أمَا لَهُم فقد سمعوا أن الملائكة لا تُدخلُ بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيمُ مُصَوَّرٌ فما له يَسْتَقْسِم»[(١)].

وهذا خبر من الصادق ﷺ أن هذه صورة إبراهيم.

وقصدهم وتحريهم في تشكيل الأصنام صور الأنبياء والصالحين حتى طابقوا الحقيقة، كما في صورة إبراهيم بشهادة الصادق المصدوق ﷺ يدل على أنهم لا يقصدون إلا من يعتقدون صلاحه ووجاهته عند الله تعالى.

وهذا كله يدل على أنهم لا يتقربون إلى الله بالأصنام ذاتها، وإنما يتقربون إليه بما جعلوا الأصنام صورة وتمثالاً له.

٦ ـ نص فقيه الصحابة والعالم بالتفسير الصحابي الجليل ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قال: «كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج»[(٢)].

وقال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] ـ: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

أما (وَدٌّ): فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سُواع): فكانت لهذيل، وأما (يَغُوثُ): فكانت لِمُراد ثم لبني غُطيف بالجَوْف عند سبأ، وأما (يَعُوق):

=ح ١٦٠١- الفتح) و أخرجه في كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٨/ ١٦ ح ٤٢٨٨- الفتح).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥] (٦/ ٣٨٧ح ٣٣٥١ - الفتح).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٥٧).

فكانت لهمدان، وأما (نَسر): فكانت لحمير لآل ذي الكَلاع.

أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتَنَسَّخ العلم عبدت»(١).

قلت: لو أرادوا الأصنام ذاتها لما احتاجوا أن يصوروها على أشكال أناس، ولما حرصوا أن يكونوا ذوو صلاح ومكانة.

٧ ـ جاء في تاريخ ابن الوردي: «أن عمرو بن لحي مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم، فقالوا: هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية، فنستنصرها ونستسقي، فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسوَّل للعرب فتبعوه»(٢).

وهذا صريح في أن بعض الأصنام على شكل هياكل علوية، وهذا يدل على ما تقدم تقريره.

ثانياً: الدلائل الواقعية:

دل واقع العرب من حوادث متعددة على أنهم لم يريدوا بالأصنام سوى استحضار غائب يراد مخاطبته ودعاؤه، فمن ذلك:

١ ـ تعدد طرقهم في اتخاذ الأصنام.

قال ابن الكلبي: «(واشتهرت)(٣) العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من

---

(١) أخرجه البخاري صحيحه في، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ (٨/ ٦٦٧ برقم ٤٩٢٠ -الفتح).

(٢) روح المعاني (١/ ١٦٥).

(٣) في كتاب الأصنام: واسْتُهْتِرت. ولم يظهر لي وجهه، والصواب - فيما يبدو لي - ما

اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسَن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، وإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان. . .» [(١)].

فتعدد طرائفهم في اتخاذ الأصنام يدل على أنها ليست مرادة لذاتها، وإنما المقصود بها استحضار غائب يراد عبادته والتقرب إلى الله بواسطته.

٢ـ أنهم كغيرهم من الأقوام يصنعون ما يقدسون من أنفس وأغلى ما عندهم، ولذا إذا وجدوا حجراً أنفس من حجارة الصنم نقله إلى الحجارة النفيسة وألغى القديمة، وإذا فقد الحجارة فلا بد له من تذكار وقبلة يتوجه إليها صنع بيده صنمه.

قال أبو رجاء العطاردي[(٢)]: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خيراً ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعناه جُثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به» [(٣)].

وممن اشتهر بهذا العمل من العرب الحارث بن قيس، قال ابن دريد: «الحارث بن قيس، وهو الذي كان إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده، وفيه نزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]» [(٤)].

أثبت، والله أعلم.

(١) الأصنام (ص ٤٨).

(٢) هو عمران بن ملحان، أبو رجاء العطاردي البصري، أدرك زمان النبي ﷺ ولم يره، وأسلم بعد الفتح، مات سنة (١٠٥هـ) وله (١٢٠)سنة، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. انظر: تهذيب الكمال (٢٢/ ٣٥٦) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة (٨/ ٩٠ ح ٤٣٧٦).

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٦٧).

وكما كانوا يختارون أنفس الحجارة لأصنامهم، فقد كانوا يحرصون على أن تكون من الحرم أشرف البقاع.

قال ابن الكلبي ـ عندما تحدث عن أبناء إسماعيل عليه السلام -: «وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن بمكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم (وصبابة بمكة) فحيثما حَلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها، وصبابة بالحرم وحُبّاً له»(١).

٣ـ أن تقديسهم للأصنام لم يكن حائلاً بينهم وبين أكلها عند الجوع إذا كانت مصنوعة من طعام.

فقد أكلت بنو حنيفة صنما لها من حيس بعد أن عبدوه دهراً طويلاً لما جاعوا وعيرهم الشعراء (٢).

٤ـ أنهم لا يتورعون عن تنقص الأصنام إذا لم تلب طلباتهم.

كما وقع لبعضهم: أنه أتى إلى صنم يستشيره في طلب الثأر لأبيه، فلما ضُربت القداح خرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال:

لو كُنْتَ يا ذا الخلصة الموتورا   مِثْلِي وكان شيخُكَ المقْبُورَا
لم تَنْه عن قَتْلِ العُداةِ زُورَا(٣)

وذكر ابن الكلبي أن القصة وقعت لامرؤ القيس وقال - للصنم -: «عضِضتَ بأير أبيك، لو كان أبوك قُتل ما عوقتني»(٤).

---

(١) الأصنام (صـ ٢٢).

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٧٢) وانظر: (ص ١٥٩) من هذا الكتاب.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٩٩) والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٢٧٢).

(٤) الأصنام (ص٦٠).

ومن القصص المرتبطة بهذا الأمر: ما وقع لأحد بني كِنَانَة، أتى إلى صنم يقال له (سَعْدٌ)، وكان صخرة طويلة، فأقبل بإبل ليقف عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه نفرت وذهبت في كل وجه وتفرقت عليه، فتناول حجراً فرماه به، وقال: «لا بارك الله فيك إلها، أنفرت على إبلي!» ثم انصرف عنه، وهو يقول:

أَتَيْنَـا إلى سَعْـدٍ ليَجْمَـعَ شَمْلَنـَا فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ فلا نَحْنُ من سَعْدِ
وَهَلْ سَعْـدُ إلَّا صَخْـرَةٌ بِتَنُوفَةٍ مِنَ الأَرْضِ لا تَدْعو لِغَيٍ ولا رُشْدِ[1]

فلو كانوا يعتقدون أن الأصنام بذواتها آلهه لما تنقصوها، ولكنهم يجعلونها صورة للمقدس، فإذا أصابهم ما أصابهم من النوائب تجرؤا عليها بهذه الأفعال، واستدلوا بتلك الأمور على عدم أو ضعف مكانتها عند الله تعالى.

ثالثاً: الدليل العقلي:

لا يخفى على كل مطلع على ديوان العرب وتراثهم (الشعر) ما جبل الله عليه العرب من فطنة وذكاء: جعلتهم أهلاً لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يكونوا قادرين على تحمل الرسالة المنزلة على النبي العظيم ﷺ وتبليغها للإنسانية جمعاء إلى قيام الساعة.

ومن كان بهذه الدرجة من الفطنة والذكاء: يبعد كل البعد عقلاً أن يصنع أصناماً بيده ثم يعتقد ألوهيتها، وأن لها مكانة عند الله.

وقد احتج بهذا الاستدلال العقلي: الخبير بالملل الشهرستاني، وإمام المتكلمين التفتازاني.

قال الشهرستاني: «... وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلاً ما لا ينحت بيده

(١) السيرة النبوة لابن هشام (١/ ٩٥).

جسماً ويصوره صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه...»[١].

وقال التفتازاني ـ لما ذكر عبادة الأصنام ـ: «وأما الأصنام فلا خفاء في أن العاقل لا يعتقد فيها شيئاً من ذلك....»[٢] ثم ذكر تأويلاتهم.

وقد نص على أنهم اتخذوا الأصنام على صور الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء أوالصالحين عدد من العلماء والمتكلمين، فمنهم: الرازي وابن كثير والتفتازاني والجرجاني وزكريا الأنصاري والشيخ زادة.

قال الشيخ زادة ـ في كلام له عن المشركين ـ: «**فإنهم يزعمون أن الأوثان صور الملائكة**»[٣].

وقال الجرجاني: «ولا يصفون الأوثان بصفات إلهية، وإن أطلقوا عليها اسم الآلهة، **بل اتخذوها على أنها تماثيل الأنبياء أو الزهاد أو الملائكة أو الكواكب**، واشتغلوا بتعظيمها على وجه العبادة توصلاً بها إلى ما هو إله حقيقة»[٤].

وقال السمعاني: «قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ [النجم: ٢١] هذا على طريق الإنكار عليهم؛ **لأنهم كانوا يقولون: هذه الأصنام على صور الملائكة**، والملائكة بنات الله. وهذا قول بعضهم»[٥].

وقال ابن كثير ـ في تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [فاطر: ١٣] ـ: «أي: من الأصنام والأنداد **التي هي على صورة من تزعمون من**

(١) تقدم نص الكلام كاملاً (ص ٢٨١).

(٢) تقدم نص الكلام كاملاً (ص ٢٨٣).

(٣) حواشي الشيخ زادة على البيضاوي (٣/ ٣٧٥).

(٤) انظر: كلامه كاملاً (ص ١٩٧).

(٥) تفسير السمعاني (٥/ ٢٩٥).

الملائكة المقربين»[١].

وانظر ما تقدم من كلامه عند ذكر الأدلة[٢].

وقال الرازي: «وقد ذكرنا أن المشركين كانوا يقولون: ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى، فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله، وهم الملائكة، **ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة**»[٣].

وقال ـ أيضاً ـ على لسان المشركين: «وإنما صورنا هذه الأشياء على **صور الملائكة المعظمين** الذين اعترف بهم الأنبياء. . . .»[٤].

ومما تقدم يتبين أن الأصنام المعبودة من قبل الجاهليين ما هي إلا رموزاً وصوراً للدلالة على غائب يراد استحضاره عند العبادة، وبه يعلم بطلان ما زعمه القبوريون من الفرق بينهم وبين المشركين الأولين.

❖ ❖ ❖

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١١/ ٣١٥ ط. مصطفى السيد وآخرون).

(٢) انظر: (ص ٢٤٢ – ٢٤٣) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: نص الكلام كاملاً (ص ٢٤٦).

(٤) انظر: نص الكلام كاملاً (ص ٢٨٣).

القاعدة الخامسة

القاعدة الخامسة

أن المشركين الأولين كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة

بيَّن القرآن أن مشركي العرب إذا ضاق عليهم الأمر، واشتد بهم الكرب = فزعوا إلى الله وحده.

فلا تسمع إلا دعاء الله، ولا ترى إلا التضرع والالتجاء به سبحانه وتعالى، ولا تجد إلا إخلاص الدين له جلا وعلا دون من سواه.

فلا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد صالح، كل هؤلاء يقين تام وفطرة سليمة تدل على أنهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً.

والتأويلات الفاسدة والأعذار الباطلة التي يُتذرع بها لعبادة غير الله تزول وتتلاشى، فلا زلفى مزعومة ولا شفاعة مطلوبة إلا من الله ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

قَدِم أبرهة الأشرم على رأس جيشه الكبير الذي لا عهد للعرب بمثله، وفي مقدمته الفيلة الضخمة، ولا مبتغى له ولا هدف يريده إلا هدم بيت الله الكعبة، البيت المعظم لدى العرب، فَعَظُم بهم المصاب واشتدّ بهم الخطب، ولا قدرة لهم على حرب، ولا حيلة لهم في إيقافه، وهنا قام عبد المطلب - جد النبي ﷺ - متضرعاً إلى الله شاكياً له الحال، فقال:

لاهُمَّ إن المرء يمنع ... رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب ... وعابديه اليوم آلك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلاً وما رقبوا جلالك
ياربِّ لا أرجو لهم سواكا ... ياربِّ فامنع عنهم حماك

إنّ عــدو الــبـيــت مــن عـــاداك　　　امنعـهــم أن يـخـربــوا فنــاك [(١)]

عندما دخلت جيوش الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ مكة فر عكرمة بن أبي جهل على سفينة إلى الحبشة، فبينما هم في وسط البحر: هاجت الريح، وأخذت الأمواج في التلاطم، واضطربت السفينة، وأيقن القوم الغرق، فجعل أهل السفينة يدعون الله تعالى ويوحدونه، وقالوا: إن هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى ـ وهنا استيقظت فطرة عكرمة، وظهر ما هو كامن في النفس مما غطي بتقليد الآباء ـ فقال: فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعو إليه، فارجعوا بنا، فرجع فأسلم [(٢)].

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ٢٣٥). وانظر: الكشاف (٤/ ٢٨٦) وبلوغ الأرب (١/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٢) أخرجه النسائي برقم (٤٠٦٧) قال: أخبرنا القاسم بن زكريا بن دينار قال: حدثني أحمد بن مفضل قال: حدثنا أسباط، قال: زعم السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال: لما كان يوم فتح مكة أَمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة» وذكر منهم عكرمة. . . وفيه: «وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفواً كريماً. فجاء فأسلم. . .».

وتابع القاسم بن زكريا، أبو بكر بن أبي شيبة.

أخرجه أبو يعلى (٢/ ١٠٠) برقم (٧٥٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣٣٠) كلاهما من طريق ابن أبي شيبة به.

وتابعه – أيضاً – يوسف بن موسى.

أخرجه البزار في البحر الزخار (٣/ ٣٥٠) برقم (١١٥١) قال: حدثنا يوسف بن موسى به.

قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى بهذا اللفظ إلا عن سعد بهذا الإسناد.　=

وفي بعض المصادر: «فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً، فجاء فأسلم»(١).

والقرآن شهد عليهم بهذا في مواضع كثيرة سيأتي ذكرها.

ثانياً: أدلة القاعدة

١ ـ قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر فخافوا الغرق والهلاك فيه ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقول: أخلصوا لله ـ عند الشدة التي نزلت بهم ـ **التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذْعَنوا له بالعبودة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم**، ولكن بالله الذي خلقهم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ يقول: فلما خَلَّصهم مما كانوا فيه وسَلَّمهم، فصاروا إلى البر إذا هم يجعلون مع الله شريكاً في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أرباباً.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ فالخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك»(٢).

وقال ابن عطية: «ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف

= وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والبزار... ورجالهما ثقات.

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٣٦).

(٢) جامع البيان (١١/ ٢١/ ١٣).

العظيم، فإن كل بشر ينسى كل صنم وغيره، **ويتمسك بالدعاء والرغبة إلى الله تعالى**، وقوله: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يرجعون إلى ذكر أصنامهم وتعظيمها»[١].

قال البيضاوي: «قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم، أي: هم على ما وصفوا به من الشرك، فإذا ركبوا البحر ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ **كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه**، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجؤوا المعاودة إلى الشرك»[٢].

وقال أبو السعود: «..... والمعنى: أنهم على ما وضعوا من الإشراك، فإذا ركبوا في البحر ولقوا شدة ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: **كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين، حيث لا يدعون غير الله تعالى**، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجئوا المعاودة إلى الشرك»[٣].

٢ - قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

قال القرطبي: «والمعنى في هذه الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكل واحد منهم يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقفهم الله من ذلك على

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٣٢٥).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٣٢٣).

(٣) تفسير أبي السعود (٧/ ٤٧).

حالة البحر حيث تنقطع الحيل ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: **عن الإخلاص**»[١].

وقال البيضاوي: «قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ خوف الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ ذهب عن خواطركم كل من تدعونه في حوادثكم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحده، **فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه، فلا تدعون لكشفه إلا إياه** أو ضل كل من تعبدونه عن إغاثتكم إلا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ **عن التوحيد**، وقيل: اتسعتم في كفران النعمة. . . .»[٢].

وقال القصاب ـ تعليقاً على هذه الآية ـ: «دليل على أن **الفزع إلى الله في الشدة** دون الرخاء **خلق من أخلاق الكافرين**»[٣].

وقال أبو السعود: «قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ خوف الغرق فيه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله **من الملائكة أو المسيح أو غيرهم** ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ **وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم**، وتدعوه لكشفه **استقلالاً أو إشراكاً** أو ضل كل من تدعونه عن إغاثتكم وإنقاذكم، ولم يقدر على ذلك إلا الله على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ **عن التوحيد**، أو اتسعتم في كفران النعمة»[٤].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة: **أن الله ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد** والأهوال خاصة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٠/ ١٨٩).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٤٥٧).

(٣) نكت القرآن (٢/ ١٧٨).

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٥/ ١٨٥).

يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقه لمخلوق، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة.

ويعلم من ذلك أن بعض الجهلة المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأهوال والكروب التجأوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله، مع أن الله ـ جل وعلا ـ أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر، وإنجاءه من الكروب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره»(١).

٣ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

قال ابن جرير: «﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقول: أخلصوا الدعاء لله هنالك دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذ إلى الله دونها»(٢).

وقال السمعاني: «قوله ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ معناه: أنهم أخلصوا في الدعاء، ولم يدعوا أحداً سوى الله»(٣).

وقال الواحدي: «﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ تركوا الشرك وأخلصوا

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٦١٤)

(٢) جامع البيان (١٢/ ١٤٧.ط التركي).

(٣) تفسير القرآن (٢/ ٣٧٥).

لله الربوبية»[١].

وقال البغوي: «﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: **أخلصوا في الدعاء لله، ولم يدعوا أحداً سوى الله**»[٢].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ أي: **نسوا الأصنام والشركاء وجردوا الدعاء لله**»[٣].

قال الشوكاني: «وانتصاب (مخلصين) على الحال، أي: **لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب**، كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً.

وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يشابهها.

فيا عجباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة **دعوا الأموات، ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون**، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع!!

فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم؟! حتى

(١) الوجيز (١/ ٤٩٤).
(٢) معالم التنزيل (٢/ ٣٤٩).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ١١٣).

انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الأوثان، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[١].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠- ٤١].

قال أبو المظفر السمعاني: «قوله ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وهذا استفهام بمعنى التقرير، يعني: **لا تدعون إلا الله**، وأراد به في أحوال الضرورات؛ **فإن الكفار في حال الضرورات يدعون الله** ـ تعالى ـ كما قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ هذا تقرير لما استفهم منه في الآية الأولى، يعنى: **بل تدعون الله ولا تدعون غيره** ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾، قيد إجابة الدعوة بالمشيئة هاهنا، وأطلقها في قوله ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال أهل العلم: وذلك مقيد بالمشيئة أيضاً، بدليل هذه الآية.

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، **وذلك أنهم لما تركوا الأصنام في حال الضرورات إلى دعاء الله، فكأنهم نسوا ما يشركون**، وفي الآية مجاز، وتقدير قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: فيكشف ضر ما تدعون إليه»[٢].

قال القرطبي: «**والآية في محاجة المشركين ممن اعترف أن له صانعاً**؛ أي: **أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله**، وسترجعون إليه يوم القيامة - أيضاً - **فلم تصرون على الشرك في حال الرفاهية**؟! وكانوا يعبدون الأصنام **ويدعون**

---

(١) فتح القدير (٢/ ٤٣٥)

(٢) تفسير القرآن (٢/ ١٠٣).

الله في صرف العذاب»[(١)].

٥ ـ وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزمر: ٨].

قال ابن جزي: «قوله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية: يراد بالإنسان هنا الكافر، بدليل قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

والقصد بهذه الآية: عتاب وإقامةُ حجةٍ، فالعتاب على الكفر وترك دعاء الله، وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله في الشدائد»[(٢)].

قال النسفي: «﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ **هو أبو جهل، أو كل كافر** ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء وشدة. والمس في الأعراض مجاز ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ **راجعاً إلى الله بالدعاء لا يدعو غيره** ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله عز وجل ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه... أو نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه»[(٣)].

وقال الرازي: «أعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك، وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يُعبد، بيّن في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة؛ **وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله**، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام، **ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر**؛

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٦/ ٢٧٢).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٤١٧).

(٣) تفسير النسفي (٤/ ٣١٣).

لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الأحوال، فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة»[(١)].

٦ ـ وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء الذين يَدْعون من دون الله الآلهة والأوثان في البحر إذا ركبوا في الفلك ـ موج كالظلل، وهي جمع ظُلَّةٍ شبّه بها الموج في شدةِ سوادِ كثرة الماءِ. . . .

وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء موج كالظلل، فخافوا الغرق، **فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة**، لا يشركون به هنالك شيئاً، ولا يَدعون معه أحداً سواه، **ولا يستغيثون بغيره**»[(٢)].

قال القرطبي: «﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ **موحدين له لا يدعون لخلاصهم سواه**»[(٣)].

❖ ❖ ❖

ثالثاً: العلماء الذين نصوا على القاعدة:

١ ـ أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود الهذلي الكوفي (ت ٨٢ هـ):

بيَّن أنهم في حال الشدة يدعون الله بقولهم: يا حي يا قيوم[(٤)].

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢١٧).

(٢) جامع البيان (١٨/ ٥٧٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤/ ٥٤).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٣٢) - ومن طريقه ابن جرير (١٢/ ١٤٧) - قال: أخبرنا الثوري عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة - في قوله تعالى: =

٢ ـ حافظ العصر وقدوة المفسرين والمحدثين قتادة بن دعامة السدوسي (ت: ١١٧هـ).

قال ـ في قوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ـ: «إذا مسهم الضر في البحر أخلصوا له الدعاء»[1].

٣ ـ المفسر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت: ١٨٢هـ).

قال ـ في قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ [يونس: ٢١] ـ: «هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون، **فإذا كان الضر لم يدعو إلا الله**، فإذا نجاهم إذا هم يشركون، ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ [يونس: ٢٢] الشدة التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على نعمك وتخليصك إيانا مما نحن فيه **بإخلاصنا العبادة لك، وإفراد الطاعة دون الآلهة والأنداد**»[2].

٤ - العلامة النحوي أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ).

وسيأتي كلامه[3].

٥ ـ إمام المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ):

قال ـ في تفسير آية يونس ـ: «**أخلصوا الدعاء لله** هناك دون أوثانهم

= ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ - قال: هيا شراهيا، تفسيره: يا حي يا قيوم. وهذا إسناد صحيح.

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ١٤٦) قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٤٧) قال: حدثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد. وهذا إسناد صحيح.

(٣) انظر: (ص ٣٥٠ - ٣٥١) من هذا الكتاب.

وآلهتهم، **وكان مفزعهم حينئذ إلى الله دونها**»[١].

٦ - إمام المتكلمين أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي (ت ٣٣٣هـ).

قال - رحمه الله -: «. . .ولكن **أهل مكة وغيرهم كانوا إذا أيسوا مما يعبدون من الأصنام والأوثان فزعوا إلى الله، يخلصون له الدين**، كقوله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢]، وقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ الآية [الروم: ٣٣] وغير ذلك من الآيات مما يكثر عددها **كانت عادتهم الفزع إلى الله عند إصابتهم الشدائد والبلايا لعلمهم أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لا تدفع ذلك**»[٢].

وقال - أيضاً -: «ثم أخبر [سبحانه وتعالى] عن سفههم بعودهم إلى ما كانوا عليه من قبل ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣]، **وهكذا كانت عادتهم، كانوا يفزعون إلى الله** عند خوف الهلاك والإياس من آلهتهم التي عبدوها، **ويخلصون الدعاء**. فإذا كشف ذلك الكرب عنهم ودفع، عادوا إلى ما كانوا عليه من قبل.والبغي في الأرض هو الفساد فيها»[٣].

وقال - في تفسير: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] -: «يذكر أهل التأويل **أن الآية في أهل الكفر كانوا يخلصون**

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٤٦).

(٢) تأويلات أهل السنة (٢/ ٤٧٢).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٧٤).

الدعاء لله والدين له عندما اشتد بهم الخوف على الهلاك عند معاينتهم الأهوال والشدائد في البحار؛ لأن أهل الإسلام يخلصون له الدعاء والدين في الأحوال كلها .**فهي فيهم**»[١].

٧ ـ الإمام الحافظ محمد بن علي الكرجي القصاب (ت: ٣٦٠ هـ):

تقدم كلامه[٢].

٨ ـ العلامة المفسر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي الشافعي (ت ٤٦٨ هـ):

وقد تقدم كلامه قريباً[٣].

٩ ـ الإمام العلامة شيخ الشافعية أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني (ت ٤٨٩ هـ):

وكلامه تقدم قريباً[٤].

١٠ ـ الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٦هـ):

قال ـ رحمه الله ـ: «قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وتركوا الأصنام ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. هذا إخبار عن عنادهم، **وأنهم عند الشدائد يقرون أن القادر على كشفها هو الله ـ عز وجل ـ وحده، فإذا زالت عادوا إلى كفرهم**، قال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام،

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٧٨).

(٢) انظر: (ص ٣٠١)، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (ص ٣٠٢ - ٣٠٣)، من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٣٠٢، ٣٠٤)، من هذا الكتاب.

فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر، وقالوا: يا رب، يا رب»[١].

١١ ـ أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الغرناطي المالكي (ت: ٥٤٦هـ):

تقدم كلامه[٢].

١٢ ـ أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٩ هـ):

قال ـ عند حديثه عن المشركين الذين غلفوا عن الفطرة في الإقرار بالصانع ـ: «**وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء، فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء** ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ولهذا لم يرد التكليف **بمعرفة وجود الصانع**، وإنما ورد **بمعرفة التوحيد ونفي الشريك** «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله».

ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد»[٣].

١٣ـ شيخ شافعية اليمن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي (ت: ٥٥٨هـ).

قال ـ رحمه الله ـ: «. . .**الله أخبر في الآيات أنهم** ـ يعني الكفار ـ **إذا خافوا الغرق تضرعوا إلى الله سبحانه بأن ينجيهم** بقوله تعالى ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، الآية .**ومعلوم أن الكفار** والفسقة إذا ركبوا في البحر

---

(١) معالم التنزيل (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر: (ص ٢٩٩ – ٣٠٠، ٣٠٣) من هذا الكتاب.

(٣) تقدم كلامه كاملاً. انظر: (ص ٣٤ – ٣٥).

لمعصية وخافوا الغرق **يدعون إلى الله سبحانه بالنجاة ولا يدعون إلى الشيطان**»[١].

١٤ـ محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ):

قال: «السؤال الخامس: ما المراد من الإخلاص في قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].

والجواب: قال ابن عباس: **يريد تركوا الشرك، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئاً**، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية. قال الحسن: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ **الإخلاص: الإيمان.**

لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى، فيكون جارياً مجرى الإيمان الاضطراري. وقال ابن زيد: هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون، **فإذا جاء الضر والبلاء لم يدعوا إلا الله**. وعن أبي عبيدة أن المراد من ذلك الدعاء، قولهم: أهيا شراهيا، **تفسيره: يا حي يا قيوم**»[٢].

وقد تقدم له نص آخر[٣].

١٥ ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي المالكي (ت: ٦٧١ هـ):

تقدم كلامه[٤].

١٦ـ أبو الخير عبدالله بن عمر البيضاوي (٦٩٢):

تقدم كلامه[٥].

---

(١) الانتصار (١/ ٢٣٥).

(٢) التفسير الكبير (١٧/ ٧٣).

(٣) انظر: (ص ٣٠٥ – ٣٠٦) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٦) من هذا الكتاب، وانظر: - أيضاً - (ص ٣١٧).

(٥) انظر: (ص ٣٠٠، ٣٠١) من هذا الكتاب.

١٧ ـ أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفي (ت: ٧٠١هـ):

جاء في كلام له قوله: «لأنهم ـ أي: الموحدين ـ لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، **والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له**»(١).

١٨ـ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١ هـ):

قال ـ رحمه الله ـ: «قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية. **إقامة حجة عليهم بدعائهم حين الشدائد**، ثم يشركون به في حال الرخاء»(٢).

وقال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ـ: «ضل هنا، بمعنى: تلف وفقد، أي: تلف عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه إلا الله وحده، **فلجأتم إليه حينئذ دون غيره**، فكيف تعبدون غيره، وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلا إياه»(٣).

١٩ ـ العلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت: ٩١١هـ).

وسيأتي كلامه(٤).

٢٠ - العلامة القاضي أبو اليمن مجيرالدين عبدالرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي (ت: ٩٢٧هـ).

قال: «ثم أخبر أنهم **لا يدعون سواه في الشدائد**، فقال ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾

---

(١) انظر: نص كلامه كاملاً (ص ١٣٧) وله نص آخر انظره (ص ٢٢).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٢٥٨).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٢٠).

(٤) انظر: (ص ٣١٦ - ٣١٧) من هذا الكتاب.

بل تخصونه بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعون إلى كشفه ﴿إِن شَآءَ﴾ أن يتفضل عليهم، ولا يشاء في الآخرة ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت»[١].

٢١- أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي (ت: ٩٨٢هـ).

قال: «﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير أن يشركوا به شيئاً من آلهتهم، لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط، بل للعبادة ـ أيضاً ـ فإنهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين»[٢].

٢٢ - عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد الحضرمي الشافعي (١١٣٢ هـ).

فقد قال: «وكانوا - أعني مشركي العرب - يرجعون إليه في الشدائد، وكشف المهمات والمصائب، ولا يطلبون ذلك ولا يسألونه إلا منه، كما أخبر الله بذلك في كتابه عنهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] أي: تتضرعون وتستغيثون»[٣].

٢٣ ـ العلامة حسين بن مهدي النعمي التهامي (ت: ١١٨٧هـ):

تقدم كلامه[٤].

٢٤ ـ العلامة محمد بن علي الشوكاني الصنعاني (ت: ١٢٥٠هـ).

---

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٩٥).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ١٣٤).

(٣) انظر: (ص ١٥٢ - ١٥٥) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (ص ٧٤ - ٧٥) من هذا الكتاب، وانظر: (ص ٣٤٧).

قال ـ عند مقارنته بين شرك القبوريين وشرك الجاهليين ـ: «بل هؤلاء القبوريون قد وصلوا إلى حد في اعتقادهم في الأموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم، وهو: **أن الجاهلية كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله وحده، وإنما يدعون أصنامهم مع عدم نزول الشدائد من الأمور**، كما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. وبقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنعام: ٤٠]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢]، **بخلاف المعتقدين في الأموات فإنها إذا دهمتهم الشدائد؛ استغاثوا بالأموات**، ونذروا لهم النذور، وقل من يستغيث بالله سبحانه في تلك الحال، **وهذا يعلمه كل من له بحث عن أحوالهم.**

ولقد أخبرني بعض من ركب البحر للحج أنه اضطرب اضطراباً شديداً، فسمع من أهل السفينة من الملاحين وغالب الراكبين معهم ينادون الأموات ويستغيثون بهم، ولم يسمعهم يذكرون الله قط. قال: ولقد خشيت في تلك الحال الغرق لما شاهدته من الشرك بالله»[1].

٢٥ - العلامة المفسر محمد بن عبدالله الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ).

(١) الدر النضيد (ص ١١١ – ١١٢).

(٢) انظر: (ص ٣٤٦ – ٣٤٧) من هذا الكتاب.

تقدم كلامه[١].

٢٦ ـ العلامة محمد بن ناصر الحازمي (ت ١٢٨٣هـ):

قال ـ رحمه الله ـ: «والمقصود أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله تعالى - ليس أول من فتح هذا الباب، بل ماذكره ـ يعني من بيان التوحيد والتحذير من الشرك - هو ما عليه جمهور العلماء. وأشاعوا شيئاً فما رأيته في بعض رسائله، وشيئاً مما شاع عنه وعن أتباعه، وذاع وملأ البقاع من ذلك:

أنه يقول: لا يدعى في المهمات إلا الله ـ عزوجل ـ وأكثر الخلق يدعون سواه في كل محل! إذا عثرت الدابة، نادى من يعتقد!

كالشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ أحمد بن علوان أو العيدروس أو البدوي أو العلوي.

وإذا مسهم الضر في البحر دعا كل منهم شيخ بلده في زعمه!!

وهذا يقول ابن عبدالوهاب فعل المشركين، **وليس هو أول من قال هذه المقالة، بل قد سُبق إليها حتى قال بعض أهل العلم إن هؤلاء أقبح حالاً من المشركين.**

فإن الله تعالى يقول في المشركين ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهم في البحر إذا مسهم الضر يدعون سواه حتى إن كل مركب وساعية لهم شيخ يجعله مالكه.

فليس الشيخ أول فاتح لهذا الباب»[٢].

٢٧ ـ العلامة المحقق ذهبي العصر عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (ت: ١٣٨٦هـ).

---

(١) إيقاظ الوسنان (ص ٥٨ - ٦٠).

وقد تقدم كلامه[(١)].

٢٨ ـ العلامة المحقق محمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ):

وكلامه تقدم قريباً[(٢)].

❖ ❖ ❖

رابعاً: فوائد القاعدة:

١ ـ أن معظم شرك العرب كان بدعاء غير الله والتضرع إليه.

وهذه فائدة عظيمة تفيد في محاجة من لا يعرف العبادة ولا الشرك الذي ينافيها، ويزعم أن الالتجاء بالصالحين وسؤالهم والتضرع إليهم ليس بشرك ينافي عبادة الله.

فتقول له: ـ بعد أن تُقَرِّره أن الله أمر بإخلاص العبادة له ـ بأي شيء وقع كفار قريش في الشرك؟

فإن قال: بدعواهم أن آلهتهم تخلق وترزق وتتصرف في الكون.

فقل له: هذا غير صحيح، ونصوص القرآن تكذبك.

وإن قال: بدعائهم غير الله والالتجاء به والتضرع إليه.

فقل له: صدقت. وهذا ما تدل عليه هذه القاعدة.

قال جلال الدين السيوطي: «﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ الشدة ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ خوف الغرق ﴿ضَلَّ﴾ غاب عنكم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ تعبدون من الآلهة **فلا تدعونه** ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ تعالى، **فإنكم تدعونه وحده**؛ لأنكم في شدة لا يكشفها إلا هو ﴿فَلَمَّا

---

(١) انظر: (ص ٢٠٢ - ٢٠٣)، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: (ص ٣٠١ - ٣٠٢) من هذا الكتاب.

﴿نَجَّاكُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] **عن التوحيد**»(١).

وقال العليمي: «قوله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ أي: الكفار ومعهم أصنامهم ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ في البحر، وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: **لم يشركوا أحداً معه في الدعاء** ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] عناداً»(٢).

وقال القرطبي: «قوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها، وهم يعبدون الأوثان، قاله الحسن ومجاهد وعامر الشعبي وأكثر المفسرين. . . - ثم قال بعد أن ذكر عدة أقوال - وقال عطاء: **هذا في الدعاء**؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء **أخلصوا في الدعاء**؛ بيانه: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس: ١٢] الآية، وفي آية أخرى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

وقيل - معناها -: **أنهم يدعون الله ينجيهم** من الهلكة، فإذا أنجاهم، قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا، فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ووقايته منسوبة إلى الكلب.

قلت: وقد يقع في هذا القول، والذي قبله كثير من عوام المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(٣).

---

(١) تفسير الجلالين: (ص ٥٩٢).

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٥/ ٢٦٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٩/ ١٧٨).

وهذه إحدى الطريقتين في تقرير التوحيد، وبيان ما يناقضه.

والطريقة الثانية: ببيان العبادة التي أمر الله بها.

فتقول له: بين الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] فهل علمت بهذا؟

فلا بد أن يقول: نعم، ويُقْر بأن الدعاء هو العبادة.

فقل له: إذا أقررت أن الدعاء عبادة، فما تقول: فيمن دعا الله ليلاً ونهاراً، خوفاً وطمعاً، ثم دعا نبياً أو ولياً في تلك الحاجة، فهل أخلص العبادة لله؟!

فلا بد وأن يقول: بأنه لم يخلص العبادة لله.

وهذا هو المطلوب.

٢ - أن الدعاء عبادة من أجل العبادات.

وقد دل القرآن على هذا في مواضع كثيرة، منها:

- قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

ووجه الدلالة: أن الله تعالى بعد أن أمر بدعائه ذكر أن المستكبر عن عبادته سيدخل جهنم، مما يدل على أن الدعاء عبادة، وأن تاركه مستكبر عن عبادة الله.

والآية واضحة في الدلالة، وقد فسرها رسول الله ﷺ بنفسه فيما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾»[١].

قال الماتريدي - في كلامه على قول الله تعالى ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧) و (٣٠/ ٢٩٧ برقم ١٨٣٥٢ ط. التركي) قال: حدثنا عبدالرزاق.

وأخرجه الترمذي (برقم ٣٢٤٧) قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبدالرحمن بن مهدي.

كلاهما - عبدالرزاق وابن مهدي - قال: أخبرنا سفيان عن الأعمش ومنصور عن ذر عن يُسيع الكندي عن النعمان بن بشير، فذكره مرفوعاً.

وتابع سفيان أربعة:

الأول: شعبة. غير إنه لم يذكر الأعمش.

أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٤٤ برقم ١١٤٠٠) قال: أخبرنا سويد بن نصر، قال: أخبرنا عبد الله، عن شعبة به.

الثاني: أبو معاوية. غير إنه لم يذكر منصوراً.

أخرجه الترمذي (برقم ٢٩٦٩) وأخرجه النسائي في السنن الكبرى - الموضع السابق -، كلاهما قال: أخبرنا هناد بن السري عن أبي معاوية عن الأعمش به.

الثالث: مروان بن معاوية.

أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (برقم ٣٣٧٢) قال: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا مروان بن معاوية عن الأعمش به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الرابع: وكيع.

أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٢٨) قال: حدثنا على بن محمد، حدثنا وكيع، عن الأعمش به.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥] -: «قوله تعالى ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾، قال بعضهم: ﴿ٱدْعُواْ﴾ أي: اعبدوا ربكم، كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] **ذكر في الابتداء الدعاء، وفي آخره العبادة، فكان الأمر بالدعاء أمراً بالعبادة.**

وقال بعضهم: **الدعاء ههنا هو الدعاء، وقد جاء أن** «الدعاء مخ العبادة»؛ **لأن العبادة قد تكون بالتقليد، والدعاء لا يحتمل التقليد**، ولكن إنما يكون عند الحاجة لما يرى المرء في نفسه من الحاجة والعجز عن القيام بذلك؛ فعند ذلك [يفزع] إلى ربه، فهو **مخ العبادة من هذا الوجه**»[(١)].

وقال - في كلامه على قوله تعالى ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] -: «وقوله تعالى ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ **فجائز أن يكون على الدعاء نفسه**، فيكون معناه: **ألا تدعوا مع الله أحداً؛ لأن الإله اسم المعبود، كان القوم إذا عبدوا شيئاً** سموه إلها، فيقول: **لا تدعوا معه أحداً إلها، فإنه هو الإله، وهو المستحق للعبادة من كل أحد.**

وجائز أن يكون أريد بالدعاء العبادة، قال ﷺ: «الدعاء مخ العبادة».

وقال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] **فجعل دعاءهم إياه عبادة منهم له**، فيكون قوله تعالى ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا تشركوا غيره معه في العبادة، والله أعلم»[(٢)].

---

(١) تأويلات أهل السنة (٢/ ٢٤٥).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٢٨٣).

قال الشوكاني: «**فاعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة المطلوبة من العباد، ولو لم يكن في الكتاب العزيز إلا مجرد طلبه منهم لكان ذلك مفيداً للمطلوب، أعني كونه من العبادة.** قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

فهذه الآيات البينات دلت على أن الدعاء مطلوب لله عز وجل من عباده، وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة؛ فكيف إذا انضم إلى ذلك النهي عن دعاء غير الله سبحانه.

قال الله عزوجل ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ، [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال سبحانه - ناعياً على من يدعو غيره ضارباً له الأمثال - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

فكيف إذا صرَّح القرآن الكريم بأن الدعاء عبادة تصريحاً لا يبقى عنده ريب لمرتاب. قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] الآية، **فقد طلب الله سبحانه** من عباده في هذه الآية أن يدعوه، **وجعل جزاء الدعاء** له منهم الإجابة منه، فقال: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ . ولهذا جَزَمَه لكونه جواباً للأمر، **ثم توعدهم على الاستكبار عن هذه العبادة** ـ أعني الدعاء ـ بما صرَّح به في آخر الآية، **وجعل العبادة مكان الدعاء** تفسيراً له وإيضاحاً لمعناه، وبياناً لعباده بأن هذا الأمر الذي طلبه منهم وأرشدهم إليه، هو نوع من عبادته، التي خص بها نفسه وخلق لها عباده، كما قال

تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]»[١].

وقال الرازي: «**وقال الجمهور الأعظم من العقلاء: إن الدعاء أهم مقامات العبودية**، ويدل عليه وجوه من النقل والعقل. . . .»[٢] ثم ذكر خمس حجج تدل على ذلك، ثم قال: «. . . **إنه تعالى لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به، بل بين في آية أخرى أنه إذا لم يُسأل يغضب**، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال عليه السلام: «لا ينبغي أن يقول أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن يجزم فيقول: اللهم اغفرلي»[٣]، وقال عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة»[٤]، وعن النعمان بن بشير أنه عليه السلام، قال: «الدعاء هو العبادة» وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» [غافر: ٦٠].

فقوله: «الدعاء هو العبادة»[٥] معناه: **أنه معظم العبادة وأفضل العبادة**،

---

(١) رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل (ص ٥٥ - ٥٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ١٣٩ برقم ٦٣٣٩ - الفتح) ومسلم برقم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٣٣١٧) من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صالح عن أنس بن مالك فذكره مرفوعاً. قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». قلت: فهو ضعيف، والله أعلم.

(٥) تقدم تخريجه، انظر: (ص ٣١٩).

كقوله عليه السلام: «الحج عرفة»[١] أي: الوقوف هو الركن الأعظم»[٢] ا.هـ

ـ ومن الأدلة على أن الدعاء عبادة قوله تعالى - عن إبراهيم عليه السلام - ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

ووجه الدلالة: أن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وجعله مرادفاً لقول إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فصارت الآية صريحة في أن الدعاء عبادة.

ـ ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ـ ومن الأدلة ـ أيضاً ـ قوله تعالى ـ عن أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩) وأخرجه - أيضاً - النسائي برقم (٣٠١٦) قال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم. وأخرجه ابن ماجه برقم (٣٠١٥) قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد.

أربعتهم - أحمد وإسحاق بن إبراهيم وابن أبي شيبة وعلى بن محمد - قالوا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن بكير بن عطاء الليثي، قال: سمعت عبد الرحمن بن يعمر الديلي... فذكر الحديث.

وتابع وكيع، يحيى بن سعيد وابن مهدي وابن عيينة.

أخرجه الترمذي برقم (٨٨٩، ٨٩٠). قال الترمذي: وقد روى شعبة عن بكير بن عطاء نحو حديث الثوري، قال: وسمعت الجارود يقول: سمعت وكيعا أنه ذكر هذا الحديث، فقال: هذا الحديث أم المناسك.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٥/ ٩٩).

نَدْعُوهُ﴾ [الطور: ٢٨].

ولذا كان صرف الدعاء لغير الله شرك مخرج من الملة، قال الخطابي: «والاستعاذة بالمخلوق **شرك مناف لتوحيد الخالق**؛ لما فيه من تعطيل معاملته تعالى الواجبة له على عبيده»[١].

والاستعاذة نوع من الدعاء.

ـ ونقل إجماع المسلمين على هذا الإمام ابن خزيمة، قال ـ رحمه الله ـ: «أفليس العلم محيطاً يا ذوي الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبي ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه؟ **هل سمعتم عالماً يجيز أن يقول الداعي**: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله؟! أو يجيز أن يقول: أعوذ بالصفا والمروة؟ أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله؟

هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه»[٢].

قال العلامة عبدالله أبا بطين: «فلما كان مستقراً عند العلماء أن الاستعاذة بالله عبادة له، قالوا: لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، فلما كان هذا الأصل مستقراً عندهم استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ الاستعاذة بكلمات الله التامات فعلاً منه وقولاً.

وهذا من حجة أهل السنة على الجهمية القائلين بخلق القرآن ـ يقولون ـ لو كان القرآن مخلوقاً امتنعت الاستعاذة به»[٣].

---

(١) العقد الثمين للسويدي (ص ٥٤٣).

(٢) التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل (١/ ٤٠٠).

(٣) تأسيس التقديس في كشف داود بن جرجيس (ص ٨٣).

وذكر الحليمي[(١)]: «إنه لا ينبغي أن يكون الرجاء إلا لله جل جلاله (إذ) كان المنفرد بالملك والدين، ولا يملك أحد من دونه نفعاً ولا ضراً.

فمن رجا ممن لا يملك مالا يملك فهو من الجاهليين[(٢)]، **وإذا علق رجاءه به - جل ثناؤه - فينبغي أن يسأله ما يحتاج إليه صغيراً وكبيراً؛ لأن الكل بيده، لا قاضي للحاجات غيره، وسؤاله إنما يكون بالدعاء**»[(٣)].

والقرآن دل على أن صرف الدعاء لغير الله شرك في مواضع، منها:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

قال القرطبي: «والآية في محاجة المشركين ممن اعترف أن له صانعاً؛ أي: **أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله**، وسترجعون إليه يوم القيامة - أيضاً - فَلِمَ تصرون على الشرك في حال الرفاهية؟! وكانوا يعبدون الأصنام **ويدعون الله في صرف العذاب**»[(٤)].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم: ٣٣].

قال القرطبي: «ومعنى هذا الكلام: التعجب، عجب نبيه من المشركين

---

(١) هو القاضي العلامة رئيس المحدثين والمتكلمين ومفتي الشافعية ببلاء ما وراء النهر، وأحد أصحاب الوجوه في المذهب، توفي سنة (٤٠٣ هـ).

(٢) أي كفار الجاهلية

(٣) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٥٢٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٦/ ٢٧٢).

في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم، أي: إذا مس هؤلاء الكفار ضر من مرض وشدة دعوا ربهم، **أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام لعلمهم بأنه لا فرج عندها** ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: عافية ونعمة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يشركون به في العبادة»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣- ١٤].

وهذا واضح عند العلماء ولذا قال الماتريدي - في تفسير قوله تعالى ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] -: «يحتمل وجوهاً: قال بعضهم: ففروا إلى توحيد الله من الشرك به، دليله قوله على أثره ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذاريات ٥١]. . . . .

ويحتمل: ففروا إليه في جميع حوائجكم، **ولا تطلبوا شيئاً من ذلك من غيره**، فإنه هو القادر عليها حقيقة فيكون في الآية ترغيب في **الرجوع إليه في الحوائج وقطع الطمع عن غيره**، والله أعلم»[٢].

وإن المرء ليتعجب من ضجيج هؤلاء القبوريين من القول بأن الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر مخرج من الملة، مع قولهم بكفر من قال إن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بقوة أودعها الله فيها.

وقد نبه على هذا التناقض العلامة عبداللطيف بن حسن ـ في رده على

---

(١) المصدر السابق (٧/ ١٤/ ٢٣).

(٢) تأويلات أهل السة (٤/ ٢٥٨٥).

ابن جرجيس العراقي ـ فقال: «**إذا كان إسناد الفعل إليها استقلالاً يكفر فاعله إجماعاً**، وهي من الأسباب العادية التي أودع الله فيها قوة فاعلة، **فكيف لا يكفر من أسند ما لا يقدر عليه إلا الله من إغاثة اللهفات**، وتفريج الكربات إلى غير الله من الصالحين ونحوهم، وزعم أنها وسائل أو أن الله وكل إليهم التدبير كرامة لهم، **هذا أولى بالكفر وأحق به ممن قبله.**

ويقال للعراقي: أنت لا ترضى تكفير أهل القبور لاحتمال العذر والشبهة، وأنه شرك أصغر يثاب من أخطأ فيه، **فكيف جزمت بكفر من أسند القطع للسكين من غير استناد إلى الله؟!**

وما الفرق بين من عذرته وجزمت بإثابته، وبين من كفرته وجزمت بعقابه؟!

ليست إحدى المسألتين بأظهر من الأخرى، وما يقال من الجواب فيما أثبته من الكفر يقال فيما نفيته..

ويقال: **جمهور العقلاء، على الفرق بين الأسباب العادية وغيرها**، فالشبع والري والدفء أسباب عادية فاعلة، وإنما يكفر من أنكر خلق الله لهذه الأسباب، وقال بفعلها دون مدبر عليم حكيم.

وهذا البحث يتعلق بتوحيد الربوبية، **وأما جعل الأموات أسباباً يستغاث بها** وتدعى وترجى، وتعظم على أنها وسائط، **فهذا دين عباد الأصنام، يكفر فاعله بمجرد اعتقاده وفعله، وإن لم يعتقد الاستقلال**، كما نص عليه القرآن في غير موضع»[(١)].

٣ ـ أن شرك الدعاء ليس خاصاً بدعاء العبادة كما يزعم عباد القبور بل ويشمل دعاء المسألة.

---

(١) منهاج التأسيس (ص ٢٦٦ - ٢٦٧).

الدعاء نوعان:

دعاء عبادة: وهو عبادة الله بأنواع العبادات من الصلاة والصوم والحج والجهاد والذكر وقراءة القرآن والخوف والرجاء والمحبة والنذر ونحوها.

ودعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر.

والعلاقة بين النوعين أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة؛ وذلك أن الداعي ـ دعاء مسألة ـ عابد لله تعالى بسؤاله ورغبته والابتهال إليه والتضرع إليه ويرجو ما عنده، وهو مع ذلك خائف من رفضه وعدم قبوله.

والرجاء والخوف والمحبة عبادات قلبية.

قال الحليمي: «والدعاء (في) الجملة من جملة التخشع والتذلل؛ **لأن كل من سأل ودعا فقد أظهر الحاجة، وباح واعترف بالذلة والفقر والفاقة لمن يدعوه ويسأله، فكان ذلك في العبد نظير العبادات التي يتقرب بها إلى الله** - عزّ اسمه -، ولذلك قال الله - عز وجل -: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] **فأبان (أن) الدعاءَ عبادةٌ**، والخائف فيما وصفنا كالراجي؛ **لأنه إذا خاف خشع وذل لمن يخافه وتضرع إليه في طلب التجاوز عنه**»(١).

ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة؛ وذلك أن المتصدق أو المصلي حقيقة هو يريد ما عند الله من الثواب والنجاة من العقاب.

فهو سائل من الله الثواب والنجاة من العقاب، وإن لم يقع منه السؤال.

«وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذ احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٥١٧).

قالوا: المراد به العبادة، فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨] أي: لا تعبدوا مع الله أحداً.

فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة، فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة، **لأن دعاء العباد مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.**

هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، **فكيف وقد ذكره الله في القرآن في غير موضع**»[١].

فإن الآيات المذكورة في أدلة القاعدة صريحة في أن دعاءهم كان دعاء مسألة.

فالدعاء بعد مجيء العذاب بإزالته والخلاص منه دعاء مسألة، وكذا الدعاء بالنجاة من الغرق بعد هبوب الريح وتلاطم الأمواج دعاء مسألة.

وغير هذا في القرآن مما يتعلق بدعاء المسألة كثير، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

قال الماتريدي: «قوله تعالى ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أي له عبادة الحق، وليس لمن دونه عبادة الحق، أي: هو

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص ٢١٥).

المستحق للعبادة، ليس من يعبد دونه بالذي يستحق العبادة، وعبادة الحق له، ليست لمن دونه.

والثاني: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: **له إجابة دعوة الحق، ليس يملك من دونه إجابة من دعا بالحق.**

فعلى التأويل الأول الدعوة العبادة، **وعلى الثاني الدعوة الإجابة، أي: له إجابة دعوة من دعا بالحق، والله أعلم.**

هو يملك إجابة دعوة الحق. فأما من عبد إلها دونه، ودعا دونه فلا يملك ذلك.

يدل على ذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: والذين يدعون من دونه **لا يملكون الإجابة، أو لا يملكون ما يأملون من عبادتهم الأصنام**، فيكون مثل ما ذكر ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وجه ضرب مثل من يدعون من دون الله بباسط كفيه إلى الماء، هو - والله أعلم - ليس من يدعون من دون الله إلا كباسط كفية إلى الماء، **فيدعو الماء فلا يجيبه الماء. فعلى ذلك من يدع الأصنام لا تملك إجابته**، والله أعلم. . . .»ثم شرح المثل المضروب في الآية على الوجه الأول، ثم قال: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: **دعاؤهم** وعبادتهم لا يعقب لهم إلا الخسارة في الآخرة، حاصله يضل ذلك كله عنهم، لا يصلون إلى ما يأملون **بالدعاء** والعبادة، كقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]»(١).

فبين الماتريدي على أحد الوجهين في تفسير الآية - أن الآية في دعاء المسألة، وهو التفسير الذي ذكر له ما يدل عليه من سياق الآية

---

(١) تأويلات أهل السنة (٢/ ٦٢٣).

بخلاف الوجه الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فهذه الآية واضحة الدلالة على دعاء المسألة.

٤- أن الشرك يكون بصرف العبادة لغير الله عملياً، ولو لم يصحب ذلك اعتقاد استحقاق عبادة غير الله تعالى.

ووجهه: أن القرآن بين أن شركهم كان بصرف الدعاء لغير الله، ولم يزد القرآن على هذا لتكفيرهم.

وقد نص العلماء على أن الشرك يكون بصرف العبادة لغير الله عملاً، ولو لم يصحب ذلك اعتقاد استحقاق عبادة غير الله.

قال الماتريدي: «ثم يحتمل قوله ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ وجهين:

أحدهما: الأصل في الاعتقاد، أي: اعتقد جعل كل عبادة وطاعة لله خالصاً، لا تعتقد أحداً شريكاً.

والثاني: في المعاملة، أي: كل عبادة وطاعة اجعله لله خالصاً، لا تجعل لغيره فيه شركاً، والله أعلم»[(١)].

وقال - أيضاً -: «ثم الشرك في ما جرى به الكتاب على أوجه أربعة:

مرة على العبادة بقوله عزوجل ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وشرك في الخلق بقوله عز وجل ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦]، وشرك في الحكم بقوله تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٨٩).

[الكهف: ٢٦]، وشرك في الملك بقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

فثبت أن الشرك يقع مرة في العبادة، ومرة في الخلق، ومرة في الملك، ومر في الحكم»[١].

٥ ـ أن انتقاض التوحيد يحصل بصرف عبادة واحدة من العبادات لغير الله.

ووجه هذا: أن القرآن رتب حكمه عليهم بإخلاص الدين لله على إفراد الله بالسؤال والتضرع بين يديه والإلتجاء به.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [الزمر: ٨] يعني: الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: **راجعاً إليه مخبتاً مطيعاً له مستغيثاً به في إزالة تلك الشدة عنه** ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه وملكه. . . .﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل في كشف الضر عنه. و (مَا) على هذا الوجه لله عز وجل، وهي بمعنى (الذي).

وقيل: بمعنى (من) كقوله ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون:٣] والمعنى واحد.

وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي: ترك كون الدعاء منه إلى الله، فـ (ما) والفعل على هذا القول مصدر﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر: ٨] أي: أوثاناً وأصناماً»[٢].

وقال جلال الدين المحلي: «قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

---

(١) تأويلات أهل السنة (٥/ ٢٧٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٥/ ١٥٥).

لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: **الدعاء**، أي: لا يدعون معه غيره؛ **لأنهم في شدة لا يكشفها إلا هو** ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ به»(١).

ومفهومه: أن شركهم بالله كان بصرف الدعاء لغيره سبحانه وتعالى، مما يدل على أن نقض التوحيد يحصل بصرف عبادة واحدة لغير الله تعالى.

٦ ـ خطأ القبوريين في تسميتهم الاستغاثة بغير الله توسلاً وأنها ليست بشرك.

قال القباني: «جواز التوسل والتشفع والاستغاثة بالرسول ﷺ وبغيره من الأنبياء و الأولياء... ولا فرق في ذلك بين التعبير بالتوسل أو الاستغاثة أو التشفع أو التوجه به ﷺ في الحاجة».

وقال محمد عاشق الرحمن ـ بعد أن ذكر حديث توسل آدم بمحمد قبل وجوده ـ: «ولا فرق في هذا المعنى بين أن يعبر عنه بلفظ التوسل، أو الاستغاثة، أو التشفع، أو الإلتجاء، والداعي بالدعاء المذكور، وما في معناه متوسل بالنبي ﷺ؛ لأنه جعله وسيلة لإجابة الله دعاءه ومستغيث به»(٢).

ووجه هذا الخطأ: أن شرك أهل الجاهلية كان بجعل شركاء لله يدعونهم ويستغيثون بهم في الرخاء، وهو ما يطلق عليه القبوريون التوسل.

قال العلامة الخجندي (ت **١٣٧٩هـ**): «وإن من أعظم مكائد الشيطان على بني آدم قديماً وحديثاً، **إدخال الشرك فيهم في قالب تعظيم الصالحين وتوقيرهم بتغيير اسمه بالتوسل والتشفع ونحوه.**

فالمشرك مشرك شاء أم أبى، والزنا زنا وإن سمي جماعاً، والخمر

---

(١) تفسير الجلالين (ص ٨٢٤).

(٢) انظر في توثيق هذين النصين: دعاوى المناوئين (ص ٢٤٦، ٢٥٢).

خمراً، وإن سمي شراباً.

وكل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت.

ويدخل فيه رؤوس الضلال والكهان وسدنة الأوثان وعباد القبور وغيرهم، بما يكذبون من الحكايات المضلة للجهال، الموهمة أن المقبور يقضي حاجة من توجه إليه وقصده، فيوقعهم في الشرك الأكبر وتوابعه»[(١)].

والفرق بين الاستغاثة والتوسل كبير لغة وشرعاً.

أما اللغة فمن وجوه:

الأول: أن لفظ (الاستغاثة) في الكتاب والسنة وكلام العرب إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به.

أما (التوسل) فهو طلب به، وليس طلباً منه.

وقول القائل: استغثت به بمعنى توسلت بجاهه كلام لم ينطق به أحد من الأمم لا حقيقة ولا مجازاً، ولم يقل أحد مثل هذا، ولا معناه لا مسلم ولا كافر.

الثاني: أنه لا يقال: استغثت إليك يا فلان بفلان أن تفعل لي كذا، وإنما يقال: استغثت بفلان أن يفعل بي كذا.

ويصح أن يقال: توسلت إلى فلان بفلان.

الثالث: أن أهل اللغة يجعلون فاعل المطلوب هو المستغاث به، ولا يجعلون المستغاث به غير المطلوب منه، أما (التوسل) ففاعل المطلوب منه ليس المتوسل به، إنما هو المتوسل إليه.

---

(١) حكم الله الواحد الصمد (ص ٤٨ - ٤٩).

فقول القائل: أتوسل إليك يا إلهي بفلان، إنما خطاب لله وليس للمتوسل به، أما قول القائل: استغيث بفلان إلى الله فإنه خطاب وسؤال لفلان وليس لله، فالاستغاثه طلب منه لا به.

والتوسل طلب به لا منه.

يتبين من هذا:

الرابع: أن التوسل فيه ثلاثة أطراف: متوسل ومتوسل به ومتوسل إليه، أما الاستغاثة فليس فيها سوى طرفين مستغيث (وهو السائل) ومستغاث به[(١)].

أما الفرق بين الاستغاثة والتوسل شرعاً.

فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر مخرج من الملة، وقد تقدم أدلة ذلك.

وأما التوسل فبدعة محدثة، ولم يقل أحد من أهل العلم بأنه شرك، قال العلامة عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ـ عن حكم سؤال الله بالموتى ـ: «وهذا يفعله كثير من المتأخرين، وهو من البدع المحدثة في الإسلام، ولكن بعض العلماء يرخص فيه، وبعضهم ينهى عنه ويكرهه... لكنه لا يوصله إلى الشرك الأكبر»[(٢)].

قلت: ويدل على بدعيته أدلة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، والدعاء المأذون فيه المأمور به، ما استفيد من قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: التوضيح عن توحيد الخلاق (ص ٣٠٧ - ٣١٢).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل (١/ ٦٩).

يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠]»[(١)].

٢ - أن العبادات توقيفية، والدعاء عبادة من أجل العبادات، ولذا علق العز بن عبدالسلام القول بالتوسل على صحة حديث عثمان بن حنيف، وجعله خاصاً بالنبي ﷺ، وسيأتي نص كلامه.

٣ ـ أن التوسل لو كان مشروعاً ـ واجباً كان أو مباحاً ـ لبينه النبي ﷺ، ولما لم يبينه النبي ﷺ دل على أنه غير مشروع.

فمن اعتقد أنه قربة أو أنه سبب لإجابة الدعاء فهو ضال، وكانت بدعته من البدع السيئة.

٤ ـ عدول الصحابة عن التوسل بالذات الشريفة إلى التوسل بدعاء بعض الصحابة، كما فعل عمر رضي الله عنه في توسله بدعاء ابن عباس مع توافر الصحابة واتفاقهم على ذلك.

قال العلامة الألوسي: «**وحاشاهم أن يعدلوا عن التوسل بسيد الناس إلى التوسل بعمه العباس، وهم يجدون أدنى مساغ لذلك.**

فعدولهم مع أنهم السابقون الأولون، وهم أعلم منا بالله تعالى ورسوله ﷺ، وبحقوق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وما يشرع من الدعاء وما لا يشرع، وهم في وقت ضرورة ومخمصة يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طرق ـ **دليل واضح على أن المشروع ما سلكوه دون غيره**»[(٢)].

---

(١) الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار (صـ ٦٦٢) وحاشية ابن عابدين عليه، المسماة رد المحتار على الدر المختار (٩/ ٥٦٨).

(٢) روح المعاني (٦/ ١١٣).

٥ ـ أن أوائل الأمة من التابعين، فمن بعدهم على إنكاره، والقول به جاء عمن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عن من ليس قوله حجة، كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه: إنه لا يجوز، ونهوا عنه حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق، ولا يقول أحد: أسألك بحق أنبيائك.

قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بـ (شرح الكرخي) في باب الكراهة: وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة.

قال بشر بن الوليد، حدثنا أبو يوسف، قال: **قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: «بمعاقد العز من عرشك» أو «بحق خلقك»**.

وهو قول أبي يوسف. قال **أبو يوسف**: بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا، **وأكره أن يقول: بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام**.

قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز؛ **لأنه لاحق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً**»[(١)].

٦ ـ أن التوسل بالذات هو إقسام على الله بالمتوسل به، وقد اتفق العلماء

---

(١) قاعدة جليلة (ص ٨٢).

على أن القَسَمَ على الله ببعض خلقه من الأنبياء والملائكة وغيرهم لا يجوز، وهو غير منعقد. ولم يتنازعوا إلا في نبينا على قولين في مذهب أحمد:

الأول: أنه لا ينعقد، وهو مذهب الجمهور كأبي حنيفة ومالك والشافعي.

والثاني: أنه منعقد.

وقد طرد بعض أصحاب أحمد هذا الخلاف في سائر الأنبياء دون غيرهم.

واختار العلامة العز بن عبدالسلام القول الثاني إن صح حديث عثمان بن حنيف، حيث قال ـ رحمه الله ـ: «وأما مسألة الدعاء، فقد جاء في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ علم بعض الناس الدعاء، فقال: في أقواله: «قل: اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد ﷺ بني الرحمة» **وهذا الحديث إن صح، فينبغي أن يكون مقصوراً على رسول الله ﷺ؛ لأنه سيد ولد آدم**، وأن **لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة؛ لأنهم ليسوا في درجته**، وأن يكون هذا مما خص به تنبيهاً على علو درجته ومرتبته»[(١)].

٧ ـ أن يقال ـ تنزلاً ـ: لا يخلوا التوسل بالذوات أن يكون أفضل من التوسل بأسماء الله وصفاته والأعمال الصالحة أو أنه ليس بأفضل.

فإن قيل: التوسل بالذوات أفضل، فهذا قول كفري؛ لما يترتب عليه من أن النبي ﷺ لم يبلغ أمته هذه العبادة.

وإن قيل: إن التوسل بالذوات ليس بأفضل.

قلنا: فلما هذا الدفاع والمنافحة عن المفضول وترك الفاضل مع ما ترتب عليه من المفاسد العظيم كالاستغاثة بغير الله والالتجاء بالقبور وغير

---

(١) فتاوى العز (١٢٦).

ذلك مما يؤدي إلى انسلاخ المسلم من دينه[١].

وقد بَيَّن العلامة الرباطي الحنفي الصور التي أدخلت في التوسل، وهي من الشرك بل من جنس كفر الجاهليين، فقال: «وأما القسم الذي نعبر عنه بالتوسل (غير) الشرعي ـ فحان أن نشرع فيه، فأقول ـ وبالله التوفيق ـ: التوسل (غير) الشرعي على أنحاء سبعة حسبما وقع عليه عمل كثير من المفتونين بالقبور والمشاهد:

النحو الأول: أن يأتي قبر نبي أو ولي أو غيرهما ممن يحسن عقيدته (فيه)، فيقول: يا سيدي فلان! اشفني، أو اشف مريضي، أو اكشف كربتي، واقض حاجتي، أو أهلك عدوي، وعليك أن تفعل كذا وكذا، وأنت وكيلي، وأنت كفيلي. . . وغير ذلك من الألفاظ المختلفة باختلافهم.

والثاني: أن يدعو غائباً أو ميتاً من بعيد من غير الإتيان إلى قبره والحضور لديه بهذا النحو من الكلمات.

والثالث: أن يأتي القبر، ويقول: يا فلان! ادع الله أن يقضي حاجتي، واشفع لي في حاجتي هذه، فإنك مقبول الشفاعة، لا جائز أن يرد الله شفاعتك.

والرابع: أن يدعو غائباً أو ميتاً بعيداً عن القبر بهذا النحو من الدعاء.

الخامس: أن يأتي القبر ويسأل الله وحده معتقداً أن الدعاء عند مزار الولي أقرب إلى الإجابة.

السادس: أن يدعو من غير شهود المقابر والمزارات: يا إلهي! اقض حاجتي بحق فلان وفلان.

---

(١) هذه مفاهيمنا (ص ١٩).

السابع: أن يقول في دعائه: بوسيلة فلان أو ببركته أو بخاطره أو بطفيله، أو بحرمته، أو بجاهه، وغير ذلك مما يؤدي مراده.

فهذه جملة الأسماء التي يسميها عباد القبور بالتوسل، وينكرون أشد النكير على من أنكر (عليها)، وينسبونه إلى إنكار الوسيلة، وإنكار الكرامات، وتوهين الأولياء، وغير ذلك من المطاعن»(١).

ثم بَيَّن حكم الصور الأربع، وأنها من الشرك الأكبر، فقال: «أما النحو الأول فليس من التوسل المباح في شيء، **بل هو كفر بواح وإشراك بالله في التصرف والقدرة والدعاء**، يجب استتابة المبتدي به، فإن تاب وإلا يقتل، **وليس هذا أقل من شرك المشركين الذين أنزل لإصلاحهم القرآن**، وبعث لدعوتهم الرسول الله ﷺ، **بل هو أزيد من شركهم بكثير**»(٢) ثم ذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

ثم ذكر النوع الثاني، وبين أنه شرك مثل النوع الأول.

ثم ذكر حكم النوع الثالث، وبَيَّن أنه شرك بالله، **وأنه من قبيل شرك الشفاعة، وأنه عين وثنية الوثنيين السابقين والمشركين الأولين**، الذين كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وأنهم يقربونا إلى الله زلفى.

ثم ذكر حكم النوع الرابع، وحقق أنه إشراك بالله تعالى مثل النوع الثالث، **وأنه من جنس شرك الجاهليين، وفيه إشراك بالله تعالى في صفتي العلم والسمع**(٣).

---

(١) الكواكب الدرية (ص ٣٤ - ٣٦) نقلاً من كتاب: جهود علماء الحنفية (٣/ ١٤٦٦).

(٢) الكواكب الدرية (ص ٣٦)، نقلاً من المصدر السابق (٣/ ١٤٧٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (٣/ ١٤٧٣).

ومـمـن بَيَّن الفرق بين التوسل بالصالحين - وهو ممن يرأه - وبين الاستغاثة الفقيه الشافعي الحافظ ولي الدين أبو زرعة ابن العراقي، فقد سئل عمن يزور الصالحين من الموتى، فيقول عند قبر الواحد منهم: يا سيدي فلان أنا مستجير بك، أو متوسل بك أن يحصل لي كذا وكذا، أو أطلب منك أن يحصل لي كذا وكذا، أو يقول: يا رب أسألك بمنزلة هذا الرجل أو بسره أو بعمله أن يفعل لي كذا وكذا، هل هذه العبارات حسنة أو غير حسنة أو بعضها قبيح؟ فقال - بعد أن أجاز التوسل بالنبي ﷺ والصالحين -: «**وأما قوله: (أنا أطلب منك أن يحصل لي كذا وكذا) فأمر منكر، فالطلب إنما هو من الله تعالى**»(١).

٧ - عظم الله في نفوس المشركين وأن تعظيمهم له فوق تعظيم آلهتهم(٢).

ويظهر هذا: في اتخاذ وسطاء يقربونهم إلى الله، وفي إتيانهم بالتوحيد الخالص في حال الخوف والشدة والكرب.

قال العز بن عبد السلام: «قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] مشكل؛ لأن قاعدة التشبيه أن يكون المشبه دون المشبه به، وهذا ورد إنكاراً عليهم في تشبيههم الأصنام بالله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فهذا يقتضي أن يقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق.

ولا يقال: إنهم يعظمون الأصنام أكثر من تعظيم الله؛ لأنه ليس الأمر كذلك بل قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. . .»(٣).

---

(١) فتاوى العراقي (صـ١٦٨).

(٢) انظر: (ص ٢٢٨) من هذا الكتاب.

(٣) فوائد في مشكل القرآن (ص ١٤٨).

«قال ابن إسحاق: **وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة**، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوفانها بها، وتنحر عندها، **وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده**»(١).

قال العلامة سليمان بن عبد الله: «**قلت: هذا الذي ذكره ابن إسحاق من شرك العرب هو بعينه الذي يفعله عباد القبور، بل زادوا على الأولين**»(٢).

٨ - أن سبب التجاء المشركين بالله تعالى في الشدائد اعتقاد أن النفع والضر بيده سبحانه وتعالى.

قال أبو منصور الماتريدي - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] -: «قد علموا أن لا خالق سواه، **وعرفوا أنه لا يملك أحد سواه، كشف ما أراد هو من الضرر، ولا إمساك ما أراد من الرحمة بأحد.**

ولذلك فزعوا إليه عند نزول البلاء بهم، ولم يفزعوا إلى من عبدوهم من دونه من الأصنام، ولا إلى أحد من الخلائق.

دل ذلك على أنهم قد عرفوا أن ذلك به يُنال من خير أو غيره. ولذلك فزعوا إليه عند نزول البلاء بهم، ولم يفزعوا إليهم، ولذلك احتج عليهم بما احتج، ولو لم يكونوا علموا بذلك لم يكن ليحتج عليهم بذلك، وهم بذلك منكرون، والله أعلم»(٣).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣/ ٢٦٨ ط. مكتبة أولاد الشيخ).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص ١٧٧).

(٣) تأويلات أهل السنة (٤/ ٣١٠).

ويدل على هذه الفائدة: قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: **ولئن سألتهم يا محمد،** ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان **مقرون بأن الخالق هو الله،** وإذا كان الله هو الخالق، فكيف يخوفونك بآلهتهم التي هي مخلوقة لله تعالى؟! وأنت رسول الله الذي خلقها وخلق السموات والأرض.

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾ أي: قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ يعني: هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة ورخاء .﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا. وقال غيره: **قالوا لا تدفع شيئاً قدره الله ولكنها تشفع.** فنزلت ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني: **فسيقولون: لا، أي: لا تكشف ولا تمسك،** فـ (قل) أنت (حسبي الله). أي: عليه توكلت، أي: اعتمدت و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون»(١).

٩ - أن المشركين يعرفون التوحيد الحق لكنهم يرفضون الاستمرار عليه.

قال الماتريدي - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٣] -: «**فيه دلالة أنهم قد عرفوا وحدانية الله وألوهيته**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٥/ ١٦٨).

حين فزعوا عند الشدائد والبلايا إلى الله أخلصوا له الدين، ثبت أنهم قد عرفوا سفه أنفسهم في عبادة الأصنام وتركهم عبادة الله تعالى»(١).

فإن قال قائل: فما دام الأمر على ما قلت، فلماذا خالفوا الرسول ﷺ وقاتلوه؟

قلنا: حب الدنيا وخشية ذهاب سلطانها.

قال الرازي ـ في تفسير آية العنكبوت ـ: «إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا، وبيان ذلك: هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد، ووحدوا وأخلصوا، فإذا أنجاهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا»(٢).

١٠ - أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من شرك الجاهليين من وجوه(٣):

أولها: أن شرك الجاهليين في وقت الرخاء، أما في الشدة فيخلصون لله الدين بخلاف مشركي زماننا، فهم يشركون في الرخاء والشدة بل شركهم في الشدة أشد.

قال النبهاني في الفوائد المقتبسة من رسالة (مصطفى البكري في الرد على من منع الزيادة) ـ مستدلاً على أن زيادة الصالحين سبب في قضاء مهمات المسلمين ـ: «قال رضي الله عنه ـ يعني البكري ـ: يحكى أن سيدي محمداً الحنفي ـ قدس الله سره ـ فرش سجادته على البحر، وقال لمريده: قل يا حنفي وامش، فمشى المريد خلفه، فخطر له: لم يقول: يا حنفي؟! هلا

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٤٩).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٨١).

(٣) انظر: كشف الشبهات (ص ٤٩ - ٥١) والدر النضيد (ص ٦٦).

قلت: يا الله!

فلما قالها - أي: يا الله - غرق، فأمسك الشيخ بيده، وقال له: أنت الحنفي تعرفه، فكيف بالله؟ فإذا عرفت الله، فقل: يا الله.

يشير إلى أن الوسائط لابد (منهم)»[١].

قال العلامة محمد بن ناصر الحازمي: «وقد شاهدنا جماعة من أهل السواعي عند رفع الشراع في قطر اليمن من جملة ما يملونه: يا زيلعي! يا شاذلي! بشارة.

وهذا في كل خفض ورفع للشراع، وقصدهم أن يغيثهم بالرياح!

والله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، ويقول في السنن ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣] ثم قال ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٣٤] فتركوا الآيات البينات، ونسبوا قدرة الله إلى بعض العباد، فمن لا يعلم ما حاله عند عالم النيات.

ومن هنا قال بعض العلماء: إن هؤلاء أقبح في الشرك حالاً من مشركي العرب في هذه الحالة؛ لأن المشركين إذا مسهم الضر في البحر ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]»[٢].

وثانيها: أن الجاهليين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله: إما نبيًّا وإما وليًّا وإما ملكاً أو يدعون أشجاراً أو أحجاراً مطيعة لله ليست عاصية بخلاف أهل زماننا، فإنهم يدعون مع الله أناساً من أفسق وأفجر الناس.

---

(١) رسالة مصطفى البكري في الرد على من منع الزيارة، ملحقه بكتاب: شواهد الحق في الإستغاثة بسيد الخلق (ص٤٤٧).

(٢) إيقاظ الوسنان (ص ٩١ - ٩٢).

والوجه الثالث: أن مشركي زماننا زادوا على الجاهليين ضلالاً وشركاً في اعتقادهم أن أولياءهم يدبرون الكون ويتصرفون فيه.

وقد نص على هذه الفائدة غير واحد، ويكفينا في هذا المقام ما نقل ابن عابدين في رسالته (تنبيه الولاة والحكام على أحكام شاتم خير الأنام أو أحد الصحابة الكرام) عن إبراهيم الحلبي أن الغالي من الروافض ومن ضاهاه أسوأ حالاً من المشركين الذين قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ قال ابن عابدين - تعليقاً على كلام الحلبي -: «لأنه اعتقد الألوهية في علي رضي الله عنه، **والذين عبدوا الأصنام لم يعتقدوا الألوهية فيها**، وإنما عبدوها تقرباً إلى الله تعالى الذي هو الإله، **وإنما سموها آلهة لإشراكهم إياها له تعالى في العبادة**»[1].

وقال العلامة البرقعي - وهو أحد مراجع الشيعة الكبار الذين اهتدوا للسنة - عند تعليقه على روايات (الكافي) في أن من عرف إمامه لم يضره شيء، فبين أن الإمام الذي من عرفه لم يضره شيء القرآن، فقال: «وكل من لم يطلع عليه، ولم يعرف ما يحتويه يكون كافراً، **ككفار الجاهلية بل أسوأ منهم؛ لأنهم كانوا إذا استغاثوا بغير الله في دعائهم**، وتوسلوا بكبرائهم لم يكن لهم كتاب ولا هداية، ولكن المسلمين علمهم كتابهم مائة مرة أن لا يستغيثوا بغير الله، ولا يجعلوا أحداً غيره حاضراً وناظراً في كل وقت»[2].

قال العلامة الألوسي ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٤] ـ: «**وفي الآية ما يدل على أن**

---

(١) رسائل ابن عابدين (١/ ٣٦٢).

(٢) كسر الصنم (ص ٢٦٣).

صنيع أكثر العوام اليوم من الجؤار إلى غيره تعالى ممن لا يملك لهم، بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً ـ عند إصابة الضر لهم، وإعراضهم عن دعائه تعالى عند ذلك بالكلية ـ **سفه عظيم، وضلال جديد، لكنه أشد من الضلال القديم**.

ومما تقشعر منه الجلود، وتصعر له الخدود الكفرة أصحاب الأخدود فضلاً عن المؤمنين باليوم الموعود **أن بعض المتشيخين قال لي وأنا صغير: إياك ثم إياك أن تستغيث بالله تعالى إذا خطب دهاك، فإن الله تعالى لا يعجل في إغاثتك**، ولا يهمه سوء حالتك، **وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين**، فإنهم يعجلون في تفريج كربك، ويهمهم سوء ما حل بك.

فمج ذلك سمعي، وهمى دمعي، وسألت الله تعالى أن يعصمني و المسلمين، من أمثال هذا الضلال المبين.

ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك»(١).

وقال العلامة النعمي التهامي: «. . .**حتى إنا وجدنا في أفعالهم لدى هذه المشاهد ما كان صنيع الجاهلية عند بيوت الأوثان**، وزيادة غلو على من ضاد الله ورسوله باتخاذ إله ثان. فإنا سمعنا الله يقول في كتابه، إذ سجل على أولئك الأقوام ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، أي: هو تعالى ذو الجلال الإكرام.

وطالما شاهدنا عُبَّاد أرباب هذه القباب، إذا التطمت عليهم أمواج البحر العباب سمعت ذكر الزيلعي والحداد، وكل يدعو شيخه عند ذلك الاضطراب؛ إذ لكلٍ طريقةٌ لا ينتحي سواها في الهتف والانتساب، ولكل من الجيلاني وابن علوان والعيدروس والحداد وغيرهم من آلهة هذه الطوائف

(١) روح المعاني (١٤ / ١٦٦).

طائفة من العباد، ويذكرون الله في جملة من ذكرنا، كما سمعناهم ـ أيضاً ـ كأنه واحد من تلك الأعداد، وحاشا كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ـ خصوصاً صلحاء الأمجاد ـ أن يرضى شيئاً من هذا، وإلا كان شريكاً لمن حاد الله ورسوله وضاد»(١).

وقال علامة الزيدية محمد بن الحسن الديلمي – في رده على الباطنية –: «فعلم أن كفرهم يزيد على كفر عبدة الأصنام وكفر النصاري وغيرهم من الأنام.

أما أن كفرهم آكد من كفر عبدة الأوثان؛ فلأن منهم من لم يجحد الصانع سبحانه، ولهذا قال تعالى - حاكياً عنهم -: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال – إخباراً عنهم – ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقد قدمنا أنهم يجحدون الصانع بأدلة كثيرة...»(٢).

وقال - أيضاً –: «ولأن كفرهم آكد من كفر عبدة الأوثان؛ لأن فيهم من لم يجحد الصانع، كما ذكرنا»(٣).

١١ – عدم فهم القبوريين للتوحيد.

قال العلامة عبدالرحمن بن حسن: «فما أجهل عباد القبور بحالهم!! وما أعظم ما وقعوا فيه!!

فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا (لا إله إلا الله) لفظاً ومعنى، وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى.

فتجد أحدهم يقولها وهو يألهُ غيرَ الله بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم،

---

(١) معارج الألباب (ص ٥٤ – ٥٥).

(٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه (ص ٩١).

(٣) المصدر السابق (ص ١٠١).

والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة.

بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أكثرهم إذا وقع في شدة، أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرعُ فرجاً لهم، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فبهذا تبين: أن مشركي أهل هذه الأزمان، أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم»[(١)].

قال محمد رشيد رضا: «تحرير الموضوع أن الدعاء قسمان: دعاء العبادة، ودعاء العادة.

فالثاني ما يطلبه الناس بعضهم من بعض مما يقدرون عليه بالأسباب التي سخرها الله لهم.

ودعاء العبادة هو طلب ما وراء الأسباب مما لا يقدر عليه إلا رب العباد.

والإله في اللغة هو المعبود بالدعاء، الذي هو مخ العبادة، والفرد الكامل منها أو بغيره مما يتقرب به إلى المعبود من نذر وتعظيم قولي أو عملي باعثه اعتقاد القدرة الغيبية على النفع ومنعه، والضر وكشفه من غير طريق الأسباب بالذات أو بالتأثير عند الله.

وكانت عبادة قريش لآلهتهم من النوع الثاني، وهي دعاؤهم ليشفعوا لهم عندالله ويقربوهم إليه زلفى، كما هو صريح نصوص القرآن.

ودحلان وأمثاله من متأولة الشرك **يجهلون معنى العبادة والألوهية، ولا**

---

(١) فتح المجيد (ص ٧٠).

يفرقون بين اتخاذ المخلوق إلهاً بدعائه والنذر له ونحو ذلك، وبين تسميته إلها، فيظنون أن الشرك هو تسمية المخلوق إلهاً، فإذا عبده بالدعاء وغيره، ولم يسمه إلها لا يكون مشركاً، وإذا سمى العبادة توسلاً لا تكون عبادة، والعرب كانوا يسمون هذه المعاني بأسمائها لأن اللغة سليقة لهم، وقد فصلنا هذا مراراً في (المنار) و(تفسيره)»[(١)].

وتقدم في كلام الماتريدي ما يدل على أنه يرى أن الشرك يكون في الطاعة والعبادة، كما يكون في اعتقاد استحقاق عبادة غير الله[(٢)].

❖ ❖ ❖

خامساً: الشبه والاعتراضات على القاعدة.

الشبهة الأولى: قد يوجد من يزعم أن المشركين لم يخلصوا العبادة لله في الشدة ولم يوحدوه، وإنما جعلوا الدعاء لله فقط في تلك الحالة.

ولنا في الجواب عن هذه الشبهة مسلكان:

المسلك الأول: المنع.

نمنع هذه الدعوى ولا نسلم بها؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر حالهم ووصفهم في كتابه بأكثر من وصف:

الأول: أنهم ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] والعلماء فسروا إخلاص الدين: بالتوحيد وإفراد الطاعة له، وأذعنوا له بالعبودية، وهذا قول ابن جرير، قال ـ رحمه الله ـ: «**أخلصوا لله** عند الشدة التي نزلت

---

(١) هامش (ص ٣٦٧)، من كتاب صيانة الإنسان.

(٢) انظر: (ص ١٤٧، ١٦٢، ١٦٣ - ١٦٤، ٣٣١) من هذا الكتاب.

بهم **التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودية**، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم».

وقال أبو زكريا الفراء: «وقوله: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يقول: **يخلصون الدعاء والتوحيد إلى الله** في البحر، فإذا نجاهم صاروا إلى عبادة الأوثان»[(١)].

ومنهم من فسرها: بالإيمان، قال الحسن: «﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الإخلاص: الإيمان.

ومنهم من فسرها: بالعبادة، قال أبو السعود: «﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، من غير أن يشركوا به شيئاً من آلهتهم، لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط، **بل للعبادة ـ أيضاً ـ فإنهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين**»[(٢)].

الثاني: ما ذكره الله في قوله تعالى ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقول أهل التفسير: ذهب عن خواطركم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه.

الثالث: ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]، والمعنى: بل تدعون الله ولا تدعون غيره.

الرابع: أنهم ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] والإنابة أصلها الرجوع عما كانوا عليه، وهو الشرك، فهي التوحيد.

قال الماتريدي: «وأصل الإنابة الرجوع، أي: راجعين إليه عما كانوا فيه من الشرك .**فالإنابة هي التوحيد**، وإن كانت الإنابة الإخلاص **فهو رجوع عن**

---

(١) معاني القرآن (٢/ ٣١٨).

(٢) انظر: (ص ٣١٣) من هذا الكتاب.

الإشراك في العبادة، وإن كانت الرجوع عن العصيان **فهو الطاعة**. وأصلها الرجوع عما كانوا فيه»[(١)].

وقابل هذه الأوصاف:

ـ الشرك في البر كما في قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، فلو لم يأتوا بالتوحيد في البحر حال الشدة لما خص شركهم في البر.

المسلك الثاني: التسليم.

سلمنا بأن الآية نصت على أن إخلاصهم كان في الدعاء لله، فهذا ليس لكونهم لم يوحدوه سبحانه في حال الشدة، وإنما لكون أعظم شركهم كان في دعاء غير الله، وهذا يدل على أن الدعاء عبادة من أجل العبادات.

❖ ❖ ❖

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/ ٤٩).

فهرس الموضوعات